

سيكولوجية الحماسة

جان فرانسوا مارميون

- ♦ المؤلف: جان فرانسوا مارميون
- ♦ العنوان: سيكولوجية الحماقة
- ♦ ترجمة: لطفي السيد منصور
- ♦ الطبعة: الأولى 2025
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٤ / ١٦٢٨٠

الترقيم الدولي: ISBN :

978 - 977 - 765 - 417 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq for Publishing & Distribution

17 Mahmoud Basiony St, 6th floor, from Tallat Harb Sq, Cairo – Egypt

Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com

١٧ شارع محمود بسيوني - الدور السادس - متفرع من ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

f afaqcairo afaqcairo afaqcairoplsh

سيكولوجية حماقة

تحت إشراف

جان فرانسوا مارميون

ترجمة

لطفى السيد منصور

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

PSYCHOLOGIE DE LA CONNERIE

edited by Jean-François Marmion

Text: © Sciences Humaines 2018

Illustrations: © M. Zut & Marie Dortier

“Published by special arrangement with Éditions Sciences Humaines in conjunction with their duly appointed agent 2 Seas Literary Agency”.

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2024

المحتويات

١١	تمهيد (چان فرانسوا مارميون)
١٩	دراسة الحمقى علمياً (سيرچ تشيكوتي)
٣٢	تصنيف الحمقى (چان فرانسوا دورتييه)
٤٣	وجهة نظر إدجار موران
٤٥	نظرية الحمقى الأوغاد: مقابلة مع آرون چيمس
٥٣	من حماقة إلى الهراء (باسكال إنجل)
٦٣	الإنسان مخطئ للغاية (چان فرانسوا مارميون)
	معرض التحيزات (ومبادئ الاستكشاف)
٧٢	(چان فرانسوا مارميون)
٧٧	الحماقة والتحيُّز الإدراكي (إيفا دروزدا سينكوفسكا)
٨٨	التفكير ذو سرعتين: مقابلة مع دانييل كانيمان
٩٨	عن الحماقة في الدماغ (بيير لوماركي)
١٠٨	الحماقة المتعمَّدة (إيف ألكسندر تالمان)
	لماذا يصدِّق الأشخاص الأذكياء أحياناً

- ١١٧ التفاهات/ الهراء؟ (بريجيت أكسلراد)
- ١٢٩ لماذا نجد معنى للمصادفات؟ - مقابلة مع نيكولا جوفري
- ١٣٧ الحماقة باعتبارها هذياناً منطقيًا (بوريس سيرولنيك)
- ١٤٢ لغة الحماقة (باتريك مورو)
- لا تجعلنا العواطف (دائمًا) أغبياء -
- ١٥٤ مقابلة مع أنطونيو داماسيو
- ١٥٩ الحماقة والنرجسية (جان كوترو)
- مَنْ أسوأ المتلاعبين بالإعلام؟ وسائل الإعلام!
- ١٧١ مقابلة مع رايان هوليداي
- ١٨١ الشبكات الاجتماعية غبية وشريرة (فرانسوا جوست)
- ١٩٧ الإنترنت - هزيمة الذكاء - مقابلة مع هوارد جاردنر
- ٢٠٣ الحماقة وما بعد الحقيقة (سيباستيان ديجيز)
- ٢٢٣ تحولات العبادات القومية (بيير دو سيناركُلنس)
- ٢٣٣ كيف نحارب الأخطاء الجماعية؟ (كلودي بير)
- ٢٣٧ لماذا نستهلك كحمقى؟ - مقابلة مع دان أرثيلي
- ٢٤٤ البشر: النوع الحيواني الذي يجرؤ على أي شيء (لورون بيج)
- ٢٥٧ ماذا نفعل مع الحمقى الأوغاد؟ (إيمانويل بيكيه)
- ٢٦٥ الحماقة كما يراها الأطفال - مقابلة مع أليسون جوبنيك

- ٢٧٢ هل نحلم بالحماقة؟ (دلفين أودييت)
- الغباء الأكبر هو أن تعتقد أنك ذكي
- ٢٨١ مقابلة مع چان كلود كارير
- ٢٩٠ فليعيش بسلام مع حماقاته (ستايسي كالاها)
- ٣٠٠ الحماقة هي ضجيج الحكمة الخلفي - مقابلة مع توبي ناتان
- ٣٠٨ المسهمون في هذا العمل

أُجريت فيما سبق بحثًا حول الحماقة، وكانت النتائج الأولية مشجّعة للغاية. ومن ثم لم يكن ما ينقصني المتطوعون لتكوين المجموعة التجريبية، لكنه الوقت الذي خذلني، لذلك كنت آمل أن يتبنّى أحد طلابي فكرتي، مشروعِي، موضوع أطروحة عظيمة. لكنهم لم يفعلوا. لقد انزعجوا من اقتراحي... كان الموضوع يفتقر إلى الاحترام... ولم يروا الفكرة المعنية بوصفها موضوعًا علميًا. هناك كثير من الأشياء المشابهة لتلك التي تجري في الشوارع، والتي انصرف عنها علماء النفس.

رينيه زازو: ما الحماقة يا سيدتي؟

(في «أين علم نفس الطفل من هذا؟»، دينويل، ١٩٨٣)

تمهيد

يا مَنْ تدخلون هنا، اتركوا كل أمل

كتب ديكارت: «إن الحسَّ السليم أفضلُ شيءٍ مشتركٍ في العالم». ماذا عن حماقة إذن؟

سواء أكانت تنضح أم تتسرب، سواء أكانت تتقطر أم تندفع، فهي موجودة في كل مكان، بلا حدود، وبلا نهاية، أحياناً تندرج لطيفة في موجات، يمكن احتمالها تقريباً، وأحياناً تكون مستنقعاً راكداً مقزّراً، وأحياناً زلزلاً، وعاصفة، وموجة عاتية تجتاح كل شيءٍ في طريقها، وهي تحطم، وتستهزئ، وتعبث، الحماقة تلطّخ الجميع. والأسوأ من ذلك أنه يُشاع أننا جميعاً مصدرها. أنا نفسي لا أشعر أنني بحالة جيدة جداً.

الوجود الذي لا يُحتمل ثقله

يرى الجميع الحماقات، ويسمعونها، ويقرأونها، كل يوم من دون استثناء. في الوقت نفسه، الجميع يفعل ذلك، يفكر فيها، يتأملها ويقولها، نحن جميعاً حمقى في بعض الأحيان، ونحمق قولاً أو فعلاً بلا توقف من دون أن تكون لذلك عواقب كبيرة، وبيت القصيد هو أن

ندرك ذلك ونندم عليه، لأن الخطأ إنساني، فالاعتراف بالخطأ هو نصف المغفرة. دائماً ما نكون حمقى بالنسبة إلى شخص ما، ولكن نادراً ما نكون كذلك بالنسبة إلى أنفسنا... وبصرف النظر عن هذه الهمهمات اليومية الصغيرة عن حماقة، علينا -للأسف- أن نحسب حساب هدير منافسة الحمقى، الحمقى المهيبيين، الكبار. هؤلاء الحمقى، سواء التقينا بهم في العمل أو في الأسرة، لا يقدمون أي شيء غير عادي. يفزعونكم ويعذبونكم بعنادهم من خلال غباوة فاحشة وعجرفة غير مبررة، إنهم يصرون، ويمهرون بتوقعهم، وسوف يمحوون بكل سرور رأيك، وعواطفك، وكرامتك بجرّة قلم، إنهم يلوّثون أخلاقك ويتحدّون إيمانك بأي عدالة على الإطلاق في هذا العالم. وبداخلهم، حتى مع التساهل الكبير، يرفضون الاعتراف بأي إنسان.

الحماقة وعدٌ غير متحقق، وعدٌ بالذكاء والثقة، خانته الأحق، خائن الإنسانية. الأحق «غبي»، بهيمي! نود أن نعتزّ به، وأن نجعله صديقاً، لكن الأحق ليس على المستوى؛ أي على مستوانا. إنه يعاني مرضاً ليس له علاج. وبينما يرفض العلاج، مقتنعاً بأنه يظل الرجل الأعور الوحيد في عالم العميان، تكتمل الكوميديا المأساوية. لا عجب أن ينبهر الزومبي بحاله، بمحاكاة وجوده، وعدمه الفكري ومطلبه الأساسي والحتمي بالخطّ من قدر الأحياء، الأبطال، الأخيار. ففي نهاية المطاف، يريد الأحق أيضاً أن يخطّ من قدرك، فالفشلة لن يخطئوك. قمة الأحق هو أن يكون ذكياً في بعض الأحيان، ومثقفاً على أي حال: إنه يلتهم الكتب ومؤلفيها جيداً، باسم كتاب آخر، أو أيديولوجية، أو

أي شيء علمه إياه أساتذة عظام (سواء أكانوا حمقى أم لا)، لأنه يتمتع بموهبة تحويل شبكة القراءة الخاصة به إلى قضبان قفص.

الشك يجعلك مجنوناً، واليقين يجعلك أحمق

الأحمق يدينك بامتياز من دون استئناف، وعلى الفور، من دون ظروف مخففة، استناداً فقط إلى المظاهر التي، إضافة إلى ذلك، لا يلمحها إلا من خلال غموماته، إنه يعرف كيف يكون متحمساً من أجل حشد نظرائه، والتحريض على الإعدام خارج نطاق القانون، باسم الفضيلة واللياقة والاحترام، يصطاد الأحمق في حشد، ويفكر في قطع.

غنى جورج براسينز قائلاً: «إن التعددي لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى الإنسان، وبمجرد أن يصبح عددنا أكثر من أربعة، نصبح زمرة من الحمقى». كما أعلن براسينز أيضاً: «المجد لأولئك الذين ليس لديهم مثال مقدس / يكتفون ببساطة بعدم إزعاج جيرانهم كثيراً». للأسف! لا يفوت الجيران ذلك دائماً!

لا يكتفي بجعلك تعيشاً، بل سيكون الأحمق المزعج سعيداً بنفسه، لا يتزعزع، محصن ضد التردد، واثقاً بأنه محق تماماً. المعتوه imbécile السعيد يكسر أدمغتك من دون الحاجة إلى إزعاج دماغه، فالأبله يعتبر معتقداته حقائق منقوشة على الرخام، في حين أن المعرفة كلها مبنية على الرمال. الشك يجعلك مجنوناً، واليقين يجعلك أحمق، عليك أن تختار جانبك. يعرف الأحمق كل شيء أفضل منك، بما في ذلك ما يجب أن تفكر فيه، أو تشعر به، أو تفعله بأصابعك العشر، وكيف يجب

أن تصوّت. فهو يعرف من تكون أفضل منك، وما هو خير لك. إذا كنت لا توافق على ذلك، فسوف يحتقرك، ويهينك، ويؤذيك بالمعنى الحرفي أو المجازي، من أجل مصلحتك. وإذا كان بإمكانه المخاطرة بذلك مع الإفلات من العقاب باسم المثل الأعلى، فربما سيهاجم هذا الخبث الذي يتلخّص، بالنسبة إليه، في وجودك.

الملاحظة مريرة، والدفاع عن النفس فحّ. حاول أن تجادل الأحمق، لتغيّره، لقد ضعت! لأنك إذا كنت تعتبر أن من واجبك تعديل ذلك، فلأنك أيضًا تدّعي أنك تعرف كيف يفكر ويتصرف. وفي هذه الحالة، هو مثلك. وها أنت ذا أحمق. بالإضافة إلى كونك ساذجًا، لأنك تعتقد أنك على مستوى التحدي. والأسوأ من ذلك، أنك كلما حاولت إصلاح أحمق ما، عزّزته أكثر: سيكون سعيدًا للغاية إذا اعتبر نفسه ضحيةً تزعجك، وبالتالي فهو على حق. سوف تقدم له تكريس الإيمان -بحسن نية- بأنه بطلٌ عدم الامتثال، والذي يستحق الشفقة والإعجاب. أيها المقاوم... فلترتعد أمام حجم اللعنة: إذا حاولت تحسين شخصٍ أحمق، وإذا لم تكتفِ بالفشل، تكون قد عزّزته، وقلّدتَه. لم يكن هناك سوى أحمق واحد، وها هما اثنان، فمحاربة حماقة تعرّزها. كلما هاجمنا الغول، صار آكل لحوم البشر.

بلداء / سخفاء niaise نهاية العالم

وبالتالي فإن حماقة لا يمكن أن تضعف، إنها مطردة. إذن، اليوم أكثر من الأمس وأقل بكثير من الغد، هل نعيش عصرها الذهبي؟ بقدر ما تعود السجلات المكتوبة إلى الوراء، فإن أفضل العقول في عصرهم

اعتقدوا ذلك. وربما كانوا على حق في ذلك الوقت. أو أصبحوا، مثل أي شخص آخر، حمقى قدامى... فبدعة العصر الحالي، رغم كل شيء، هي أن كل ما يتطلبه الأمر هو أحقق واحد وزر أحمر للقضاء على الحماسة ومعها العالم بالكامل، أحقق انتخبته عجول، وكانت فخورة للغاية لاختيار جزأها.

السمة الأخرى العظيمة لعصرنا هي أنه، حتى مع الاعتراف بأن الحماسة لم تصل بعد إلى نازلة معممة، فإنها لم تكن قط مرئية ومطلقة السراح وقطعية وقاطعة إلى هذا الحد. وكيفنا أن نياس من أقراننا الضالين، ولكن يكفي أيضًا -من يدرى؟!- أن نعتنق الفلسفة بقوة الأشياء، حيث إنه أصبح من الصعب أكثر فأكثر إنكار الغرور بكل شيء ونرجسية الجميع، وكذلك سخافة المظاهر والأحكام القاطعة... أتمنى أن يقدم لنا برنامج إيراسموس الثاني كتابًا جديدًا في مديح الجنون (ولكن بما لا يزيد على ١٤٠ حرفًا في آن، من فضلك، خوفًا من الصداق النصفى!)، أتمنى أن يرسم لنا لوكريتيوس جديد الارتياح العميق، وربما الفرح، الذي يمكننا أن نخبره من خلال البقاء على الشاطئ عندما تغرق سفينة المجانين الشراعية عبر الدوامات، ويخربها الركاب الذين، فيما بعد، يصرخون طلبًا للمساعدة، للهروب من الغرق. إن الخلاصة، في المجمل، هي تلاعق الجميع، بهدف تذوق معركة الحمقى فيما بينهم، الرابضين المتأهبين بمحاكتهم وغرورهم، لأن العقول العظيمة إذا التقت، تصادم الحمقى. في سعينا للبقاء متفرجين بدلًا من أن نكون فاعلين، فمن التهور أن نعتقد أننا أقل تأثرًا بالحماسة

من معاصريها الصارخين والممرورين والحزانى والمضطربين، ولكن إذا كان هذا صحيحًا بالمصادفة، فيا له من انتصار! من الأفضل أن تبقى متواضعًا، على أي حال، فلن يغفر لك وقوفك مراقبًا للشجار. أفلت من القطيع، وسوف يأخذك هو نفسه إلى المسلخ. فلتعو مع الذئاب، وتثغ مع الخراف، لكن لا تكن فارسًا بمفردك، فسوف يسخطون على الحمار. وغني عن القول، إذا كنت تعتقد حقًا أنك أكثر ذكاءً ونموذجية من المعدل، فإن التشخيص المصيري ليس ببعيد: ربما تكون حاملًا سليمًا للحماقة التي تمر من دون أن يلحظها أحد... في مواجهة ضخامة المشروع والكارثة، فإن التظاهر باستكشاف الحماقة من خلال هذا الكتاب يبين أنه ليس أكثر من مجرد حماقة. لا شك في أن المرء يجب أن يكون وقحًا جدًّا، أو ساذجًا إلى حدٍّ كبير، أو معتوهًا بامتياز، لي طرح مثل هذا الموضوع. أعرف هذا جيدًا، لكن يجب أن يكون هناك أحق شجاع لبدأ. مع قليل من الحظ، فإن المشروع سيكون ببساطة مثيرًا للسخرية. والسخرية لا تقتل. أما الحماقة، فنعم! وسوف تعيش أكثر منا. إضافة إلى ذلك، فإنها سوف تدفننا جميعًا، أتمنى ألا تتبعنا إلى القبر...

توضيح نهائي: مثل هذه الاعتبارات المتعلقة بالحمقى تنطبق أيضًا على الحمقاوات. فليطمئن الجميع! للأسف، لا يمكن لأحد الجنسين أن يُلبس الآخر الحماقة... ومن ثم، أعلن ذلك: أيها الحمقى من كل الأنواع، والحمقاوات من كل المشارب، الحمقى الأوغاد من كل اتجاه، والغيبات من كل الطبقات، الشجعان الأوغاد، الحمقى

المُدَّعون العابسون، الحمقى القذرون، غيبة كبيرة، غيبة بائسة، الأشرار
مقطبو الحواجب، الأغبياء الفارغون، السذج والبُله، الخُرق والسخفاء،
محدودو الذكاء والجبناء، عديمو العقل والهُبل، المتخلفون وضعاف
العقل، أصحاب التصرفات الصبيانية، بسطاء العقول، الأغبياء،
التافهون، الهُبل، الأكماء / المغفلون، قليلو العقل، الخُرق، المتخلفون،
الكُمه / العُبطاء، البصلات المدفونة، غريبو الأطوار البائسون وشديدو
الغباء البُدن، المتخلفون الفارغون والعقول الفاسدة، المغفلون،
الهَذَّارات، البليدات، ذوو أضغاث الأحلام، صائدو الذباب، آكلو
القاذورات، الخرقاوات، ها هي ساعة مجدكم؛ هذا الكتاب لا يتحدَّث
سوى عنك، لكنك لن تتعرف على نفسك هنا.

الأحمق المخلص، جان فرانسوا مارميون

دراسة الحمقى علمياً

سيرج تشيكوتي

عالم نفس وباحث مشارك

في جامعة جنوب بريتاني Bretagne-Sud

«الأحمق يؤكّد، والعالم يشكّ، والحكيم يفكر».

أرسطو ... سيرج تشيكوتي

هل يمكننا دراسة الحمقى علمياً؟ سؤال استفزازي! نحن نعرف أن دراسات القميء (على سبيل المثال، «هل يمكن اعتبار غازات البطن بمثابة دفاع ضد الخوف»^(١))، هي تلك التي تتعلق بوظائف قميئة ليس لها أي فائدة اجتماعية، ولا تجلب سوى قليل من الرضا الشخصي^(٢)، ولكن ماذا عن الدراسات التي أُجريت بصدد الحمقى؟

في الواقع، عندما ننظر إلى الأدبيات العلمية في مجال علم النفس، نجد أن الحماقّة، عامّةً، دُرست جيّداً. وبهذا المعنى، يمكننا الإجابة عن

(١) M. Sidoli, «Farting as a defence against unspeakable dread», Journal of Analytical Psychology, 41(2), 165-78, 1996.

(٢) <http://www.strikemag.org/bullshit-jobs/>

ذلك، نعم، يمكننا تحليل الحمقى، ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن الدراسات التي أُجريت بشأن الحمقى هي، لا أكثر ولا أقل، تلك التي أُجريت فقط على الإنسان، يمكننا رسم صورة نموذجية للأحمق من خلال اختيار بعض المتغيرات التي دُرست في أبحاث مختلفة. سيكون لدينا بعد ذلك فكرة دقيقة نسبياً عن الأحمق (مزعج، غبي بعض الشيء، محدود جداً سواء على مستوى التنبه الإرادي أو الفكري)، وحتى عن بعض أشكاله المختلفة مثل الأحمق الطيب السمين للغاية، والأحمق العنيف، الذي أضفنا إليه بُعداً نرجسياً ساماً، بل والافتقار التام إلى التعاطف.

الحماقة والافتقار إلى الانتباه

ولكن بدلاً من دراسة الأحمق كموضوع، فإن البحث النفسي يتيح لنا على نحوٍ خاص فهم لماذا يتصرف الناس مثل الحمقى في بعض الأحيان.

وهكذا، تُظهر الدراسات التي أُجريت على النصوص البرمجية^(١) أن الناس في معظم الأحيان لا يحللون بيئتهم بعمق قبل التصرف، إنهم يستخدمون إجراءات روتينية راسخة ومعتادة، وينفذونها تلقائياً بناءً على إشارات داخلية أو بيئية. ولهذا السبب قد تلاحظ أنه: «عندما تبكي، هناك دائماً أحمق يقول لك: مرحباً، هل أنت بخير؟». إنه أمر أحمق مثل نظر المرء إلى ساعته للمرة الثانية بعد أن نظر إليها للتو.

R.C. Schank et R.P. Abelson, Scripts, Plans, Goals and Understanding: an Inquiry into Human Knowledge Structures (Chap. 1-3), L. Erlbaum, Hillsdale, NJ, 1977.

عندما يريد معرفة الوقت، عليه أن ينظر إلى ساعته، فهو نص برمجي يُشغَل تلقائيًا، وتسمح لك هذه الآلية بإيلاء قليل من الانتباه، لأن النص البرمجي يتمتع بميزة إيلاء قليل من الانتباه للمهمة التي يجب تنفيذها. ونتيجة لذلك، لأننا غير متنبهين ونفكر في شيء آخر، فإننا ننظر من دون أن نرى، ولا نلتقط المعلومات، ونضطر إلى قراءة الوقت مرة أخرى، إنه أمر أحمق، أليس كذلك؟

في مجال الأبحاث المتعلقة بموارد التنبيه، أثبت علماء النفس أننا غالبًا ما نكون ضحايا عمى التغيير^(١)، بل وحتى التعديل الكبير لا يدركه الفرد دائمًا، ولهذا السبب ربما ستسمع: «بينما فقدت ١٠ كجم بعد اتباع نظام غذائي، فأنت لا تزال تتعامل مع أحمق لا يرى الفرق...». تتيح لنا الأبحاث حول «وهم التحكم»^(٢) أن نفهم «لماذا يوجد دائمًا أحمق يضغط مثل المجنون على زر المصعد عندما يكون في عجلة من أمره». وتلك الأبحاث المتعلقة بالتأثير الاجتماعي، لماذا عندما يسير سائق أحمق في شارع مسدود، هناك دائمًا أحمق يتبعه، وعندما يسأل في إحدى الألعاب التلفزيونية إذا كان القمر أم الشمس هي التي تدور حول الأرض، يطلب هذا الأحمق رأي الجمهور.

يبدو الإنسان في كثير من الأحيان كأنه ينحرف عن العقلانية المحضة والقيم المتوقعة. والأكثر حماقة هو مَنْ سيقدم في النهاية أكثر

(١) D.J. Simons et D.T. Levin, «Failure to detect changes to people during a real-world interaction», Psychonomic Bulletin & Review, 5(4), 644-649, 1998.

(٢) E.J., Langer, «The illusion of control», Journal of Personality and Social Psychology, Vol 32(2), 311-328, 1975.

الانحرافات الملموسة عن معدل التأثيرات المدروسة. عامةً، رؤيته للعالم تبسّطية، فهو يواجه صعوبة في التعامل مع الأعداد الكبيرة، والجذور التربيعية، والتعقيد، حتى مع منحني جاوس الذي غالبًا ما لا يدرك إلا الحدود القصوى منه. وقال ستالين أيضًا: «إن موت ألف جندي هو إحصائية، وموت جندي واحد هو مأساة». الجميع أكثر حساسية إزاء حكايات من التقارير العلمية المليئة بالإحصاءات، لكن الأحق يعشق الحكاية، حتى إنه يعرف شخصًا سقط من الطابق الأربعين ولم يمت، في الواقع، قالوا ذلك في قناة TF1 وقناة M6.

الحماقة والمعتقدات

لقد سلّطت الدراساتُ حول المعتقدات الضوء على الإيمان بعدالة العالم («الإيمان بكلمة عادلة»^(١))، وهو على الأرجح الأكثر انتشارًا في العالم، والذي يوضحه الأحق الوغد تمامًا من خلال إشهار ذلك: «لقد تعرضت للاغتصاب، ولكن في الوقت نفسه، هل رأيت كيف كانت ترتدي؟»، كلما كنت أكثر حماقة، استحققت الضحية ما يحدث لها... إضافة إلى ذلك، فإن الأحق السمين الطيب يحتقر عديمي الأسنان، هؤلاء «الأوغاد المساكين».

يتفوّق الأحق في القدرة على تصديق أي شيء وكل شيء، بدءًا من فلكلور المؤامرات وحتى تأثير القمر على السلوك، بما في ذلك

L. Montada et M.J. Lerner, Préface, in L. Montada et M.J. Lerner (sous dir.), (١) Responses to Victimizations and Belief in a Just World, (pp. vII-vIII), Plenum Press, 1998.

التطبيب الترياقى الذي يجري حتى على كلبه، ومع ذلك هذا هو الدليل! بتاريخ ٢٨ مايو ٢٠١٧، صُوِّرت دراجة نارية على الطريق السريع أ ٤ لعدة كيلومترات من دون سائقها الذي سقط في وقت سابق^(١). بالنسبة إلى أكثر الأشخاص غباوة، فإن الجاني ليس سوى «شبح السيدة البيضاء»، وبالنسبة إلى الأشخاص الأكثر تطوراً، فهو تأثير مستشعر الجيروسكوب الذي يؤثر على الاستقرار... ويبدو أيضاً أن هناك تعالفاً سلبياً بين المعتقدات الباطنية والقدرة على الحصول على جائزة نوبل^(٢). وفي مجال المعتقدات أيضاً، تكشف الدراسات^(٣) عن اختلاف بين «حمقى الحاضر الصغار» و«حمقى الماضي المعجّز»^(٤). لقد ثبت أن الذكريات السلبية تتلاشى مع مرور الوقت، وأن الذكريات الإيجابية فقط هي التي تبقى... وهكذا، كلما تقدمنا في السن، نميل إلى رؤية الماضي على أنه إيجابي؛ ما يجعل عجائز الحمقى يقولون: «لقد كان الأمر أفضل من قبل...».

فُحص قسم كامل من لا عقلانيتنا من خلال دراسات عديدة،

(١) Sciencesetavenir.fr – «TRANSPORTS. Moto fantôme de l'A4: une Harley peut-elle rouler sans pilote sur plusieurs kilomètres?», F. Daninos le 21.06.2017

à 20 h 00.

(٢) M. Zuckerman, J. Silberman, J.A. Hall, «The Relation Between Intelligence and Religiosity: A Meta-Analysis and Some Proposed Explanations», Personality and Social Psychology Review, 17 (4): 325-354, 2013.

(٣) S.T. Charles, M. Mather, L.L. Carstensen, « Aging and emotional memory : The forgettable nature of negative images for older adults », Journal of Experimental Psychology : General, 132(2), 310, 2003.

(٤) (10) G. Brassens, «Le temps ne fait rien à l'affaire», 1961.

وفسرها الباحثون بأنها تعبير عن حاجتنا إلى السيطرة على بيئتنا. ويعبر كل كائن حي عن هذه الحاجة (لاحظ كيف أن كلبك، عندما يرن جرس الباب، يهرع للذهاب إليه رغم أنه لم يكن ليخصه الأمر قط)، ويمكن أن تؤدي حتى إلى سلوك سخيف لدى البشر، مثل الذهاب لاستشارة عراف. هناك قرابة ١٠٠,٠٠٠ شخص يعتبرون أنفسهم «عرافين» في فرنسا، ويبلغ حجم أعمالهم قرابة ٣ مليارات يورو سنوياً. على الرغم من أن الباحثين لم يجدوا قط أي ملكة فعلية للعرافين المعلنين، فإن ذلك لا يمنعهم من تحقيق أرباح كبيرة. تشير التقديرات إلى أن ٢٠٪ من النساء و ١٠٪ من الرجال استخدموا قراءة البخت ولو لمرة واحدة على الأقل في حياتهم. عامة، لا يندم العرافون على اختيارهم العيش من هذا الاحتيال، وفي النهاية ينتهي بنا الأمر مع الأوغاد الذين يجعلون من الحمقى عملهم. غالباً ما تؤدي الحاجة إلى السيطرة إلى وهم السيطرة، وربما يخدع الأحمق نفسه أكثر من الآخرين^(١). وفي السيارة، يتجلى هذا الوهم في خوف أكبر من وقوع حادث عندما يكون راكباً وليس سائقاً، لا يستطيع الأحمق النوم عندما يكون راكباً، لا ينام إلا عندما يكون سائقاً!

يرمي الأحمق الرد بكل قوة ليحصل على رقم ٦، ويختار أرقامه في اليانصيب، ويحب المشي وسط فضلات الكلاب، لكنه يتجنب السلال. يتحكم الأحمق: إذا فاز باليانصيب، فذلك لأنه حلم بالرقم

E.J. Langer, «The illusion of control», Journal of Personality and Social Psychology, 32 (2), 311-328, 1975.

٦ لمدة ٦ ليالٍ، وبما أن ٦ × ٦ يساوي ٤٢، فقد لعب على رقم ٤٢ وفاز. وعلى هذا النحو، يجب أن نعتقد أن الأحقق يتمتع بصحة نفسية جيدة، لأن هذا الوهم يكون أضعف بكثير عند الأشخاص المصابين بالاكئاب^(١).

دراسات عن الحمقى الذين يشرحون لك عملك

وفي مجال آخر دُرِسَ جيدًا أيضًا، يستخدم الأحقق، أكثر من دوره، استراتيجيات للحفاظ على احترامه لذاته. وتظهر الدراسات حول التحيز الاجتماعي الكاذب^(٢) أننا نبالغ في عدد الأشخاص الذين يشاركوننا أخطاءنا، مما يجعلك تقول للأحقق الذي تشير إلى أنه شغل إشارة التوقف في سيارته:

«لكن لا أحد يتوقّف عند علامة التوقّف هذه!».

غالبًا ما يكون الأحقق ضحية للتحيزات بأثر رجعي. في دار التوليد سيقول: «كنت متأكدًا أنه سيكون ولدًا»، وأمام التلفزيون سيصرّح: «كنت متأكدًا من أن ماكرون سيكون الرئيس»، بل سيقول لك أحيانًا: «لقد كنت متأكدًا من أنك ستقول ذلك!». هل يتصرّف الأحقق بسوء نية؟ هل الأحقق عرّاف؟ لا، فالأحقق يستخدم عبارة «كنت أعرف ذلك» لأغراض استراتيجية، وخاصة لإظهار أنه أكثر اطلاعًا مما هو عليه

(١) S.E. Taylor et J.D. Brown, «Illusion and well-being: A social psychological perspective on mental health», Psychological Bulletin, 103(2), 193-210, 1988.

(٢) F. Verlhac, «L'effet de Faux Consensus: une revue empirique et théorique», L'Année psychologique, 100, 141-182, 2000.

بالفعل: «أعرف، أعرف...». بالطبع لا يجب أن تتحدث مع الحمقى عن هذه الدراسات، لأنهم سيُنكرون أنهم يعملون بهذه الطريقة.

لحماية تقديرهم لذاتهم، يغالي كثير من الناس في تقدير قدراتهم. وقد سُلِّط الضوء على هذا التحيز من خلال تجارب علم النفس التي أظهرت أنه في مجالات مختلفة، يعتبر عدد كبير من المشاركين أنفسهم أفضل من المعدل، على سبيل المثال، فيما يتعلق بالذكاء. على أحد جانبي المقياس، لدينا «السذج» الذين ينتقدون بسبب افتقارهم إلى الثقة بالنفس، لأن، وهذا حقيقة، في سيكولوجية الساذج، غالبًا ما يُنظر إلى الشخص الذي يجمع بين صفات إنسانية مثل البساطة والتواضع والتصرف بحذر على أنه «غبي جدًا»، أو أبله؛ أي أحق، يستغله الآخرون. وعلى الجانب الآخر من المحور نجد مَنْ حصلوا على علامات عالية جدًا؛ أي الحمقى الأوغاد الذين لديهم ثقة زائدة بإفراط. يمكن للأحمق أن يكلّف المجتمع غالبًا جدًّا عندما يضيع، سواء في البحر أو في الجبال بعد الخروج عن مسار التزلُّج، حتى لو كان راضيًا في معظم الأوقات بالمبالغة في تقدير قدراته على التحكم في سرعة السيارة.

وأخيرًا، فإن الانحياز الأنوي^(١) يجعل من الممكن التمييز بين الأهل الصغير والوغد السمين الطيب الذي لا يعرف أصل حماقته. لقد طُلّق الأحمق ثلاث مرات، لأنه وقع مع ثلاث من العاهرات، وفشل لأنه

D. T. Miller et M. Ross, «Self-serving biases in the attribution of causality. Fact (١) or fiction?», Psychological Bulletin, 82, 213-225, 1975.

يعمل مع مجموعة من الفاسدين. حتى عندما كان مراهقًا، لاحظ أن الرائحة الكريهة ليست رائحة قدميه، بل رائحة جواربه. في أحد الأيام، أُوقِف في سيارته، لأنه كان يقود بسرعة كبيرة، ولم يكن محظوظًا حقًا. لديه صعوبة في فهم أن الحظ مجرد تفسير الأحقق الوغد للاحتتمالات. لم يتمكن الباحثان دانينج وكروجر من محاولة نشر عنوان مثل: «دراسات عن الحمقى الذين يشرحون لك عملك». مثل هذا العرض لأعمالهما لا يمكن أن يكون قد اجتاز مرشحات لجان القراءة في مجلة علمية. ومع ذلك، في دراساتهم، لم يُظهر أكثر من ذلك! اكتشف هذان المتخصصان أن الأشخاص غير الأكفاء يميلون إلى المبالغة في تقدير مستوى كفاءتهم، لذا فإن الأحقق الذي لم يكن لديه كلب من قبل سوف يشرح لك كيف تربّي كلبك.

يعزو دانينج وكروجر هذا التحيز إلى الصعوبة التي يواجهها الأشخاص غير المؤهلين في تقييم قدراتهم الحقيقية في مواقف معينة، لكن هذا ليس كل شيء: وفقًا لعالمي النفس هذين^(١)، إذا كان الشخص غير الكفء يميل إلى المبالغة في تقدير مستوى كفاءته، فإنه يفشل أيضًا في التعرف على الكفاءة لدى أولئك الذين يمتلكونها.

بفضل هذه الأعمال، نفهم لماذا يقضي عميلٌ أحقق وقته لشرح للمحترفين عملهم، ولكن أيضًا لماذا، عندما تفقد شيئًا ما، هناك دائمًا

J. Kruger, D. Dunning, «Unskilled and Unaware of It: How Difficulties in (١) Recognizing One's Own Incompetence Lead to Inflated Self-Assessments», Journal of Personality and Social Psychology. 77(6): 1121-34, 1999.

أحمق يقول لك: «انتظر، أين كان آخر مرة رأيته فيها؟»، ومرة أخرى ماذا يقود الأحمق إلى القول: «من السهل أن تكون محامياً، يجب أن تحفظ القانون فقط عن ظهر قلب»، «هل تريد التوقف عن التدخين؟ أنت فقط بحاجة إلى قوة الإرادة». «هل تريد أن تكون قائد طائرة؟ إنها مثل قيادة الحافلة»، إلخ. لذلك، في نهاية مؤتمر حول فيزياء الكم الذي لا يفهم عنه شيئاً، سينظر الأحمق (أبو العريف) في عيني الخبير ويقول: «... هذا الأمر على حسب».

بل يعتقد دانينج وكروج أن التواضع لا بد من أن يحثنا على الامتناع عن التصويت، لأننا سيئون للغاية في الاقتصاد، وفي الجغرافيا السياسية وحياة المؤسسات، وغير أكفاء في تقدير البرامج الانتخابية، أو حتى في معرفة ما ينبغي لنا أن نفعله حتى نجعل فرنسا أفضل... ومع ذلك سيقول الأحمق في حانة صغيرة: «أنا أعرف كيف يمكننا إيقاف الأزمة». تُظهر دراسات عديدة أُجريت على الآسيويين التأثير العكسي^(١) لدراسات دانينج وكروج، وبالتالي القدرة على التقليل من كفاءة الفرد، وهكذا، يبدو أن القاعدة في ثقافة الشرق الأقصى هي عدم التباهي، ولا نجد هذا الميل إلى الرغبة في إثبات أننا نتقن جميع الأمور.

S. J. Heine, S. Kitayama, et D.R. Lehman, «Cultural differences in self-^(١) evaluation: Japanese readily accept negative self-relevant information», Journal of Cross-Cultural Psychology, 32, 434-443, 2001.

رادار الحمافة

على الرغم من أن هناك آليات عديدة يمكن أن تُعرّف الحمافة، دعونا نُنهِ هذا الملخص القصير بـ«عدم الثقة الساخر» الذي يتأثر به الأحمق، حتى الأحمق الوغد، بطريقة أعمق بكثير من الآخرين^(١). تُعرف السخرية بأنها مجموعة من المعتقدات السلبية حول الطبيعة البشرية ودوافعها. غالبًا ما يكون الأحمق الوغد ضحية للسخرية الاجتماعية والسياسية، ما عليك سوى استجوابه. بضع جمل بلا أفعال تتخلّل تأملاته اليومية: «الكل فاسد»؛ «الرادار = ابتزاز وأعمال تجارية مريبة وكلام في الهواء»؛ «علماء النفس؟ جميعهم مشعوذون»؛ «الصحفيون؟ لاققو المؤخّرات». يعتقد أن الناس صادقون فقط لأنهم يخافون من القبض عليهم. يعيش الأحمق الوغد في عالم من عدم الكفاءة والخداع. تشير الدراسات إلى أن الحمقى الساخرين غير متعاونين ويشعرون بعدم الثقة إلى درجة أنهم يفوّتون الفرص المهنية، ونتيجة لذلك ينتهي بهم الأمر بدخلٍ أقل من غيرهم.

في النهاية، يمكننا القول إن الأحمق سيجسّد بالتالي نوعًا من المبالغة في الميول النفسية المختلفة التي حدّدها الباحثون. ومن يجمعها جميعًا سيُنظر إليه على أنه «ملك الحمقى»، بل أكبر أحمق وغد عرفته الأرض على الإطلاق.

E.R. Greenglass et J. Julkunen, «Cynical Distrust Scale», Personality and Individual Differences, 1989.

لكن السؤال الأحمق، الجوهرى: «هل يمكننا دراسة الحمقى؟»، وربما يكون: «لماذا يوجد كثير من الحمقى؟». هذا صحيح، كل ما عليك فعله هو الصراخ: «أيها الأحمق البائس» في الشارع حتى يستدير الجميع. مرة أخرى، تزودنا الأدبيات العلمية بالإجابة، بل بعدد منها.

أولاً، نحن مجهزون برادار للحماسة: الانحياز السلبي^(١). إنه ميل إلى أن نعطي وزناً وانتباهاً واهتماماً أكبر للأشياء السلبية بدلاً من الأشياء الإيجابية، فالتحيز السلبي له عواقب وخيمة على آراء البشر وأحكامهم السابقة وصورهم النمطية والتمييز والخرافات. في الأعمال المنزلية، نلاحظ على الفور حينما لا تُوضَع اللمسات الأخيرة، أما إن وُضعت لا نراها أبداً. ولذلك، بفضل التحيز السلبي يمكننا أن نكتشف أحمق بسرعة أكبر من اكتشافنا عبقرية في بيئة اجتماعية معقدة. إضافة إلى ذلك، فإن هذا التحيز يقودنا إلى إدراك النية وراء الحدث السلبي أكثر من الحدث الإيجابي. إذا بحثنا عن شيء ما في المنزل، فإنك تميل إلى الاعتقاد بأنك لست من ضيعه، بل شخص ما هو الذي وضعه في مكان ما: «من لمس حاجاتي؟»، في النهاية، إذا فشل شيء ما، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن هناك نية بشرية وراء فشله، وأن خطأ أحمق كبيراً هو الذي تسبب في فشل كل شيء.

P. Rozin, E.B. Royzman, «Negativity bias, negativity dominance, and (١) contagion», Personality and Social Psychology review, 5(4), 296–320, 2001.

أخيرًا، لاحظ أن باحثين اكتشفوا خطأ الإسناد الأساسي^(١): عندما نلاحظ شخصًا ما، فإننا نعزو سلوكه إلى طبيعته العميقة، أكثر مما نعزوه إلى أسباب خارجية عنه. وفي كثير من الحالات، يصبح الاستنتاج واضحًا: إنه أحمق وغد. لذلك عندما تمر بنا سيارة بسرعة، فذلك لأن سائقها معتوه، وليس لأن طفله أُصيب في المدرسة؛ عندما لا يرد صديقنا على بريدنا الإلكتروني في غضون ساعتين، فمن المحتمل أنه غاضب للغاية وليس بسبب انقطاع الإنترنت؛ إذا لم يُعد زميلنا الملف إلينا، فذلك لأنه كسول وليس لأنه مثقل بالعمل؛ إذا أجابني المعلم باقتضاب فذلك لأنه أحمق وغد وليس لأن سؤالي أخطأ. تعمل هذه الآلية أيضًا على زيادة قدرتنا على رؤية حمقى في كل مكان. هذان سببان على الأقل وراء حساسيتنا الشديدة تجاه الحماقة.

L. Ross, «The intuitive psychologist and his shortcomings: Distortions in the (١) attribution process», *Advances in Experimental Social Psychology*, vol.10, p.

173-220, 1977.

تصنيف الحمقى

جان فرانسوا دورتييه

مؤسس ومدير حلقة التحليل النفسي والعلوم الإنسانية

إذا كانت هناك أشكال متعدّدة للذكاء، كما يعترف علماء النفس، فلا بدّ من أن يكون هناك أيضًا مجموعة متنوعة لطيفة من الحماقات/ الغباوات... في غياب مزيد من الدراسات المتعمقة، أو حتى علم الحماقة الجيني (الذي يضع هذا الكتاب بعض معالمه)، يمكننا أن نبدأ بوصف عينات تمثيلية.

متخلف Arrière

متخلف، متأخر عقليًا، ضعيف العقل، أبله، معتوه، أخرق، أحمق، مخبول، أهبل، غبي، ساذج، سخي، بليد، متدنّ، مختل عقليًا... مفردات الحماقة لا تنتهي. يعكس هذا الثراء الدلالي بلا شك انحرافات المعنى والاختلافات في الاستخدام وتأثيرات الموضة.

غير أن المعنى في الأساس دائمًا واحد: الأحمق، مهما تعدّدت الصيغ والاستعارات، هو من حُكِم عليه بانخفاض ذكائه، ومحدودية

أفقه العقلي. لذلك تُعرَّف دائماً الحماقة من موقع نسبي. هو ليس أحق في حد ذاته (إذا كان الجميع كذلك، فلن يلاحظ أحد ذلك). بمعنى آخر، تُقاس الحماقة من نقطة مرجعية يحددها من يعتبر نفسه متفوقاً.

متخلف ومختل Beauf

في اللغة الإنجليزية rednecks ou hillbillies، المتخلفون والمختلون Beauf حمقى وأشرار وعنصريون وأنانيون. على الأقل هذه هي الطريقة التي رسمهم بها كابو، وخلّد بها صورتهم الشخصية. سيشكلون كتائب ناخبي الأحزاب الشعبوية: وبما أنهم أغبياء، فهذا يعني أنهم ليس لديهم تفكير سياسي، ويستخدمون منطقاً قصير النظر ومبتذلاً. تفكيرهم «بسيط» - كل شيء أبيض أو أسود - من دون أي فارق بسيط. إنهم عنيدون، ضيقو الأفق، لا يستندون إلى الحجج العقلانية؛ لا يتزحزون عن رأيهم. هذا تفكيرهم «النهائي»!

إنهم أشرار، لأنهم يهاجمون من دون شفقة كبش فداء وضحايا أبرياء: العرب والسود والمهاجرون عامة.

إنهم أنانيون لأن شيئاً واحداً فقط يهمهم: رفايتهم، وراحتهم، «نريد المال»... ولكن هل هؤلاء المختلون موجودون حقاً كملف نفسي؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ من بيان أن هناك علاقة عضوية بين الغباء (أي انخفاض المستوى الفكري) والشر (يُفهم بوصفه أنانية وازدراء الآخرين)، ما لم تكن الروابط بين الاثنين ظرفية فقط لأننا يمكن أن نكون أغبياء ولطفاء (انظر «عبيط القرية»)، تماماً كما يمكننا أن نكون

أشرازاً وأذكفاء فف نفس الوقت. ألفت هذه هف حال أولئك الذفن
رسموا صورة المختل؁ رسامف الكارفكاتفر (كابو؁ دفر؁ وما إلى ذلك)
الذفن فعملون فف صففة هارا كفر؁ الفف أرادت هف نفسها أن تكون
«غبفة وشرفة»؟ لم فكن هؤلاء الأشخاص أغبفاء حقاً (على الرغم من
أن الرسوم الكارفكاتفرفة والكلفشفهات المنهجرة تؤدف فف النهافة إلى
تضففق نطاق العقل). أشراز! كانوا كذلك فف كثر من الأحيان.

أحمق عالمف

«الجمفع حمقى!»؁ تذكر الصفغة عامةً بصوت عالٍ جداً؁ مع
وضع مرفقك على طاولة البار. لكن إلى من تشير «الجمفع» هذه؟ إلى
الفساسفن؁ وناخبهم؁ وموظفف الخدمة المدنية؁ وعفمف الكفاءة؁ وما
إلى ذلك؁ وبالتالي القلفل من الجمفع؁ لأن الصفغة لفسف دفقة.

إن هذا الافتقار إلى التمفرز فف التحلفل؁ والغطرسة الفف نضع بها
أنفسنا فوق الظرف الإنسانف؁ للحكم على بقفة العالم؛ هذه علامة أكفدة
إلى حدٍّ ما على أننا نتعامل مع أحمق حقفف.

فقول دفكارت: «إن فوفر الخطأ هو ألا فعتبر نفسه كذلك». وهذا
فنطبق أكثر على الحمافة. من الواضح أن الأحمق لا فسطفع التعرف
على نفسه. من ناحية أخرى؁ فإنه فشكل معياراً موثقاً إلى حدٍّ ما
للتعرف على أحمق قرفب منه. أفنما كنت؁ بمجرء أن تسمع بقوة الرعد:
«الجمفع حمقى!»؁ فمكنك التأكد من ففوء أحد الحمقى حولك.

حماقة اصطناعية

«الكمبيوتر أحمق^(١)» (١) تمامًا. لا يأتي هذا التأكيد من أي شخص؛ إنه جيران بيرري الذي يدرس علوم الحاسوب في الكوليج دو فرانس. ولا يتردد هذا المتخصص في الذكاء الاصطناعي في اتخاذ وجهة النظر المعاكسة للتكهّنات (غير المدروسة) حول قدرة الآلات على تجاوز الذكاء البشري.

من المؤكد أن الذكاء الاصطناعي قد حقق تقدّمًا كبيرًا على مدار الستين عامًا الماضية. ومن المؤكد أن الآلات تعرف كيفية التعرف على الصور، وترجمة النصوص، وإعطاء تشخيص طبي. في عام ٢٠١٦، تمكن برنامج الفاجو Alphago التابع لشركة ديب مايند Deepmind من التغلب على أحد أفضل اللاعبين في العالم في لعبة Go. إذا أعجبنا الأداء، ننسى أن نقول إن الفاجو يعرف فقط كيفية القيام بشيء واحد: ممارسة لعبة go. تمامًا مثل برنامج ديب بلو الذي تغلب على كاسباروف في لعبة الشطرنج عام ١٩٩٦، قبل أكثر من ٢٠ عامًا. إن ما يسمّى بالآلات الذكية لا تطوّر إلا مهارة تخصصية للغاية يعلّمها إياها سيدها البشري. إن التكهّنات حول استقلالية الآلات التي «تتعلم من تلقاء نفسها» هي مجرد خرافات، فالآلات لا تعرف كيفية نقل

Entretien dans LZObs, 26 aofit 2016. <https://www.nouvelobs.com/rue89/> (١)
rue89-le-grand entretien/20160826.RUE7684/gerard-berry-l-ordinateurest-complement-con.html.

المهارات المكتسبة من مجال إلى آخر، في حين أن النقل التناظري هو إحدى الآليات الأساسية للذكاء البشري. تكمن قوة أجهزة الحاسوب في قوة الذاكرة العاملة وقدراتها الحسابية المذهلة.

«آلات التعلُّم» التي تعمل بمبدأ التعلُّم العميق (الجيل الجديد من الذكاء الاصطناعي) ليست ذكية، لأنها لا تفهم ما تفعله. وبالتالي، فإن برنامج الترجمة الآلية من جوجل يتعلَّم فقط استخدام كلمة ما في سياق معين (من خلال الاستفادة من مجموعة كبيرة من الأمثلة)، لكنه يظل «أبله» تمامًا، فهو لا يفهم بأي حال دلالة الكلمات التي يستخدمها.

ولهذا السبب يسمح جيرار بيرى لنفسه بأن يقول في أعماقه إن «الكمبيوتر أحمق تمامًا».

حماقة جمعية

يشير الذكاء الجمعي إلى شكل من أشكال ذكاء المجموعة، وهو ذكاء النمل أو الخلايا العصبية، فكل عنصر يُتناول على حدة لا يكون قادرًا على فعل كثير، ولكن تأثير المجموعة ينتج مآثر. من خلال سحر التنظيم الذاتي، يستطيع النمل بناء عش النمل الخاص به باستخدام السرايب، وغرفة الزواج، ومخزن الطعام، والحاضنة، ونظام التهوية... يمارس البعض الزراعة (فطر عش الغراب)، والتربية (حشرة المن)، وما إلى ذلك. وحتى لو ظل أداء الذكاء الجمعي غير مفسَّر، فإنه سرعان ما يصبح نموذجًا ذا قيمة عالية يقوم على فكرة بسيطة: الكل أعظم من مجموع الأجزاء. القرار الجماعي والإبداع المشترك أفضل من القرار الفردي.

ومع ذلك، يحدث أننا معًا نفعل ما هو أسوأ من أن نكون بمفردنا. وبالتالي فإن الذكاء الجمعي له نظيره: الحماسة الجمعية. وبالتالي، من أمور أخرى، قد تنخفض قدرتنا على التمييز بشدة، وقد أثبتت هذا التجارب الشهيرة التي أجراها عالم النفس سولومون آش حول معايير المجموعة منذ زمن طويل. يكفي أن تدافع أغلبية الناس عن نظرية خاطئة وبلهاء بوضوح لقيادة الآخرين على هذا الطريق، من خلال الامتثال. مثال آخر، الفضائل الزائفة للعصف الذهني: خذ مجموعة من عشرة أشخاص واطلب منهم العمل معًا لمدة نصف ساعة في مشروع (تخيّل شعارات سياحية للترويج لمدينة ما، على سبيل المثال). وفي الوقت نفسه، أجرِ عملاً جماعياً آخر يفكر فيه الجميع بشكل فردي. اجمع النسخ: مقترحات المجموعة ٢ أكثر ثراءً وعدداً من تلك الموجودة في المجموعة ١. وبعبارة أخرى، في بعض الأحيان يكون الكل أقل من مجموع الأجزاء.

ليست هناك حاجة إلى إجراء تجارب نفسية كبرى لتوضيح الحماسة الجمعية. كل ما يُثبِت في المختبر يُختبر يومياً في اجتماعات العمل، حيث ينتج الجهد الجماعي عديداً من الأشياء الغبية كما لو أننا صممناها بمفردنا.

ساذج / سريع التصديق / مغفل

من أكثر سذاجة من طفل؟ يمكنك أن تجعله يصدق أي شيء تقريباً، في مكان ما في السماء رجل عجوز ذو لحية بيضاء يسافر في زلاجة طائرة تجرها حيوانات الرنة ويقدم الهدايا للأطفال الطيبين، أو

أن ثمة فأراً صغيراً يأتي ليلتقط الأسنان المتساقطة ليضع قطعة نقود مكانها...

السذاجة شكلٌ من أشكال الحماية خاصة بمرحلة الطفولة. على أي حال، هذا ما كان يعتقد عالم النفس، مثل جان بياجيه. اعتقد الفيلسوف لوسيان ليفي برون أن الشعوب البدائية كانت أيضاً ساذجة جداً بمعتقداتها الأرواحية في «أرواح الغابة» التي تتمتع بقوى سحرية، والتي يبدو أنها تثبت أن البربريين، مثل الأطفال، لم يصلوا إلى سن الرشد.

ولكن كان من الضروري الاعتراف، بعد التجارب النفسية، بأن الأطفال لم يكونوا ساذجين كما كنا نعتقد: إنهم يعترفون بأن حيوان الرنة يمكنه الطيران، ولكن فقط في عالم موازٍ لا يستجيب لقوانين هذا المكان، حيث يعرفون جيداً أن الرنة لا يطير. نحن أنفسنا، البالغون العقلانيون، على استعداد للاعتقاد بوجود جسيمات تُظهر سلوكيات غريبة (القدرة على الوجود في كل مكان، والتواصل عن بُعد) بمجرد أن يخبرنا الفيزيائيون بذلك. وبعض هؤلاء العلماء مؤمنون، بل ويؤمنون بقيامة المسيح.

لقد دفعت هذه الملاحظات علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى مراجعة معنى «أن تكون ساذجاً». ولم يعد من الممكن النظر إلى سهولة التصديق باعتبارها افتقاراً إلى المنطق (وبعبارة أخرى، حماقة طفولية)، فالإيمان بأشياء تبدو غير معقولة هو مسألة نظام مرجعي، وليس سذاجة أو افتقاراً إلى التمييز.

في نهاية حياته، اعترف لوسيان ليفي برول بأنه كان مخطئاً بشأن ذهنية «البدائيين». إن اعتراف المرء بخطئه يُحسب له، لأنه سلوك نادر جداً في عالم الفلاسفة.

متأخر عقلياً / ضعيف عقلياً / بليد débile

عندما فرض جول فيري في نهاية القرن التاسع عشر التعليم الإلزامي في فرنسا، بدا أن بعض الطلاب غير قادرين على متابعة التعليم العادي. ثم طُلب من اثنين من علماء النفس، ألفريد بينيه وتيودور سيمون، تصميم اختبار ذكاء من أجل التعرف إلى هؤلاء الأطفال وإعطائهم التعليم المناسب: هذا الاختبار هو أساس ما سيصبح معدل الذكاء الشهير QI (معدل الذكاء).

اصطلاحياً، يبلغ متوسط معدل الذكاء لدى شعب ما ١٠٠. وقد أدت اختبارات معدل الذكاء إلى تعريف الضعف العقلي وأنواعه الفرعية: «ضعيف قليلاً» هو الشخص الذي يكون معدل ذكائه أقل من ٨٠ (وأكبر من ٦٥)؛ «ضعيف متوسط» يتراوح بين ٥٠ و ٦٥؛ «ضعيف بشدة» (المعروفون سابقاً باسم «المخبولين» / البليداء imbéciles) لديهم معدل ذكاء يتراوح بين ٢٠ إلى ٣٤. في الأدنى (معدل الذكاء أقل من ٢٠)، نجد «المتخلفين بعمق».

لقد تخلينا اليوم عن كلمتي «ضعيف عقلياً» و«متخلف» في علم النفس، لتحل محلهما عبارات ملطفة، فنحن نتحدث عن «إعاقة»، و«تأخر»، و«بطء»، و«صعوبات تعلم»، وحتى «الاختلاف» (تماماً كما لم نعد نتحدث عن «العابرة» أو «الموهوبين»، بل عن «أطفال

متقدّمين» أو «ذوي إمكانيات عالية»). وهذا لا يمنع عملياً استخدام اختبارات تصنيف الأطفال حسب درجة التأخّر العقلي لديهم، لأنه يجب توجيههم نحو البنى المناسبة.

مخبول / بليد Imbécile، أبله idiot

استُخدم مصطلح بلادة أو بلاهة في بداية الطب النفسي لوصف الأشخاص ذوي المستوى الفكري المنخفض للغاية، وغير القادرين على القراءة والكتابة، وبالنسبة إلى البعض، التحدّث. اعتبر فيليب بينيل الطفل فيكتور دو لافيرون، وهو طفل بري، «أبله». اليوم يمكن وصفه بأنه «مصابٌ بالتوحّد».

«الأبله النموذجي فردٌ لا يعرف شيئاً، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ولا يريد شيئاً، وكل أبله يقترب بشكل أو بآخر من قمة العجز هذه»، كما كتب طبيب الأمراض العقلية الفرنسي جان إتيان إسكويرول.

خصص الدكتور بول سولير، في كتابه «سيكولوجية الأبله والبليد: بحث عن علم النفس المرضي» *Psychologie de L'Idiotet de l'imbécile: essai de psychologie morbide* (1891) فصلين لـ«البُله والبلاء». مع أسفه لتأخّر علم النفس الفرنسي مقارنة بالإنجليز والأمريكيين، يلاحظ أنه لا يوجد إجماع على تعريف البلاهة أو البلادة، البعض يتخذ الذكاء كمعيار للتقييم، والبعض الآخر اللغة (عدم القدرة على التحدّث بشكل صحيح)، والبعض الآخر المعايير الأخلاقية (الافتقار إلى ضبط النفس).

سوف يتخلى علماء النفس تدريجيًا عن مفهوم الأبله. كل ما يبقى في بعض الأحيان هو مفهوم «أبله نايع» (الذي نفضّل عليه مفهوم «متلازمة العبقري»). الملمح، الذي يجمع حالات معينة من التوحّد أو متلازمة ويليامز، يتميز بتأخر في اللغة أو الذكاء العام؛ ولكن أيضًا بقدرات غير عادية في مجالات معينة مثل الحساب والرسم والموسيقى وما إلى ذلك.

عبيط القرية هو النموذج الأولي للمتخلّف عقليًا، الأبله أو الغافل. قديمًا، كان في القرى دائمًا «فادا/ معتوه fada» (كما يقولون في الجنوب) يعمل في وظائف وضيعة.

كان هذا الشخص الساذج للغاية يُعدّ رجلًا لطيفًا، يتسم دائمًا وفرحًا، ويضحك على لا شيء، ولم يُعدّ خطيرًا. في بياض الثلج (سنو وايت)، شخصية الغافل، ذو ابتسامة عريضة، جاحظ العينين، القبة المائلة على رأسه، يوضّح ذلك بطريقته الخاصة.

Zinzin مريض نفسي

«زانزان» اسم جميل للمجنون، ليس المجنون الهائج، بل الذي يتصرّف بطريقة فانتازية. الزانزان ليس بعيدًا عن الجلف zofo، الذي يشير أيضًا إلى الرجل الذي يفعل أشياء غريبة أو صاخبة. والجلف نفسه يشبه الأهل «الزيجوتو zigoto»، الذي، وفقًا للمركز الوطني الصارم للغاية للموارد النصية والمعجمية، هو «فانتازي عامة، ذو سلوك صاخب». نعلم أن «faire le malin» يمكن أن «يستهل» هو بالمعنى

الشائع: «اختال، مكر، استهبل faire le zouave»، «faire le zouave» وهو أيضًا «هَرَج».

Zinzin، zozo، zigoto، zouave، كل هذه الكلمات التي تبدأ بحرف الـ Z، ربما تأخذنا بعيدًا عن الحمقى بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنها معًا تنتمي إلى الفئة العامة من قليلي العقل.

وجهة نظر إدجار موران

تستحق كلمة أحقق «con» أن يؤخذ في الاعتبار أولاً طابعها الذكوري، فالفتحة السامية للعضو الأنثوي يُحطُّ منها وتصبح بمعنى جهاز غبي. ولا نقول: «إنه يفتقر إلى...».

جاك بريفيير، قبل ٦٧ عامًا، من أجبرني على التفكير في هذه الكلمة. قلت له: «أحب الأفلام الحمقاء» J'aime les films cons، فأجاب بحساسية: «Con كلمة جميلة جدًا، من أجمل الكلمات الموجودة». ولم يمنعني ذلك من قول: «يا لها من حماقة!»، لكنني الآن نادرًا ما أقول «هذه حماقة» C'est con، وأمنع نفسي من قول: «إنه أحقق» C'est un con، كما رفضت أن أقول، في بيئة يُساء استخدام كلمة «وغد/ حقير» salaud: «إنه وغد/ حقير» C'est un salaud.

ومع ذلك، فإن كلمة «حماقة» ابتعدت كثيرًا عن جذورها الفسيولوجية ولها قوة أكبر من كلمة «هراء» أو «غباء». ولكن تعميمها يُزيل كل أهمية. إن الحكم على الآخرين بالحماقة سيفترض أننا أنفسنا ليست بنا أي حماقة. ولذلك فإن استخدامها يجب أن يحث على الفحص الذاتي السابق. والتساؤل عما إذا كان استخدام كلمة

أحمق «con» ليس من الحمق الصارخ. لذلك يجب استخدام الكلمة بحذرٍ شديد. ومع ذلك فهي تسدُّ فجوةً في مفرداتنا، إذ إن «الحماقة» أو «الغباء» ليستا مترادفتين ولا متعادلتيْن، لأن «connerie» تجمع بين الخطأ والغباء والثقة بالنفس.

من جهتي، أتصوّر الإنسان العاقل Homo sapiens والإنسان المخبول Homo demens كزوجين متناقضين لا ينفصلان: الجنون والهديان، التيه والشطط، ولكن الكلمة غير الذكورية مفقودة والتي من شأنها أن تأخذ مكان «connerie». إنها حماقة حقاً.

إدجار موران

نظرية الحمقى الأوغاد

مقابلة مع آرون جيمس

أستاذ الفلسفة في جامعة كاليفورنيا، إرفاين

- حسب نظريتك، من الأحمق الوغد؟

- إنه رجل، أو على نحوٍ نادرٍ للغاية امرأة، يمنح نفسه مزايا خاصة في الحياة الاجتماعية من خلال الشعور بالحصانة من اللوم. المثال النموذجي هو الأحمق الذي يتجاهل طابور الانتظار في مكتب البريد، ويمنح نفسه امتيازًا، يُمنح عادة في حالة الطوارئ أو النساء الحوامل. في هذه الحالة، ليس لديه أي مبرر سوى الشعور بأنه غني أو جميل أو أكثر دهاء من الآخرين، ومن ثم يحكم على وقته بأنه أثمن. وإذا طلبت منه الانتظار في طابور مثل أي شخص آخر، فإنه لن يستمع إليك، أو سيُبعدك. لا يعني ذلك أنه يحتقر الآخرين، بل يبدو أنهم لا يستحقون اهتمامه. في اللحظة التي لا نفهم فيها أنه غير عادي، فإننا لا نستحق اهتمامه.

- هل يكون الحمقى الأوغاد في جميع مجالات حياتهم كذلك؟

- ليس بالضرورة. يمكن لأي شخص أن يتصرف مثل الأحمق الوغد لأنه يمرُّ بوقتٍ عصيب، سواء كان ذلك لمدة أسبوعٍ بمراهقة أو من دون مراهقة تمامًا. لكن بالنسبة إليّ، بالمعنى الدقيق للكلمة، الأحمق الحقيقي موجود دائمًا في مجالات مختلفة، وليس بالضرورة جميعها، يمكن أن يكون أحمق في العمل وعلى الطريق، لكن ليس كذلك مع العائلة أو العكس. الأحمق الكامل، أيًا كان المجال، أمر نادر. وبدا أن ستالين، الذي لم يكتفِ بكونه رجلًا مجنونًا يمارس الإبادة، أصبح رجلًا مجنونًا في كل مكان.

- هل يمكن للأشخاص المثقفين والأذكياء للغاية أن يتحوّلوا إلى أسوأ حمقى؟

- الأسوأ، لا أعرف، على أي حال، هم مثل أي شخص آخر. الذكاء لا يمنعه من أن يكون شديد الحمق، يمكنه حتى المساهمة في أن يضع في رأسه أنه فوق الجميع. إلى جانب البُجوحه المالية أو الجمال، فالذكاء من الصفات التي يسهل بها للغاية أن تقدّر نفسك وتجذب النعم الطيبة من الآخرين. ولذلك فإن أصحاب الامتيازات يواجهون مزيدًا من المخاطر ليصبحوا حمقى مغرورين.

- ومن ثم، لن تتعلّق الحمافة بمسألة الذكاء أو العاطفة، بقدر ما تتعلّق بسلوكنا في العلاقات الاجتماعية؟

- نعم، إنها مسألة سلوك اجتماعي، لكن المصدر الداخلي هو الفشل

في إظهار الاهتمام بالآخرين. يعتقد الحمقى أن الأمر متروكٌ لنا للتكيف معهم، مثل أي واقع آخر، وعليه قد يحدث أن بعض أصدقائهم يمثلون لذلك بالفعل. لذلك هناك جزء من الديناميات الاجتماعية، ولكن قبل كل شيء، جزء شخصي وعميق الجذور، من الصعب جدًا إزاحته.

- هل الأحقق الذي يدرك حماقته يكون هو الآخر أحقق؟

- المشكلة هي أن الأحقق يمكن أن يكون على دراية تامة بما هو عليه، ويفتخر به: «نعم، أنا أحقق، وهذه مشكلتك!»، لا يكفي الوعي لتغيير أي شيء. الأحقق راسخ في حماقته لدرجة أنه يصعب عليه التساؤل حول أفعاله. ومع ذلك، ليس مستحيلًا، بسبب أزمة وجودية، أو حادث سيارة، أو فجعية، يمكنه أن يتعافى قليلًا، أو كلما تقدمت به السن. ولكن السبب الرئيسي وراء ذلك هو أنه يفتقر إلى الطاقة أو هرمون التستوستيرون! ويظل هذا نادرًا، فمن الأفضل عدم الاعتماد كثيرًا على ذلك. وعلى أي حال، فإن الوعي البسيط لا يكون كافيًا للوصول إلى عمق حساسية الأحقق.

- هل هناك حمقى بين الأطفال؟

- على الرغم من أننا قد نعتقد ذلك أحيانًا إذا حكمنا من خلال أنانيتهم، فإنني لا أعتقد أنه يمكن اعتبار الحماقة سمة شخصية ثابتة فيهم. سرعان ما يتغيرون في ذلك. يمكن أن نتحدث عن الحماقة عند المراهقين بشكل رئيسي، رغم أن معظمهم ينجو منها. حقًا، في مرحلة البلوغ تصبح الحماقة ثابتة ومنهجية.

- كم نسبة البالغين الذين يمكن أن نعتبرهم حمقى؟ واحد من عشرة؟ واحد من اثنين؟

- كل هذا يتوقف على الثقافة، والثقافة الفرعية، والبيئة. في الولايات المتحدة النسبة أعلى بكثير منها في كندا، وفي إيطاليا أو البرازيل منها في اليابان، في الواقع، في أي مكان تقريباً مقارنة باليابان. حسناً يا سيدي، إن الأمر يتغير طوال الوقت. على ما أعتقد أن عددهم في الولايات المتحدة اليوم أكبر بكثير مما كان عليه في الماضي، وهم أكثر وضوحاً في وسائل الإعلام. واحد من اثنين تبدو لي نسبة مرتفعة جداً بالنسبة إلى أي بلد، أيّاً ما كان، لأن كل مجتمع يعيش من خلال الكياسة والتعاون بين أعضائه، ولا يمكن أن يكون هذا هو الحصن القوي للحمقى.

- كيف يمكن أن نفسّر ثباتهم رغم كل شيء؟ فهل أفادهم التطور؟

- ربما كان هناك شيء ما لعب دوراً في سلوكيات الثدييات العليا وسلوكيات سيطرة الذكور، مع كل ألعاب السلطة للوصول إلى القمة، التي يريد الحمقى أن تستمر من خلال الاعتقاد بأنهم متفوّقون. لكنني لا أعتقد أن هذه العوامل لعبت مثل هذا الدور الحاسم في تطور الحضارة والمؤسسات، التي يمكن أن تساعد بنيتها في قمع الحمقى. وفي ثقافة تكون الأسبقية فيها للفردانية، كما هي الحال في الولايات المتحدة، فإنهم يطرحون مزيداً من المشكلات.

- ماذا نفعل ضدهم؟ هل يمكننا تغييرهم؟

- أعتقد أنهم قادرون على التغيير، لكن من الأفضل عدم الخوض

في هذا. في بعض الأحيان قد نحفظ بأحمق في مشروع، لأنه يحقق ربحًا مثلاً، أو مكانة أكاديمية. كان روبرت ساتون على حق في ترويج كتابه «لا توجد قاعدة حمقاء»^(١) No Asshole Rule، لكن الهدف لا يمكن تحقيقه دائماً. ولذلك يجب علينا أن نجد طريقة لتهميشهم بطرائق مختلفة، وتكتاف، لأنه من خلال تأليب الناس بعضهم ضد بعض يحقق الحمقى غاياتهم. إن الأمر أسهل بكثير في مجموعات صغيرة منه في سياق سياسي. لكن المجتمع يستطيع أن يفعل كثيراً لتقليل عدد الحمقى، حتى لو كان الأمر صعباً، لأن لديهم موهبة الوقوف في طريقنا!

- وماذا عن الحمقى في عائلتنا؟

- إنه أمر مبتذل وحساس للغاية في آن. نحن نسعى جاهدين في كثير من الأحيان لعزل الأحمق. يحدث أن امرأة لا تستطيع أو لا ترغب في الانفصال عن الأحمق ولكنها تحاول بذل قصارى جهدها لتجنبه، وتقليل الاتصال به. من أجل صحتنا العقلية، في كثير من الأحيان ليس هناك كثير للقيام به.

- هل الحمقى أكثر سعادة من المعدل العادي؟

- سؤال جيد! طوّر أفلاطون وأرسطو رؤية موضوعية حول السعادة: التصرف بحكمة. وهو ما لا يفعله الأحمق! ومن ثم فإن نوعية علاقاته مؤسفة. ومع ذلك، سواء قال ذلك أم لا، في كثير من الأحيان

R. Sutton, professeur de management a Harvard, a publié notamment Objectif (١) Zéro-sale-con (Vuibert, 2007) ot il défend l'idée d'un environnement professionnel débarrassé des connards, particulièrement des harceleurs.

ليست هذه هي الحال، يمكن أن يكون الأحقق أكثر سعادة من المعدل اعتمادًا على رؤية أكثر ذاتية للسعادة، ومن ثم يخلط بينها وبين الإشباع. يسعد الأحقق بنفسه عندما يتمكن من الحصول على ما يريد: الاهتمام، الشهرة، المال، السلطة، الهيبة، كل ما يشعر أنه يحق له المطالبة به. لكن في كثير من الأحيان، يحافظ فقط على إحساسه بالتفوق على حساب القلق الهائل. لأنه بقدر ما هو جيد في هذه اللعبة الصغيرة، وممتاز فيها، فإنه مضطر إلى الاعتقاد بأنه أكثر دهاءً وأنه يقف بمفرده ضد الجميع، من دون أن يعتذر، على الرغم من أنه يجد نفسه في قلب المشاجرات يوميًا. في الكلاب أو الغوريلا، غالبًا ما يموت الذكر ألفا α صغيرًا بسبب التوتر الناتج عن مراقبة المنافسين. وحتى لو ادعى الأحقق أنه سعيد ذاتيًا بوجوده، فإننا نريد أن نقول له: «مرحبًا يا صديقي، يمكنك أن تتحمل عناء أن تكون أكثر استيعابًا، وستكون أقل توترًا!».

- هل نحن غيورون خفية من الحمقى؟

- ليس بالضرورة. يمكننا أن نشعر بالعجز والإحباط والسخط في مواجهة شخص ينفر منا. كيف يمكن لشخص ما أن يكون هكذا؟ المضاهاة لا تؤخذ في الاعتبار. ولكن عندما ينجح شخص أحقق، يمكن أن نشعر بالغيرة: «هكذا تصبح مشهورًا، من خلال التصرف مثل أحقق؟ كان بإمكانني أن أفعل نفس الشيء! لكنه كان هو من خطرت له الفكرة، وكان أسرع».

إذا كنت تشعر أنك أحقق بعض الشيء، يمكنك أن تقدّر هذه التقنية كخبير. ولكن الأمر يشبه عندما ترى أحقق على الطريق، فإن الازدراء هو الذي ينتصر في النهاية.

- هل يمكننا أن نكون ممتنين للأحمق، فقط لأننا نظهر أفضل منه؟

- حتى لو تعلمنا كيفية التعامل معهم، لا أعتقد أننا سوف نشعر بالامتنان تجاه الحمقى، إلا إذا انتهى بهم الأمر إلى إدراك قيمتنا كبشر. يمكننا دائماً أن نهني أنفسنا على فهمهم وإدارتهم بشكل أفضل، كما شعرت بعد الانتهاء من كتابي. لكنني لا أشعر بالامتنان، رغم ذلك، لأنهم يفعلون أشياء سيئة لأسباب سيئة من دون أي اعتبار لي. إنهم يسببون كثيراً من الإحباط والإزعاج. في نهاية المطاف، أعتقد أحياناً أنني تصرفت بشكل جيد أو استجبت لهم بشكل جيد، لكنني لست ممتناً لهم: كنت أفضل عدم مقابلتهم!

- وفي عام ٢٠١٦ خصّصت كتاباً عن المخاطر التي قد يمثلها انتخاب دونالد ترامب. هل تعتبره الأحمق الأعظم أم أنه أدهى من ذلك؟

- نعم، دونالد ترامب هو الأحمق الأعظم، أحمق محترف، إذا صح التعبير. وأعني بذلك أنه أحمق يثير الاحترام والإعجاب في نفس الوقت لإتقانه فن الحماقة رغم منافسة أقرانه. يتعين على الحمقى عادة التنافس على منصب «زعيم» الحمقى، أو «بارون» الحمقى، لكن قليلين هم من يقتربون من ترامب في تسلسل الحماقة تلو الحماقة (كيم يونج أون، في كوريا الشمالية، استثناء ملحوظ). وأولئك الذين ينجحون، مثل كريس كريستي، حاكم ولاية نيو جيرسي، غالباً ما ينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا أكثر انقياداً.

- هل كان بعض الفلاسفة المشهورين حمقى؟

- إنه أمر مضحك، لكنني كتبت عن چان جاك روسو الذي تعتبر تأملاته المتعلقة باحترام الذات مهمة جدًا لفهم مشاعر الحمقى وديناميكية التدمير الناتجة عنها. لكن روسو نفسه تخلّى عن أطفاله الكثيرين، وأنا أفهم أنه كاد يشتري فتاة تبلغ من العمر ١٢ عامًا ويسكنها في منزل صغير للحصول على امتيازات جنسية... وعلى الرغم من عبقريته، فإنه بالتأكيد يبدو أحمق في بعض النواحي!

- هل هناك أي من الحمقى على كتابك عنهم؟

- نعم، كتب لي قراء ليقولوا: «شكرًا لك على هذا، أعطاني إياه أطفالتي، وأنا بلا شك أحمق». كانت ملاحظاتهم دائمًا لطيفة. «برافو، أحسنت...»، وبالتالي، اعترفوا لي أن ذلك سيغيّر حياتهم وأنهم سوف يتصرفون بشكل مختلف، ليس على الإطلاق. بما يخص الحمقى الذين أعرفهم، لا أعرف إذا كانوا قد قرأوه أم لا؛ أحاول الحد من تفاعلاتنا قدر الإمكان!

أجرى الحوار چان فرانسوا مارميون

من حماقة إلى الهراء

باسكال إنجل

فيلسوف ومدير الدراسات في كلية الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية

كيف يمكننا تصنيف أشكال الغباء المختلفة: معتوه abruti، أبله idiot، بليد crétin، مغفل niais، غبي stupide، عيب sot، أخرق imbécile، مخبول débile، تافه/ غير كفء inepte، والتوصيف الأسمى، con أحمق؟ هل جميعها تؤدي إلى الشيء نفسه؟ وهل معدوم الذكاء/ بهيمة/ حيوان «Bête» هو الجنس الذي تنتمي إليه الأنواع الأخرى؟ ما لم تكن كلمة أحمق «con»، التي يبدو أنها في الفرنسية تحل محل جميع الكلمات الأخرى، فهل يمكن حتى تعريف الغباء، حيث إن هذه التصنيفات غامضة، وغالبًا ما تُخترل في مجرد إهانات من دون أن نتمكن من تحديد ما إذا كانت خصائص حقيقية؟ تبدو مفردات الغباء نفسها مرتبطة منهجيًا باللغات والثقافات بحيث يبدو من المستحيل العثور على مفردات عالمية: هل tonto باللغة الإسبانية تشبه حقًا أبله «idiot» الفرنسية؟ هل معتوه Moron في الأمريكية تعادل

مغفلًا dunce في اللغة الإنجليزية؟ هل يمكن ترجمة كلمة أحمق وغد Asshole بواسطة connard؟ إن تنوع أشكال الغباء كبيرٌ جدًا، لدرجة أن عديدًا من أولئك الذين شرعوا منذ العصور القديمة في مهمة تحديد جوهره، سرعان ما استسلموا، وقدّموا الأمثلة التوضيحية بدلًا من ذلك. الكوميديا والهجاء، اللذان تناولا في كثير من الأحيان (وربما حصريًا) الغباء البشري، يقدّمانه، من أريستوفانيس إلى لوسيان، ومن جوفينال إلى بيرس، ومن إيراسموس إلى سويفت وبوب، ومن موليير إلى فولتير، ومن فيدو ولابيش إلى جاري، ومن بيلهام جرينفيل وودهاوس إلى فلانري أوكونور، فهناك عديد من التجسيّدات المتنوعة بحيث يصعب العثور على أدنى وحدة في أعمال مثل: سفينة الحمقى، كرنفال، هرج ومرج، حديقة الحيوانات. تكتفي معظم الغباوات بالتعداد والأمثلة، وفي كل مرة يحاول فيها الفيلسوف تقديم نظرية، يفنّدها آخرون على الفور. الأدب وحده، من فلوبير إلى بلوى، ومن موزيل إلى جومبروفيتش، ومن سارتر إلى كونديرا، يبدو قادرًا على التعامل معهم، ولكن من دون تجاوز الملاحظة المثبّطة: «هكذا هو الأمر».

درجات الغباء

ورغم أن تصنيف الغباء أمر صعب، فإنه ليس مستحيلًا. للغباء درجات، يمكن وصفها بمجموعات من التصرفات الخاصة بأنواع الأفراد. وفي أدنى درجات المقياس، هناك الغباء الثقيل والغاشم حرفيًا لأولئك الذين يفتقرون إلى الذكاء، والذين يقتربون من المملكة الحيوانية (حمار، صقر، دجاجة)، أو الخضار (قرع، خيار مخلل، بطاطس)، وهو

ما يصفه تمامًا مصطلح معتوه. وكذلك مصطلح غبي، الشخص الذي يجعله كل شيء مذهبًا، وشفته السفلى تتدلى. هذا الغباء الفظ قريب من الأرض (غباء همجي عند اليونانيين) وحتى من الحجر (تشهد على ذلك حكاية الدب الذي قتل صاحبه). تختزل العامية الأمر في شيء واحد: le con الفرج، العضو التناسلي الأنثوي، وبالنسبة إلى الرجل، الخصية أو الحشفة. ودرجة أعلى، هناك البُله والمعتوهون idiots et les imbeciles، أولئك الذين فهمهم هُشُّ للغاية (بليد débile) لدرجة أنهم ينتمون إلى علم الأمراض لأنهم متفردون للغاية. نوعهم أيضًا هو نوع الهبل، المتأثرين بالضعف الوراثي. ودرجة أعلى، هناك أولئك الذين، على الرغم من أنهم يبدو أن أكثر يقظة بعض الشيء من المعتوهين، إلا أنهم خُرق ولكن طيبون. إنهم المغفلون، السذج، السخفاء، ضعاف العقل.

درجة أعلى نجد الحمقى. لا يفتقر الأحمق بالضرورة إلى الذكاء، ويمكن أن يكون لديه حكم في بعض الأحيان. لكنه يفعل ذلك بشكل سيئ، وهو قبل كل شيء مختالٌ بنفسه، لأنه يحب الذبوع ويحتاج إلى الآخرين، فهو اجتماعي أما الغُشم brutes فمنعزلون. إنه متحذلق ومتنفخ، مثل تريسوتين في مسرحية «النساء المتعالمات» لموليير. الأحمق ليس سلبياً، فهو في كثير من الأحيان، مثل بوفار وبيكوشيه، نشيط للغاية. فهو ليس معادياً للمعرفة، وليس عاجزاً عن تحصيلها، ولكن تكمن حماقته في أنه لا يعرف كيف يطبق ذلك أو يضعه موضع التنفيذ.

وهناك درجة أعلى من الحماسة البسيطة، وهي ما يسميها موزيل «الغباء المعقّد» أو «الذكي»، والذي يقول إنها تمتد إلى أعلى مجالات العقل^(١). يمكن للأحمق الذكي أن يكون متعلماً جداً ومثقفاً جداً، بل إنه يستطيع أن يتألق في المجتمع، لكن ذكائه لا يتفق مع عواطفه. إنه يرسم خطأً غير مناسبة وغير متناسبة لأنه يوجد بداخله، كما يخبرنا موزيل، «تناغم غير كافٍ بين نزوات المشاعر والفهم الذي لا يكفي لاحتوائها». ويقارن موزيل هذه الغباوة أو الحماسة الذكية بالغباء «الصريحة» التي تتمتع «بوجه الحياة الطيب». غالباً ما تكون شخصياتها تلك المتكبّرة، التي لا تعرف سبب إعجابها بشيء أو بشخص ما، أو برجل أو امرأة صالون، مثل مدام فيردوران، أو رجل المشاريع، مثل آرنهايم والجنرال ستوم في «رجل بلا صفات»، أو المخططين، كمؤلف كتاب اقتراح سويفت المتواضع. يوجد لدى الأحمق المتطور شكل من أشكال الخلل الأخلاقي، الذي لا يرجع، كما هي الحال في أشكال الغباء الأخرى، إلى عدم كفاية الوسائل لتحقيق الغايات، ولكن إلى العمى عن طبيعة الغايات. إن هذا النوع الرفيع من الحماسة هو رذيلة، والمتضرّرون منه يتحمّلون المسؤولية الكاملة. هذا هو المكان الذي تجد فيه الفكرة الشائعة عن الغباء كخللٍ فكريٍّ حدودها. كثيراً ما يقال إن الغبي أيضاً شرير وقاسٍ، فهو يتجاهل القيم الأخلاقية وغالباً ما يحتقرها. لكنه أيضاً قد يحتقر أحياناً القيم الفكرية^(٢).

R. Musil, *Über die Dummheit*, 1937, traduction française in *Essais et conférences*, Seuil, 1984.

K. Mulligan, *Anatomie della Stolttezza*, Jouven Milano, 2016. (٢)

الحماقة والهراء bullshit

وهنا تنضم الغباوة الذكية -أو بالأحرى الحماقة، بمعنى الكلاسيكيين الذين نادرًا ما استخدموا مصطلح «الغباء»- إلى ما وصفه هاري فرانكفورت بالهراء^(١). الهراء نوعٌ من الكلام يتضمّن قول أي شيء حرفيًا، بصرف النظر عما إذا كان صحيحًا أم خطأ. الشكل النموذجي هو الثروة الاجتماعية أو مقهى التجارة بباريس، ولكن غالبًا ما نقابلها في الصحافة والإعلان. فقائل الهراء هو الذي «يتحدّث بحماقات»، ولهذا تُرجم كتاب فرانكفورت باسم «فن أن تقول حماقات L'art de dire des conneries». لكن ممارسة الهراء لا تعني فعل أو حتى قول أشياء غبية أو سخيفة أو حمقاء. إنه الاحتقار المنهجي ليس فقط لقواعد الصبح والخطأ، بل لقيمة الصبح نفسه. يصر فرانكفورت على أن قائل الهراء ليس كاذبًا، لأن الكذاب يستوفي معيار الحقيقة ويحتاج إليه لتحقيق كذبه. وعلى العكس من ذلك، فإن قائل الهراء لا يهتم، لكنه أي شيء غير الأحق، أو المنتج للحماقة. على العكس من ذلك، فهو ذكي، لكنه لا يهتم بالحقيقة. ولهذا السبب من الأفضل الإشارة إلى الهراء بمصطلح «connerie»، الذي يعني ضمن معانيه «الهراء»، ولكن الكاتب يفضّل هذه الكلمة.

H. Frankfurt, On Bullshit, Princeton UP, 1992, traduction française L'Arz de (١) dire des conneries, 10/18, 2007.

إن إنتاج الهراء -على عكس حماقة البسيطة- حماقة من الدرجة الثانية، فهو يراعي قيم الحقيقة والمعرفة، لكنه لا يعترف بها ولا يمارسها. ولهذا السبب فهو، وليس الكذب، شكل من أشكال الخداع الذي نجده في أغلب الأحيان في الخطابات العامة، كما هي الحال في السياسة. وفي القرن السابع عشر، يتوافق الهراء مع ما يسمّى الألمعي، والذي قال عنه مالبرانش: «إن الغبي والألمعي قريبان بنفس القدر من الحقيقة، مع فارق أن الغبي يحترمها، ويحتقرها الألمعي». الأحمق أو الغبي البسيط (الذي يمكن أن يكون، مثل فيليسيته فلوبير، قصة «قلب بسيط») يحترم قيم العقل، بل يدّعي أنه يخدمها، حتى لو كان يخدمها بشكل سيئ أو ملتوٍ. الأحمق المعقّد، مثل منتج الهراء، يحتقرها. ولذلك يمكننا أن نعتبر الهراء هو المرحلة العليا من الغباء. يجسده جوديسار اللامع عند بلزاك، وشخصيات دوميه، ورجل الثقة عند ملفيل، في الخيال، ودونالد ترامب في الواقع.

الأحمق يفكر أكثر من اللازم

قد يبدو هذا التصنيف لأشكال الغباء بدائيًا، لكنه يتميّز بتأكيده أن الغباء ليس -أو ليس مجرد- عجزًا عن الفهم أو خللاً فكريًا، ولا حرمانًا من الحكم الذي من شأنه أن يترك الفرد، دائمًا أو مؤقتًا، في حالة من الجمود أو غياب الحرية. إنه الشيء نفسه بالنسبة إلى ما أطلق عليه اليونانيون شمعًا دماغياً (موريا) moria، واللاتينيون غباء (ستولتيتيا) stultitia، والذي غالبًا ما يترجم على أنه جنون، حيث مدحه إيراسموس

بسخرية. الستوليتيا جنونٌ بقدر ما هو حماقة. وكما يقول شامفورت: «ثلاثة أرباع الجنون ليست سوى حماقات». وهو يتعارض عند القدماء والكلاسيكيين مع الحكمة والعقل، ولكنه ليس العكس المطلق أو الوجه الآخر للعقل. يحبُّ الأحق أن يفكر، وكثيرًا ما يفكر أكثر من اللازم، كما تقول كريزال في «النساء المتعالمات»: «الاستدلال ينفي العقل». الأحق ليس مجرد شخص ضعيف الذكاء minus habens، وهو أيضًا من يفعل كثيرًا، ويتجاوز حدود المعنى، وبالتالي حدود اللياقة في مجال العقل. إنه غير مناسب وسفيه (والهراء شكلٌ من أشكال الكلام السفيه). لقد سُلِّط الضوء على موضوع الحماقة بوصفه إفراطًا في العقل من قبل كبار الأخلاقيين في العصر الكلاسيكي، من لا برويير إلى فوفينارج، وكذلك من قبل كبار كُتَّاب الهجاء الساخرين مثل سوفيت أو فولتير. ولكن فيما بينهم كان يستنكر هذا الإفراط دائمًا باسم الاستخدام الجيد للعقل، الذي يُعد صحيحًا بطبيعته ويهدف إلى تصحيح اندفاعات المشاعر الخادعة. على العكس من ذلك، فإن الرومانتيكيين يمجِّدون قوة المشاعر وقيمتها ويقلِّلون من قيمة العقل البارد. إنهم لا يسمحون لأنفسهم بأن ينبهروا بالجنون فحسب، بل إنهم يربطون الغباء بالعقل نفسه. أكَّد كانت أن العقل، عندما يسعى إلى التوسع إلى ما هو أبعد من التجربة، يقع حتمًا في الأوهام. تبنَّى شوبنهاور، ثم نيتشه، فكرة أن العقل بطبيعته فائضٌ منطوق، وأنه في هذا الأمر غبي. إنه، على حد تعبير جورج بيكار، «العقل نفسه أحق»^(١). تناول كبار كُتَّاب القرن التاسع

(١) G. Picard, De la connerie, Corti, 1994.

عشر الغباء، وعلى رأسهم فلوبيير. ومن خلال شخصيات هوميه وبوفار وبيكوشيه، هؤلاء البرجوازيون، عقلانيون للغاية. لكنهم يفرطون في هذه العقلانية. معهم، سينتهي الأمر دائماً بانتصار الإرادة على الفهم، من دون أن يفتقر بالضرورة إلى الأخير.

في كتابه العظيم «كتاب الصلوات اليومية للغباء» Bréviaire de la bêtise، تناول آلان روجيه موضوع «العقل الكافي»: يعتقد الأحمق المتباهي بنفسه والمتغطرس أن العقل كافٍ لكل شيء^(١). ويتجسّد الغباء عنده من خلال السخرية من المبادئ الأساسية للمنطق: استبعاد الطرف الثالث، والتناقض، والهوية. الأحمق يرغب في أن تكون أي قضية صادقة أو كاذبة («هل تحبُّني أم لا؟»)، ولا يتسامح مع التناقضات («لا يمكن أن يكون لديك الشيء ونقيضه في الوقت نفسه»)، وفوق كل شيء يكثر لديه الحشو («العمل هو العمل»، «اليهودي هو يهودي»). وقد رأى فلوبيير وبلوى على وجه الخصوص هذه الطبيعة الهوياتية للغباء البرجوازي، الذي يستمتع من خلال الأماكن الشائعة والبديهيّات («الفنانون: كلهم مهرجون»). هنا نجد غرور الأحمق، هذا الرضا الذاتي بالحشو الذي لا يقول شيئاً لأنه صحيح دائماً. نحن نقول حشواً لأننا لا نقول شيئاً معقولاً أو ذا أهمية، باستثناء استدعاء هوية الأشياء مع نفسها: «الفلس هو فلس واحد»، «المرأة هي امرأة»، وبعودة دقيقة إلى الأمر الذي أوضحه براسانس، «عندما تكون أحمق، فأنت أحمق». وهنا يقترب إنتاج الحشو من إنتاج الهراء، الذي يتحدث عن فراغ، ولكنه

A. Roger, Bréviaire de la bêtise, Gallimard, 2008. (١)

يتنشر بلا خجل، مملوء بذاته. وهو أيضًا علامة على شكل من أشكال الحماسة العنيدة، حيث يشكّل الغباء العسكري، الاستبدادي في جوهره، نموذجًا له (يغني جرايم أولرايت: «كنا نعاني في حين يقول العجوز الأحمق: تقدموا»).

عصر الغباء الجماعي

الأماكن المشتركة هي فكر الجميع، فكر الحشود، الذي يعارضه الرومانتيكيون بالفرد، الوحيد القادر، باسم الفن، على معارضة بُدّد شخصية «المرء/نحن» المتجسّدة في العقل والتقنية.

لكن في القرن العشرين، بل أكثر من ذلك في القرن الذي يليه، حتى الفن أصبح غيبًا وزائفًا، كما هي الحال في الفن الهابط (الكيتش)، وهو شكل من أشكال الحماسة المطبّقة على الجمال، ومرض الحكم الجمالي^(١). لكن قبل كل شيء، لم تعد الحماسة مقتصرةً على نوعٍ معيّن من الأفراد، كما كانت الحال في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بل أصبحت جماعية وجماهيرية حقًا. إن إنتاج الهراء، الذي كان مستوطنًا في الصحافة، أصبح جائحة في وسائل الإعلام، على الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، التي تنشره بجرعات هائلة لدرجة أنه أصبح قوة سياسية. إنه جزء مما يسمّى بعصر «ما بعد الحقيقة»، والذي ينبغي بالأحرى أن يسمّى عصر الهراء؛ إنتاج نوع من الخطاب والفكر حيث لم نعد نهتم بما إذا كان ما نقوله صحيحًا، بل التأثير الناتج عن ذلك هو

H. Broch, «Quelques remarques sur le kitsch», in Création littéraire (١) connaissance humaine, Gallimard, 1985.

المهم فقط. إن الهراء غبي لأنه خارج عن السيطرة، وبارع لأنه في خدمة الاستراتيجيات السياسية والدعاية.

إذا كان الغباء والحماسة يجدان أصلهما في العقل المتفوق، فكيف يمكننا أن نثق بالعقل نفسه لمقاومتها؟ هذه هي المعضلة التي يواجهها كلُّ المفكرين، من نيتشه إلى هيدجر، ومن سارتر إلى فوكو، الذين اتهموا العقل وعصر التنوير بإنتاج الثقافة الجماهيرية، والتقنيات «الاستيعالية» والشمولية. لقد حلوا هذه المشكلة في كثير من الأحيان من خلال تبني اللا عقلانية، مثل الرومانتيكيين. لكن علاج مرض الغباء ليس في التخلي عن العقل، بل في تبني العقل النقدي والواعي لحدوده.

الإنسان مخطئٌ للغاية

جان فرانسوا مارميون

عالم نفس ورئيس تحرير مجلة «حلقة التحليل النفسي»

إذا كنت لا تعرف الإنسان الاقتصادي l'homme économique، فأُسرع وقابله ما دام أنه لا يزال يتحرّك. حتى مطلع القرن، كان نموذجًا للذات المستقلة، التي تحدّد نفسها وفقًا لـ «المنفعة المأمولة» لخياراتها؛ أي التصرف بما يحقق أفضل مصالحها، وخاصة المالية. أناني وعقلاني وثابت. الشخصية الرائدة في الاقتصاد الكلاسيكي الجديد. كان الأمر بسيطًا. كان جميلًا. لقد كان خطأ.

ابتعد أيها الاقتصادي!

انقسم علماء النفس منذ فترة طويلة حول هذا النموذج. يمكننا أن نتخيّل أن المحلّلين النفسيين، الذين يميلون دائمًا إلى البحث عن الدوافع، والبواعث اللا واعية، والجانب المظلم، كان لديهم سبب للتشكيك في ذاتٍ يفترض أنها ذكية وبصيرة. لكنّ آخرين آمنوا به، بدءًا من الإدراكيين، الذين كان الفكر البشري بالنسبة إليهم جهاز كمبيوتر، يعالج المعلومات عن طريق ربط الخوارزميات بعضها ببعض.

صوّرتنا بعض النماذج من ثمانينيات القرن العشرين (مثل المنطق الطبيعي لبرين أو نظرية تشينج وهوليوك لأنماط التفكير البراجماتي للاستدلال) كمتلاعبين بالقواعد الصورية، أو التمثيلات (هذه هي حالة نظرية جونسون ليرد للنماذج العقلية). ومع ذلك، بحلول ستينيات القرن العشرين، كان هناك علماء إدراكيون آخرون قد كسروا هذا الصرح الجميل، مثل بيتر واسون من خلال أحجيته «مهمة الاختيار».

يتم تقديم أربع بطاقات للناس، يميّز كلٌّ منها بحرف أو رقم، على سبيل المثال D و F و ٧ و ٥. التعليمات: «ما البطاقات التي يجب عليك تسليمها للتحقق من القاعدة التالية: إذا كان هناك حرف D في مقدمة البطاقة، فهناك رقم ٧ في ظهرها؟».

يمكننا أن ننظر إلى المشكلة من جميع الاتجاهات، هناك إجابة واحدة صحيحة من وجهة نظر منطقية: يجب أن نقلب الـ D والـ ٥. بمعنى آخر، يجب أن نبحت عما يمكن أن يبطل القاعدة، وليس تأكيدها. وإلا فإننا نقع في «التحيز التأكيدي». يمكنك القول: كان عليك أن تعرف!

ومن المؤكد أن ٨٠٪ منّا لا يدركون ذلك، وليس لديهم أيُّ حدسٍ بشأنه. نحن نرتكب الأخطاء من دون أن يكون لدينا حتى عذر الانجراف وراء العاطفة. لا حرج في ذلك، لأننا ببساطة لسنا منطقيين طبيعيين ولا إحصائيين، على عكس ما تطرحه نظرية الإنسان الاقتصادي. وقد تلقّت هذه النظرية أشد الضربات التدميرية في عام ٢٠٠٢، عندما حصل عالم النفس الأمريكي الإسرائيلي دانييل كانيمان على جائزة نوبل في الاقتصاد. في بداية سبعينيات القرن الماضي، وفي العمل الذي قام به

مع زميله عاموس تفيرسكي، الذي توفي عام ١٩٩٦، حيث سلَّط الضوء على المنطق الحدسي الذي نستخدمه يوميًا، «المبادئ الكاشفة». وتبدو هذه المبادئ كأنها منطقية، لكنها أموال قرد^{(١)(*)}، فهي فجّة وتقرّيبية. ومع ذلك، فهي كافية تمامًا في الحياة اليومية. ولذلك يمكننا استخدامها من دون ضرر كبير، لتجنبنا التفكير المضني والواعي الذي ربما يكون أكثر دقة، ولكنه من شأنه أن يرهقنا ويشلّلنا.

ومع جائزة نوبل هذه فإن «الإنسان الاقتصادي» الذي تُنصّل منه علنًا لم يعد أكثر من مجد العودة إلى الوراء، والطريق واضح أمام تخصص يحظى بشعبية كبيرة اليوم، وخاصة في أوقات الأزمات هذه حيث يُتَنصّل من النماذج التقليدية للاقتصاد: الاقتصاد السلوكي. هذه المرة، ندرس استدلالنا العلمية وقراراتنا في مواقف لم تعد غير مجسّدة، بل معقولة، ومنقولة إلى موقف تجريبي. والنتيجة ليست مُرضية لنا. يا له من تحيّر! نحن جميعًا مفكّرون وصناع قرار مبتدئون. وعلى هذا فإن مطاردة استدلالنا الخاطئة أصبحت تخصصًا جسمانيًا في علم النفس الاجتماعي أو الإدراكي، كما هي الحال في علم الأعصاب، مع نتائج أكثر إحراجًا من أي وقت مضى، لأسطورة الإنسان العقلاني. على سبيل المثال، أظهر عالم النفس الاجتماعي سولومون آش، أنه من أجل المطابقة، نحن على استعداد لإنكار ما ندركه. إذا كنا الوحيدين في المجموعة الذين ندرك أن الخطوط متساوية الطول، فسوف نميل إلى خداع أنفسنا عمدًا من أجل تبني آراء الآخرين بحُسن نية.

(١) (*) يشير هذا التعبير في الأصل إلى نوع من الدفع العيني. واليوم، يعني استخدام عملة لا يمكن تحويلها إلى أموال أو حتى «عدم الدفع»، أي الاحتيال على الدائن.

ومع ذلك، في عام ٢٠٠٥، كرر الباحث جريجوري بيرنز، من جامعة إيمري في أتلانتا، تجربة آش تحت التصوير بالرنين المغناطيسي. ماذا يرى؟ إنه من خلال التخلّي عن الاعتقاد بما هو واضح، لا ينشط الجزء من دماغنا المتخصّص في معالجة الصراعات المعرفية، بل الجزء الخاص بالإدراك المكاني فقط.

إن حكم الآخرين يغيّر تصورنا للخطوط، وما كنا نعتبره انحرافاً أصبح الآن حقيقةً لم تعد تشكّل مشكلة لنا. الأخلاق: الخطأ ليس مجرد رأيٍ سطحي، بل إنه يغيّر إدراكنا للواقع. يجعلك أعمى. على أي حال، إنه مضللّ. لا ترتكب مزيداً من الأخطاء.

تزدهر الأدبيات المتعلقة بتحيزاتنا المزعجة ومبادئ كشفنا الحزينة بكثرة. لتحذيرنا أحياناً: توقف عن ارتكاب الأخطاء^(١)! يصرخ الكاتب السويسري رولف دوبيلي، على أمل أن يعلّمنا كيف نتحايل على منزلقات تفكيرنا اليومي، وخاصة إذا جاءت من الاقتصاديين والصحفيين.

فلتخطئ، السماء ستساعدك!

تأخذ الصحفية كاترين شولتز الجانب الآخر في اكتشاف الخطأ! لماذا من المفيد أن نكون مخطئين^(٢): نحن مخطئون، فماذا في ذلك؟ والأمر متروك لنا أن نتعلم من أخطائنا، التي يمكن أن تكون خلّاقة ومفيدة. وبالتالي، لم يعد هذا النقاش يهم علماء النفس والاقتصاديين

Eyrolles, 2012. (١)

Flammarion, 2012. (٢)

فقط. فهل ينبغي لنا إذن أن نفتخر بكوننا عقلانيين، أو نياس من حماقتنا، أو نرحّب بضعفنا باعتباره فرصة؟ ربما كل هذا في وقت واحد.

في آخر أعماله، Système 1/ Système 2. Les deux vitesses، النظام ١ / النظام ٢ سرعتا الفكر^(١)، يشير دانييل كانيمان مرة أخرى إلى أننا نفكر بسرعتين.

إن ما يسميه الفائز بجائزة نوبل بالنظام ١ هو من اختصاص مبادئ الكشف. إنه الطيار الآلي. نفكر بشكل سيئ ولكننا نفكر بسرعة، ونبدل قصارى جهدنا بما هو أماننا، تحت تأثير العاطفة، وننتقل إلى شيء آخر. نصنف العالم بضربة منجل، ونرسم كاريكاتيرًا، ونفشل... في كثير من الأحيان، ينجح الأمر، ولكن في بعض الأحيان، لا ينجح. ثم يتولّى النظام ٢ المسؤولية. قوي ومحدّد ودقيق وقادر على ممارسة التمارين العقلية عالية المستوى. نحن لا نفعل ذلك له. إنه يكره التلميظ. إنه يُطبّق، حتى لو كان ذلك يعني اتباع نهج بطيء. لديه خطأ واحد فقط: إنه كسول. ما دام النظام ١ المضطرب يقود الطريق عبر القارب ببطء مع تطور الأحداث، يُسمح للنظام بالتحكم. تحدث ضجة، فيفضل ليتولّى القيادة، لكنه يحتكر الاهتمام، ويستهلك كثيرًا من الطاقة. أنت تدفع مقابل الجودة! باختصار، بفضل النظام ٢، عندما نريد التفكير جيدًا، يمكننا ذلك، بعض الشيء، لكننا بالكاد نريد ذلك.

وحتى ذلك الحين، فإننا لا نحقّق أبدًا عصمة المنطق الصوري

Flammarion, 2012.

(١)

- الاسم الأصلي للكتاب «Thinking, Fast and Slow» وقد تُرجم إلى العربية بعنوان «التفكير السريع والبطيء».

البارد. وكان هربرت سيمون، الحائز أيضًا جائزة نوبل في الاقتصاد (ولكن في عام ١٩٧٨)، يعتقد أننا نتمتع بالعقلانية بكل تأكيد، ولكن بعقلانية «محدودة». هذه هي الطريقة التي نجا بها جنسنا البشري.

لو اضطر أسلافنا إلى اتخاذ وضعية مفكر رودان قبل أن يقرّروا ما إذا كانوا سيهربون من حيوان مفترس أو عدو، لانقرضت البشرية منذ زمن طويل! كان لا بدّ من وجود نظام ١، حتى لو كان عرضة للخطأ.

ولكن إذا كنا قادرين على التفكير فيه والأسف على إخفاقاته، فذلك لأننا في الوقت نفسه طوّرنا نظام ٢، وهو فخم للغاية، لاستخدامه بشكل مقتصد. وبما أن المنطق الصارم ليس عنصرنا الطبيعي، فنحن مزودون بعدديد من سجلات التفكير غير الكاملة، ولكنها تتكيف مع حالتنا وتسمح لنا بالبقاء على قيد الحياة في بيئة معقدة وغير مستقرة وغير جديرة بالثقة.

لذا، نعم، هذا صحيح، الخطأ إنساني. بمعنى أننا ربما ندين له بجزء من إنسانيتنا.

دع العدالة تَقْم بعملها (الهضم)

بعد استراحة الغداء أو استراحة قصيرة، قبل القضاة الذين يصدرون الأحكام ٦٥٪ من طلبات الإفراج المشروط. ثم يصبحون قساة أكثر فأكثر، تدريجيًا، إلى حد رفض كل شيء تمامًا. وبعد الاستراحة التالية، يعودون إلى عتبة الأحكام المخففة البالغة ٦٥٪. وقد ظهر ذلك في عام ٢٠١١ من خلال تحليل ما يقرب من ألف قرار صادر عن ثمانية قضاة

إسرائيليين^(١). اعتمادًا على ما إذا كانوا مصابين بالانتفاخ أو خفافاً، فإن قضاة التطبيق سيقبلون طلبك أو يرفضونه.

چان فرانسوا مارميون

المنطق الطبيعي لبرين

نحن نترجم عناصر المشكلة إلى منطق افتراضي؛ أي إلى صيغ مجردة، خارج السياق ومستقلة عن تجربتنا، من نوع: إذا وجد أ يوجد ب؛ إذن يوجد أ ثم ب، فوجود أ ضروري لوجود ب (حالة الإثبات التالي، في المنطق). أو مرة أخرى: إذا كان وجود أ ضرورياً لوجود ب، إذن مع عدم وجود ب، لا يوجد أ (طريقة النقض) وما إلى ذلك.

نظرية شينج وهوليوك للأنماط البراجماتية للاستدلال

نحن نستنتج من المعارف المكتسبة من خلال التجربة، ومن الصيغة الشرطية (من نوع «إذا، إذن»). في مثل هذا السياق، إذا كان هذا، إذن فذاك، أو لا (على سبيل المثال: إذا جاءت سيارة بسرعة، فلن أعبر).

نظرية جونسون-ليرد للنماذج العقلية

نحن لا نستنتج بناء على قواعد منطقية بسيطة، بل من خلال تمثيلات نوضحها بالأمثلة أو الأمثلة المضادة.

(١) S. Danziger, J. Levav et L. Avnaim-Pesso, Extraneous factors in Judicial decisions. Proceedings of | the National Academy of Sciences, 2011.

نقد المبرهن المحض

وكان من المفترض أن يمارس الإنسان الاقتصادي الأسطوري المنطق المحض. لقد كان يستنتج من خلال الاستنباط، الذي يتمثل في اتخاذ أسس انطلاق (مقدمات) مُقدّمة على أنها مؤكّدة، لاستخلاص نتيجة موثوقة بنفس القدر.

ومن خلال القيام بذلك، أهمل منظروه الآخرون تمامًا أنواعًا أخرى من الاستدلال نمارسها جميعًا بشكل طبيعي، مثل الاستقراء، حيث نستخلص قانونًا عامًا بناءً على ملاحظات جزئية، وبالتالي مع حالة عدم اليقين. هذا ما يوضحه چان فرانسوا بونفون، مدير الأبحاث في كلية تولوز للاقتصاد والحائز الميدالية البرونزية من المركز الوطني للبحث العلمي، ومؤلف كتاب «المبرهن ونماذجه»^(١): «لا يمثل الاستنباط سوى جزء صغير من استدلالنا، وهو أمر معقّد بسبب جميع أنواع المعلومات، على سبيل المثال، تفضيلاتنا، ما نود أن نراه يحدث، ما نود أن يكون صحيحًا. لقد درسنا لفترة طويلة استدلالنا المتعلقة بالحقائق غير المجسدة، من دون الانشغال بشأن ما إذا كانت مرغوبة ولا لمن. نتصرف كما لو أننا دائمًا نمارس الاستدلال من أجل لذة الاستدلال، من دون هدف عملي. والوضع هكذا، نحن لا نمارس الاستدلال بهدف معين فحسب، ولكننا قادرون أيضًا على القيام بذلك من خلال دمج

PUG, 2011. (١)

الأهداف المفترضة للآخرين. عندما نمارس الاستدلال حول الناس، نأخذ في الاعتبار ما نعتقد أنهم يريدونه».

وحتى لو أردنا دائماً الاستدلال بواسطة الاستنتاج، فلن نتمكن من ذلك. بكل بساطة، لأننا نادراً ما تكون لدينا أسس مقدمات مؤكدة تماماً لدعم تفكيرنا: «كنا نعلم أن الناس قادرون على التأقلم مع عدم اليقين، لكننا اعتبرناه هامشياً»، كما يتابع جان فرانسوا بونفون.

ثم أشار كثير جداً من الباحثين إلى أن الأمر كان على العكس من ذلك، وأن الوقت اليومي المخصص للاستنتاج والتلاعب بالمعلومات الآمنة كان ثانوياً. إن القدرة البدائية الحقيقية هي القدرة على التعامل مع عدم اليقين، فالاستنتاج لا يمثل سوى حالة محدودة. عندما نكون قادرين على الاستدلال مع عدم اليقين، يمكننا أن نفعل ذلك مع اليقين: «من يستطيع أن يفعل أكثر، يمكنه أن يفعل أقل. ومن هنا تحاول النظريات الآن تفسير ما هو أكثر وليس ما هو أقل...»، ثمة نظريات غير واقعية، تفترض أننا منفصلون عن الواقع، وغير مهتمين حتى بأخطائنا، وبعيوب استدلالنا، في عالم مثالي، الفرضيات المبنية على عقلانيتنا المحضة قد تكون مثالية، مثل حديقة كلاسيكية منتظمة. في العالم الواقعي، الفرضيات هي الشجرة التي أخفت الغابة.

جان فرانسوا مارميون

معرض التحيزات (ومبادئ الاستكشاف)

هناك عشرات من طرائق التفكير بأي شكل، ونحن نمارسها جميعاً! فيما يلي بعض التحيزات (أخطاء الاستدلال) والاستكشافات (الاستنتاجات تلقائية وتقريبية، ولكنها ليست بالضرورة خاطئة) التي حدّدها بوضوح علم النفس العلمي.

استكشاف التمثيلية: حالة ليندا

هذه حالة كلاسيكية عظيمة للشئائي كانيمان/ تفيرسكي. ليندا امرأة عازبة ومشرقة وتعمل، تبلغ من العمر ثلاثين عاماً. أيها أكثر احتمالاً: هل هي موظفة في بنك، أم نسوية، أم موظفة بنك ونسوية؟ جميعنا تقريباً نميل نحو الفرضية الثالثة، وهي الأرجح بالنظر إلى ما نعتقد أننا نعرفه عن موظفي البنوك والناشطات النسويات. ولكن هذا غير منطقي، لأنه مهما كانت خصائص ليندا، من وجهة نظر إحصائية، تظل عبارة «ليندا هي هذا» دائماً أكثر احتمالاً من عبارة «ليندا هي هذا وذاك».

مرساة استكشافية / ضبط: معلم سيئ في الضباب

اسحب رقمًا عشوائيًا، ثم قدّر عدد الدول الأعضاء في الأمم المتحدة. كلما علا الرقم الذي سجلته، زاد عدد الدول التي ستدمجها

في الأمم المتحدة (نعم، لقد تمت التجربة!). وعندما ينتابنا الشك، فإننا نُجري تقديرات من نقطة مرجعية، حتى ولو كانت مقترحة بالمصادفة، وحتى لو لم يكن لها أي علاقة بالسؤال الذي يعيننا. مرسة، للمفارقة، تجعلنا ننحرف نحوها، وليس نحو الحقيقة.

التوفّر الاستكشافي: الأكثر صخبًا هو المُحقّق

نستنبط من الذاكرة التي أثّرت في خيالنا، أو ببساطة الأحداث: أيرتكب مريض انفصام الشخصية جريمة قتل؟ وتبقى المعلومة محفورة في أذهاننا، وإذا لم نعرف شيئًا عن الفصام، فإننا نستنتج أن كل مريض الفصام خطرون. لا نتحدث عن القطارات التي تصل في ميعادها، إذن فكلها تصل متأخرة!

النفور من الخسارة: «كسرة خبز» أفضل من «لا شيء»

تؤثر فينا فكرة خسارة ١٠٠ يورو ضعف ما تؤثر فكرة ربحها. النفور من الخسارة هو جوهر نظرية الاحتمالية، وهي واحدة من تلك التي طوّرها دانييل كانيمان وعاموس تفيرسكي. وهذا هو السبب وراء انتظار مسوقي الأوراق المالية فترة طويلة قبل البيع بخسارة. إضافة إلى ذلك، فإننا نقتنع بسهولة أكبر بحجة من نوع: «لا تدع قوتك الشرائية تنخفض»، بدلاً من «زيادة قوتك الشرائية». هل تعمل أكثر لكسب مزيد؟ «لا، أعمل أكثر من أجل خسارة أقل»!

تحيز التأطير: نصف فارغ أم نصف ممتلئ؟

تُمنح الاختيار بين طائرتين: الأولى لديها فرصة ٩٧ ٪ للوصول بسلام، والثانية لديها فرصة ٣٪ للتحطم. أيهما ستستقل؟ بعفوية، تميل إلى اختيار الرحلة الأولى على الرغم من أن المخاطر متساوية في كلتا الرحلتين. وبالتالي فإن الصياغة تُعدّل حكمنا.

تحيز التأكيد، الانحياز، والا لا شيء

إنه أمر مبتذل تمامًا: نحن نتمسك بما يؤكد رؤيتنا للعالم، ونقلل أو ننكر ما قد يظهر كذبها. أمثلة: هل أنا يميني؟ أقرأ صحيفة الفيجارو، بالطبع. يساري؟ أقرأ صحيفة ليبراسيون. أنا أو من بالتنجيم؟ أنتصر للمنجمين الثلاثة الذين توقّعوا وقوع حادث تحطم طائرة في الولايات المتحدة في سبتمبر ٢٠٠١. وأتجاهل آلافًا آخرين لم يتوقعوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وإذا لم يكن لديّ أي خيار حقًا، وإذا وضع شخص ما حقيقة علمية في وجهي تثبت أنني مخطئ... لا يهم، سأؤكد أن العلم لم ينضج بعد، ولم يجد بعد الطريقة الصحيحة لاستخلاص استنتاجات صحيحة حول الموضوع المهم بالنسبة إليّ. وهو ما يسميه عالم النفس جيفري مونرو «عذر العجز العلمي».

التحيز بأثر رجعي: أراهن على ذلك!

هل أنتم متفاجئون بنتائج الانتخابات التشريعية؟ «ولكنها ليست مفاجئة على الإطلاق!»، يجب المحلل السياسي. «الحقيقة، لا يمكن أن يكون

الأمر خلاف ذلك!». وأن يسرد بحسن نية الوقائع أو الاتجاهات العامة التي أدت منطقيًا إلى الوضع الراهن... الذي لم يكن قد أعلن عنه قط. إننا نؤمن بأن القدر له تعليماته ولكننا ننسى فقط فكَّ تشفيرها قبل فوات الأوان.

تحيز السلطة: «تأثير المعطف الأبيض»

في صباح أحد الأيام، يحذر شخص غريب متنكر في زي نابليون المارة من أن جسمًا غامضًا قد طار للتو فوق المدينة. يسلمهم قناعًا لحماية أنفسهم من الانبعاثات الفضائية الضارة المحتملة. في فترة ما بعد الظهر، يفعل الشيء نفسه، لكنه يرتدي معطفًا أبيض. برأيك، في أي حالة سيتشكك المارة؟ أمام خبير، نجعل أنفسنا صغارًا جدًا. وقد قدم عالم النفس الاجتماعي ستانلي مليجرام الدليل الأشهر في ستينيات القرن العشرين، من خلال تجربته حيث وافق أناس عاديون، لإرضاء عالم زائف، على صعق الغرباء بالكهرباء.

تحيز الرضا عن النفس: لقد وقعت على الأرض، هذا خطأ فولتير

عندما أنجح، فذلك لأنني جيد. عندما أفشل، فهذا خطأ الآخرين أو الظروف. لا ينبغي الخلط بينه وبين خطأ الإسناد الأساسي: نحكم أن الآخرين مسؤولون عن سلوكهم، بصرف النظر عن العوامل الخارجية. على سبيل المثال، نعتقد أن أي شخص يقرأ خطاب فيدل كاسترو لأنه مجبر على ذلك، لا يزال يتعين عليه أن يتفق مع ما يقرأه (أُجريت التجربة).

وهم السببية (أو التعالق الوهمي) : اللقائ والاطفال (*)^(١)

مجرد تزامن حدثين لا يعني أنهما مرتبطان. إذا لاحظنا زيادة متزامنة في عدد طيور اللقلق والاطفال، لا توجد علاقة بين السبب والنتيجة. ومع ذلك، فإن وهم السببية يثير نقاشات شائكة. وهكذا، خلال العشرين سنة الماضية، تزامن الارتفاع الحاد في حالات التوحد مع تطور الإنترنت... وبالتالي، الإنترنت يصيب بالتوحد. وجهة نظر متعجرفة ترجع إلى الباحثة سوزان جرينفيلد، من جامعة أكسفورد، التي نالت قدرًا كبيرًا من السخرية.

تأثير الهالة : من يسرق بيضة يسرق ثورًا

لديك عينان جميلتان، كما تعلمين... لذا يجب أن تكوني لطيفة، ذكية وصادقة، ويجب أن تكون رائحة إبطيك طيبة. أليس أمرًا سخيفًا؟ إن التعرف إلى صفة في شخص ما يؤهل أن ننسب إليه صفات عديدة. في المدرسة، الطالب الأكثر جاذبية جسديًا، سيحصل بسهولة أكبر على درجات جيدة، لأننا نفترض أنه أكثر موهبة وأكثر وعيًا. أوه، إنه فطيع. خاصة إذا لم يكن وسيماً.

جان فرانسوا مارميون

(١) (*) أسطورة تدل على التفاؤل حيث مع ظهور طيور اللقلق تكون الخصوبة.

الحماقة والتحيز الإدراكي

إيفا دروزدا سينكوفسكا

أستاذ علم النفس الاجتماعي بجامعة باريس ديكارت

مثل معظم المؤلفين الذين كتبوا عن الحماقة، أبدأ باعتراف. لقد قبلتُ الدعوة لكتابة هذا المقال خلال نقاش حيوي للغاية مع أصدقاء، على الرغم من أن العنوان المقترح لم يعجبني. لأن الجمع بين «الحماقة» و«التحيز الإدراكي»، يأخذنا إلى مخاطر رَبطنا بينهما.

فكرتان برزتا بوضوح في رأسي. الأولى هي أن الحماقة مصطلح يُستخدم لوصف فعل، أو كلمة، بطريقة أكثر تحقيرًا من «الغباء». على هذا النحو، يجب أن يتمتّع هذا التوصيف بقوة تنظيمية قوية (إذا استخدمناه فيما يتعلق بالآخرين)، وعلى نحو خاص بتنظيم ذاتي (إذا طبّقناه على أنفسنا). إذا قلت إنني ارتكبتُ حماقة، فمن حيث المبدأ ليس لديّ أي نية لفعل ذلك مرة أخرى. أشعر بالعار! لقد أثارت قوة هذا المصطلح اهتمامي. لكن نظرًا لكون اللغة الفرنسية لغة أجنبية بالنسبة إليّ، لم ألحظ بوضوح في استخدام كلمة «حماقة» *connerie* نفس الابتذال الذي سرعان ما أشارت له بالنسبة إليّ كلمة «أحمق» *con*.

وفي بيئتي، على الرغم من أنني انتقائية للغاية فيما يتعلق باختيار الكلمات، فإن «يا لها من حماقة!» كثيرًا ما تُقال.

وكانت الفكرة الثانية هي الاقتناع بأن التحيزات الإدراكية لا يمكن وصفها على الإطلاق بأنها حماقات/هراء. فهي تحدّد الميول المختلفة -من خلال معالجة المعلومات ومن خلال الاستدلال- التي تحفزنا على تجاوزاتنا المتعددة لقواعد المنطق والنظرية الاحتمالية وما إلى ذلك. إنها «طرق مختصرة» أو «دوائر قصيرة» وظيفية للغاية، نعم، أحيانًا، ولكن ليس دائمًا، تقودنا إلى ارتكاب الأخطاء. التحيزات في معالجة المعلومات ليست علامات على نقص الذكاء. إنها تعكس قوة غير عادية لعادات تفكيرنا، والتي صيغت لخدمة العمل وليس لخدمة التفكير «المحض». وبهذا المعنى، فإنها تُظهر نقصًا مزمنًا تقريبًا في استخدام مهاراتنا أو معرفتنا أو كفاءتنا. نحن نتجاهل تحيزاتنا في تلك اللحظة، حتى لو كنا نعرفها، والأهم من ذلك أننا نتعرّف عليها بعد وقوعها. بالنسبة إلى أولئك الذين درسوها، فإنهم يُظهرون فشل الشك، ولكن ليس عدم القدرة على الشك.

الحماقة والحكم التنبؤي

لنأخذ مثال الأحكام التنبؤية. أهميتها واضحة. ومن دونها سيكون وجودنا صعبًا للغاية، إن لم يكن مستحيلًا. ومع ذلك، فعلى الرغم من ذلك أو بسببه، فإننا غالبًا ما نصوغها من خلال تجاهل المعلومات المهمة لصالح تلك التي تعتبر أقل أهمية من الناحية النظرية. وعلى رأس ذلك، فإننا نتجاهل جهلنا؛ أي أننا نخدع أنفسنا للاعتقاد بأننا على حق. للوهلة الأولى، نحن لسنا بعيدين جدًا عن الحماقة.

وهذه هي المهمة التي سُميت مهمة «المحامين والمهندسين». تخيل أن يُقال لك إن علماء النفس أجروا مقابلات مع ٧٠ مهندسًا و ٣٠ محاميًا. ثم كتبوا أوراقًا تلخّص كل مقابلة من هذه المقابلات المائة. نسحب عشوائيًا إحدى هذه البطاقات حيث نقرأ:

«چان رجل في التاسعة والثلاثين من عمره. وهو متزوج ولديه طفلان. يشارك بنشاط في السياسة المحلية. هوايته المفضلة جمع الكتب النادرة. إنه يحب المنافسة والمناقشة ويعبر عن نفسه بشكل جيد للغاية».

تقدّر الغالبية العظمى من الناس أن هناك احتمالًا بنسبة ٩٠٪ أن يكون چان محاميًا وليس مهندسًا. لكن الإجابة الصحيحة هي ٣٠٪. لماذا؟ لتقدير احتمال أن يكون چان محاميًا، نحتاج إلى نوعين من المعلومات: أحدهما يتعلق بالاحتمال السابق للمحامين في العينة، والآخر يتعلق باحتمال أن تكون الخصائص المذكورة في الملف هي خصائص المحامي. لقد زدنا بالمعلومة الأولى: هناك ٣٠ محاميًا في عينة مكونة من ١٠٠ شخص تمت مقابلتهم، وبالتالي فإن احتمال أن يكون چان محاميًا يساوي ٣٠٪. لم تتوفر لنا المعلومة الثانية. ومن الناحية النظرية، أمام هذا المجهول، يمكننا أن نتخذ أحد الموقفين التاليين، فنقول:

- (١) إنه نظرًا لعدم تقديم هذه المعلومات، فهي غير ذات صلة؛
- (٢) إنها «ثابتة»؛ أي أن احتمال أن تكون الخصائص المذكورة في الملف خصائص المحامي هو نفس احتمال أن تكون خصائص المهندس؛ ومعرفة أو عدم معرفة هذا الاحتمال لا تغيّر شيئًا.

من الواضح أن قلة قليلة من الناس يفعلون ذلك. ولسبب وجيه، لدى جان كل ما يتعلق بالمحامي؛ المهندس، يمكن للمرء أن يقول شيئاً آخر! هذه القناعة تجعل «المجهول» يبدو «معروفاً» تمامًا. صحيح أن عاموس تفرسكي ودانيال كانيمان كتبوا وصف جان عمدًا لتعزيز الانطباع بأنه محام. يشير النص إلى صورة نمطية متكررة للفئة المهنية للمحامين. ومع ذلك، يمكننا أن نتساءل عن السهولة التي يقع بها معظمنا في هذا الفخ وتفضيل المعلومات الواردة في الوصف، وهو ما يسمى «فردياً» على حساب المعلومات حول الاحتمال السابق. على الأرجح، ومن دون الخوض في التفاصيل، يبدو من الواضح تمامًا أن إيماننا بصحة الصورة النمطية لدينا عن المحامي له علاقة كبيرة بهذا الأمر. إذا قارنا، من دون التشكيك في ذلك، محتوى الصورة النمطية بخصائص جان، فإننا نرى على الفور أنه يتمتع بالخصائص «النمذجية» للمحامين، وأنه بالفعل «ممثل» لهذه الفئة («الطيور على أشكالها تقع»). وبالتالي، يصبح من المؤكد تقريباً أنه محام وليس مهندساً، حتى لو كان المحامون أقلية في العينة التي شملتها الدراسة. من الناحية الفنية، سنقول إن استخدام مبادئ الكشف التمثيلاني هو أصل التحيز الذي يؤدي، هنا، إلى إهمال المعلومات حول الاحتمال القبلي وتفضيل المعلومات الفردية (الوصف). مثل مبادئ الكشف الأخرى، فإن مبادئ الكشف التمثيلاني هي اختصار عقلي اقتصادي. فهي تسمح لنا بصياغة تقدير، وهو بالتأكيد خاطئ من الناحية النظرية، ولكنه مقبول لأنه مشترك بين عدد كبير من الناس. إن استخدام مبادئ الكشف هذه، التي ننفذها من

دون أن نعرفها، يجعل من الممكن تبسيط المشكلات التي يتعين حلها وإزالة عدم اليقين الذي يميزها. ومع ذلك، كما رأينا للتو، فإن الحصول على هذا المكسب مُكَلَّف!

الحماقة والاستدلال الافتراضي الاستنباطي

هل هذا المثال للحكم التنبؤي المتحيّز يوضح الحماقة بمعنى مظهر من مظاهر الاكتفاء الفكري؟ لا أعتقد ذلك، على الرغم من أنني مقتنعة بأنه أحد المظاهر العديدة لخلل الشك الذي يدفعنا إلى البحث عن تأكيد أفكارنا بدلاً من نقضها. لفهم هذا الاتجاه بشكل أفضل، دعونا نلقِ نظرة على مهمة بيتر واسون «٦ - ٤ - ٢». يبدو الأمر مبتذلاً للغاية، وعلى نحو خاص، يبدو سهلاً للغاية، حتى اللحظة التي يدلل لك فيها على أنك مخطئ تمامًا! وهو يوضح ميلاً آخر معروفاً، ويتلخّص في القول المأثور: «لماذا تجعل الأمر بسيطاً عندما يمكنك جعله معقداً؟».

تخيّل أنّه يطلب منك العثور على القاعدة المختارة لبناء سلسلة الأرقام التالية: «٦ - ٤ - ٢»، للتأكد من أن القاعدة التي تفكرّ فيها هي القاعدة الصحيحة، يمكنك اقتراح سلسلة أخرى من ثلاثة أرقام. في كل مرة، سيتم إخبارك بما إذا كان اقتراحك متوافقاً مع القاعدة أم لا، وما إذا كانت القاعدة التي فكرت فيها هي بالفعل القاعدة التي اخترناها. على الأرجح، مثل الغالبية العظمى من الناس، الفكرة الأولى التي ستختبرها تتعلق بسلسلة من «الأعداد الزوجية التي تتصاعد بمقدار اثنين». ولذلك فإنك تقترح سلسلة من الأرقام «٨ - ١٠ - ١٢» تتوافق تمامًا مع فكرتك. ونقول لك إن السلسلة المقترحة متوافقة مع تلك التي اخترناها، ولكنها

ليست القاعدة التي فكرت فيها. ثم تقترح ثلاثة أرقام أخرى، على سبيل المثال «٥٦ - ٤٢ - ٨» لتخبر نفسك بأنها قاعدة «تصاعد الأعداد الزوجية». وسوف نرد عليك بنفس الطريقة السابقة. بعد المحاولة الثالثة أو الرابعة مثلاً تقترح سلسلة «٦٧٣ - ٣٦ - ٧» معتقداً أنها «أعداد متصاعدة». وهناك، نخبرك بأن المثال الخاص بك متوافق مع القاعدة، وأن القاعدة المختارة هي بالفعل تلك التي فكرت فيها.

وأخيراً، لقد وجدت ذلك أخيراً! لكنك لم تختَر الطريقة الأسرع. قليل من الناس يختارونها. وهي تستند إلى السعي ليس لتأكيد فكرتك بل لدحضها. ولهذه الغاية، كان يكفي اقتراح سلسلة «٧ - ٥ - ٣» لاختبار فرضية «تصاعد الأعداد الزوجية». ومن الصعب جداً أن نجبر أنفسنا على نقض أفكارنا بدلاً من تأكيدها، في هذه المهمة بالذات. إن اقتراح مثال لسلسلة من الأعداد المخالفة للفكرة التي نفكر فيها يبدو سخيفاً، بل وملتبساً. ومع ذلك، فإن القيام بذلك يتطلب منا أن نضع فكرتنا موضع الشك. فإذا كان بوسعنا، منذ البداية، أن نشكك في أفكارنا، فسنكون أقل اقتناعاً بصحة الصورة النمطية لدينا عن المحامي، وسنتصور بسهولة أن المهندس قد يكون مهتماً أيضاً بالسياسة المحلية بالطبع، يعبر عن نفسه جيداً ويجمع الكتب...

على خلاف مهمة «المحامين والمهندسين»، تحتوي المهمة «٦ - ٤ - ٢» على معلومات قليلة. ونتيجة لذلك، يدفعنا ذلك إلى استخدامها جميعاً، سواء من حيث كونها أعداداً زوجية أو من حيث كونها متصاعدة. من السهل حفظ هذه الأرقام الثلاثة، وتبقى مثل بصمات لا تمحى في

رؤوسنا، حاضرة، ومتاحة في أي وقت. إن توفّر مبدأ الكشف يجعل هذه المعلومات الصغيرة تتفوّق على الباقي، وتدفعنا إلى الوقوع في فخ التأكيد. إذا كان هذان المثالان يوضحان ميلنا إلى السعي للحصول على تأكيد لأفكارنا، فإن المهمة «٦ - ٤ - ٢» تكشف أيضًا ميلنا إلى صياغة فرضيات محدّدة وليست عامة. غالبًا ما تبدو هذه الأمور بسيطة و/ أو واضحة جدًا بالنسبة إلينا بحيث لا يمكن الاحتفاظ بها. إن القول على الفور بأن هذه أعداد متصاعدة، حتى لو كنا نعتقد ذلك، يبدو غيبًا، ناهيك عن أنه «أحمق بعض الشيء». وهذا الميل يجعلنا فريسةً ممتازة للنكات. مثلًا:

لماذا يرتدي ضباط الشرطة حمالات البناتيل زرقاء وبيضاء وحمراء؟ وبعد مناقشة الارتباط مع الخدمة الوطنية، علمنا أنهم يرتدون الحمالات لرفع بناتيلهم؛ نجد هذه النكتة مجرد حماقة كبيرة... أو نفجر من الضحك عندما نرى أنفسنا واقعين في «فخ الحمقى»!

«الحماقة»: مصطلح صحي

وأنا أتفق مع هؤلاء وأولئك الذين يقولون إن الجهل ليس حماقة. الجهل محرك قوي للمعرفة، بشرط أن نعرف أننا نجعل وأن نعرف ما نجعله. معظم التحيزات في معالجة المعلومات أو الميول في طريقة تفكيرنا نتجاهلها بأنفسنا. المشكلة، وهي مشكلة كبيرة، هي أنه، حتى عندما يُكشف عنها ويبرهن عليها، تستمر في أداء وظيفتها. وهذا أفضل في الظروف التي لا تجبّد الشك. لكن الحماقة، الحقيقية، هي هذا الرضا الفكري المخيف الذي لا يترك مجالًا للشك على الإطلاق. وكما يشير

هاري فرانكفورت في كتابه «فن قول حماقات» De l'art de dire des conneries، الذي كان عنوانه الأصلي «عن الهراء» On bullshit، فإن الأمر أسوأ من الكذب، لأن الشخص الذي يقول حماقات لا يهتم بالحقيقة. لمحاربة الحماقة، يجب أن نهتم بالتنديد، ومن ثم تسميتها. لذا، لا حرج في استخدام مصطلح «حماقة» في وصف نفسك. وإذا كانت تعكس الخجل الذي يعترف بعدم القدرة على التفكير، فهو دليل على الوعي وبالتالي على بدايات التنظيم الذاتي. كما أنه لا ضرر من استخدام ذلك تجاه الآخرين. إن إطلاق المرء هذا المصطلح بنبرة مُزحة واستفزاز ساخر، هو بمثابة تحذير، ونوع من الدعوة القوية لإدراك الخطأ، حتى يتمكن من ضبط نفسه.

بعض التعليقات حول الحماقة

كتب إيفان إدوارد في الفقرة الأولى من كتاب «لم تعد الحماقة كما كانت»^(١) La connerie n'est plus ce qu'elle était، أن «تعريف الحماقة هو، بحكم تعريفها، مجرد حماقة أخرى».

أليس من الصعب تجاهل هذا التحذير، إلا إذا أخذت رسالته المفتوحة إلى الحمقى^(٢) بالمعنى الحرفي؟ والتي بدأت بالمقطع الشهير: «أنا أعرف ما أتحدث عنه. أنا أحد هؤلاء».

إن تعريف الحماقة يعني منحها مكانةً، وأساساً، ما من شأنه أن

Albin Michel, 1974. (١)

Plon, 1993. (٢)

يعيّن لها أصلاً ووظيفة. ومع ذلك، كما كتب جورج بيكار في بحثه «عن الحماقة»^(١): «أرى أنها قبل كل شيء تتكاثر وتفيض، بل إنها حتمية وليست وظيفية»، ومع ذلك، فللبحث عن تعريف الحماقة سواء أكان حماقة أم لا، عليك أن تعرف ما الذي تتحدّث^(٢) عنه.

لنبداً مع أصل الكلمة. تأتي كلمة أحقق «con» من اللفظة اللاتينية cunnus، «غمد/ غلاف، جراب»، وبالقياس، عضو المرأة وأصل العالم. ومع ذلك، نجد أيضاً أصلاً آخر للكلمة «COÏONNERIE» خسة» مذكور في قاموس الأكاديمية الفرنسية (طبعة ١٨٣٢ - ٣٥)، والتي تعني «خسة/ ندالة/ ابن حرام couillonnerie»، مأخوذة من «COÏON» ذليل/ جبان («coquille») ومن اللفظة اللاتينية coleus، حقيبة جلدية/ جراب (انظر ٢٠٠٦ Le Garde- mots).

سواء كان أصلها يشير إلى العضو الأنثوي أو إلى العضو الذكري، مع مرور الوقت، مصطلح «con» أحقق/ مهبل، وبالتالي، مصطلح connerie، انتقل إلى سجل اللغة المبتذلة. إضافة إلى ذلك، فإن معجم الأكاديمية الفرنسية (١٩٨٦) الذي يفسر مصطلح «connerie» في إشارة إلى الغباء والحماقة والخطأ الجسيم، يحدّد أنه يجب استخدامه فقط بهدف الابتذال الشديد.

(١). José Corti, 2004.

(٢). De Pave de dive des commevies, 1, Frankf, Bditions 10/18, 2006 ; 2° &d.,

Mazarine, 2017.

يشير الويكاموس في عام ٢٠١٨ إلى ثلاثة معانٍ: (١) «فعل الأحمق، حال الأحمق». (٢) «خطأ، فعل غبي». (٣) «شيء بلا أهمية، أمر بسيط». ويحدّد الأول في سجل اللغة السوقية والآخرين في سجل اللغة الشعبية. ومع أن مصطلح «حماقة» يحمل دلالة سوقية للغاية، فإنه يصبح أقل ملاحظة مع ذبوعه. ولكن اختياره، سواء فيما يتعلق بكلماته أو أفعاله أو كلمات الآخرين وأفعالهم، أبعد ما يكون عن الحياد.

أما في معناه الأساسي فإن أغلب القواميس تشير إلى العته imbécillité والبلاهة l'idiotie والغباء stupidité عباطة/ خفة العقل sottise، الغباوة bétise أو حتى عدم الكفاءة؛ أي ما يتعلّق بأي كلمة أو فعل خالٍ من الذكاء! الإشارة إلى الخطأ (راجع الخطأ الفادح) أندر من الإشارة إلى الغباء أو خفة العقل أو الغباوة. وقد كان هذا الأخير أيضًا موضوعًا لأفكار عديدة ألقت الضوء على معنى مصطلح «حماقة».

وفي التعريفات الجارية، فإن الشخص الذي يكون «bête» حيوانًا/ ثقيل الفهم (مثل «البهائم»، الحيوانات)، بسبب قلة الذكاء، هو شخصٌ محروم من ملكة إصدار الحكم. ومن ثم، فإن تصنيف فعل أو كلمة على أنها غباوة، من دون أن تكون في سجل السوقية، يبدو مليئًا بالمعنى. وإضافة إلى ذلك، للتخفيف من حدته، فإننا نستدعي الجهل، وأكثر من ذلك على وجه التحديد، الجهل بجهلنا. الجهل هو غياب المعرفة (عن ماهية المعرفة وعن الذات). إذا كان الجهل فراغًا، وهو غياب يمكن ملؤه خاصةً من خلال التعليم، فإن الحماقة نقيضه: إنها اكتفاء فكري

حيث لا يوجد ما يملأه لأنه بالفعل مترع. وقد ذكر جاك لاكان^(١) هذا في عام ١٩٧٥: «كما أن هناك الكثير، العدد الأكبر، الذين لم يحضروا ندواتي الأولى، أود أن أسمح لنفسي أن أذكر أنني، في خطاباتي الأولى، أمام ما يجب أن أسميه جمهوريًا، نبهت إلى أن التحليل النفسي هو علاج الجهل. وليس له تأثير على حماقة».

إيفا دروزدا سينكوفسكا

Lettre de Ecole Freudienne n° 15, J. Lacan, Bulletin intérieur de Ecole (١)
Freudienne de Paris, 1975.

التفكير ذو سرعتين

لقاء مع دانييل كانيمان

الأستاذ الفخري لعلم النفس في جامعة برينستون - جائزة نوبل في الاقتصاد

- وفقاً لك، لدينا طريقتان لمعالجة المعلومات: نظام سريع تطلق عليه النظام ١، ونظام بطيء، النظام ٢. ما خصائصهما؟

- النظامان مكملان لبعضهما. عندما نسأل ما عاصمة إنجلترا، تتبادر كلمة إلى أذهاننا تلقائياً، من دون جهد أو قصد، وذلك بفضل النظام ١. إنه ينتج تفسيرات للعالم، الرغبات والانطباعات التي تصبح معتقدات، قرارات يعتمد عليها النظام ٢. وهو الأكثر تعقيداً، فهو يتحكم في التفكير والسلوك. على عكس النظام ١، لا يتمتع النظام ٢ بإمكانية الوصول المباشر والتلقائي إلى الذاكرة. إنه بطيء جداً. وإذا كان بطيئاً، فهذا لأنه بشكل عام، يتبع سلسلة مدروسة من الأفكار، على سبيل المثال، احترام قواعد إجراء عمليات ضرب المعقدة. إنه يتطلب جهداً، ويعطي الانطباع بأننا صنّاع أفعالنا: «أنا من يتصرف، وأنا من يفكر...»، نحن ننمأه ذاتياً مع النظام ٢. نعتقد أن معتقداتنا تحددها الحجاج والبراهين، حتى لو كانت حياتنا العقلية شيئاً آخر.

- هل يمكننا القول إن النظام ١ يبسط الواقع من أجل تبسيط وجودنا؟

- لا أعرف إذا كان الأمر «من أجل» تبسيط وجودنا، لكنه بالتأكيد يبسط الواقع، حتى لو كان ذلك يعني إنتاج تحيزات إدراكية. ومع ذلك، يمكن أن يخطئ النظام ٢. أيضًا: إذا كنت أو من ببعض الأشياء الخاطئة، أو إذا كنت غير قادر على فهم النظرية النسبية، فذلك بسبب فشل النظام ٢. النظام ١ كما أفهمه هو في الواقع نظام العواطف، لأنها تنتج تلقائيًا، من دون قصد، وهي مسألة ذاتية بحتة. يقبلها النظام ٢ أو لا. لكن فلتنتبهوا، إذا كان النظام ١ هو العاطفة، فهو أيضًا أكثر من ذلك بكثير: هو يرتبط بتفسير الحياة، والإدراك، ومعظم تصرفاتنا. والنظام ٢ يفعل أكثر بكثير من التفكير، لأنه يضمن وظيفة التحكم، التي لا تقل أهمية.

- تحت أي ظروف يكون النظام ٢ ملزمًا بالهيمنة على النظام ١؟

- عندما نجد أنفسنا من دون حلٍّ ونحن نواجه مشكلةً ما، أو في صراع بين اتجاهين متناقضين، أو حتى في انتهاك قواعد المنطق أو السلوك، أو حتى حالة مفاجئة. حينئذ نركّز، ونتج جهدًا عقليًا معينًا. لكن لا يوجد شيء مفاجئ؛ إنه حركة ذهاب وإياب مستمرة، وذلك بفضل مناطق معينة في الدماغ متخصصة في الصراع.

- تحديدًا، ما مناطق الدماغ التي تشارك في كلا النظامين؟

- أعتقد أن النظام ٢ لا يتوافق مع مكان محدد، حتى لو كان يجب أن يستتبع الفص الجبهي للدماغ على وجه الخصوص. لا أريد أن أبدأ باستدعاء أشياء لا أعرف عنها سوى قليل جدًا.

- أنت الآن تستخدم النظام ٢ للإجابة عن أسئلتي بدقة ، ولكن تستخدم أيضاً النظام ١ ، لأن ردودك يمكن أن تنطلق بسرعة كبيرة في هذا المجال المألوف لك .

- يُنتِج النظام ١ الإجابات بسرعة ، لكن النظام ٢ يتحقق منها . في الوقت الحالي ، يعمل جاهداً لمراقبة لغتي الفرنسية !

- لكي نفهم بشكل أفضل ، كيف ستكون حياتنا اليومية إذا عشنا فقط مع النظام ١ أو النظام ٢ ؟

- إذا عشنا فقط مع النظام ١ ، فسنكون أكثر اندفاعاً ، وسنقول كل ما يتبادر إلى أذهاننا ، مثل الأطفال . فُكّر في حالة السُكّر ، على سبيل المثال ، حيث أضعف النظام ٢ بالفعل . ومع ذلك ، لن تتأثر الحياة الاجتماعية : تتمتع الحيوانات أحياناً بحياة اجتماعية متقدمة جداً ، ولا أعتقد أن لديها النظام ٢ . ومن ناحية أخرى ، إذا عشنا فقط مع النظام ٢ ، فستبدو حياتنا اليومية كأنها لا شيء على الإطلاق ! سنكون أجهزة كمبيوتر أقل شأناً .

- عندما نحلم ، هل نحن في النظام ١ تماماً ؟

- بصراحة لا أعرف . أنا لا أفهم الحلم . وبطبيعة الحال ، بمعنى ما ، نحن في النظام ١ ، لأننا نحلم بلا قصد . ولكن من ناحية أخرى ، يمكننا أن نحلم بأننا نفكر !

- والإلهام الفني أم الحدس ؟

- ينبثق هذا من النظام ١ ، لكنه يتغذى بالنيّات . النظام ٢ قادر تماماً على الانخراط بشكل مقصود في عمليات البحث في الذاكرة ، والتي

تنتج أحياناً الإلهام والحدس بشكل مستقل، عندما لا نبحث عنهما،
مثلاً حل عالم الرياضيات هنري بوانكاريه فجأة مشكلةً ما، وهو يصعد
من سلمة إلى أخرى ليستقل الحافلة.

- تقول إن النظام ١ يبحث دائماً عن معنى ما نعيشه : هل ننفرُ من المصادفة؟

- نعم، بسبب عدم اليقين، على أي حال. لنكن منصفين، نحن لا
نعترف حقاً بالمصادفة. وفي عملية مستمرة لخلق القصص، وتفسير ما
يحيط بنا، وهو إلى حد كبير عمل النظام ١. في بعض الأحيان، يجعل
النظام ٢ ذلك التفسير واعياً ويتبناه.

- هل تنتج بعض الأمراض النفسية عن عدم التوازن بين النظامين، عندما نستخدم
النظام ١ أو النظام ٢ أكثر من اللازم؟

- طبعاً. عندما نتقد أنفسنا بشكل مزمن، إلى درجة نجد أنفسنا
مشلولين، فإننا نكون في النظام ٢، الذي لا يستطيع التحكم في النظام
١. ويمكن أن يكون لهذا الأخير أيضاً أمراضه، مثل الوسواس. فهو
يضم كل ما هو سريع جداً لأننا فعلنا ذلك كثيراً. هو ما يجعلنا نقود
سيارة، وهو ما يختار كلماتنا عندما نفكر، ومن ثم هو ما يحدد الرؤية
التي نكوّنها عن أنفسنا، والتي هي جزء لا يتجزأ من الذاكرة، من القصة
التي نرويها لبعضنا. ليس النظام ٢ هو ما يفرض ذلك.

- ما تقنيات العلاج النفسي التي يمكن أن تعمل على النظام ١ والنظام ٢؟

- لديّ انطباعٌ بأن العلاج الإدراكي موجه بالكامل نحو إعادة تأهيل

النظام ١، من خلال التحكم في سلوكيات معينة للنظام ٢. لكنني لا أعرف ما يكفي لإعطائك تفاصيل دقيقة.

- لقد أظهر عملك حول مبادئ الكشف أن تمثيلنا عن الإنسان الاقتصادي هي إلى حد كبير خاطئة. لكن الديمقراطية نفسها تقوم على فكرة أن المواطن يزن بعقلانية الإيجابيات والسلبيات قبل أن يحدد صوته. هل هو النظام ١ أم النظام ٢ ما يكمن وراء قناعتنا السياسية حقاً؟

- إنه بشكل خاص النظام ١. فالحجج لا تحدّد معتقداتنا السياسية. نحن نعتقد فيها لأننا نؤمن بأشخاص معينين نحبههم ونثق بهم. إنها العاطفة التي تتحكم إلى حد كبير في الحياة السياسية. لكنني لست متأكداً من أن خيال الإنسان العقلاني أمر أساسي تماماً للديمقراطية. فنحن لا نحتاج إلى العقلانية الكاملة حتى تنجح الديمقراطية: يكفي أن يصوّت الناس لصالح ما يخدم مصالحهم عموماً ومن دون ضمانات. إن ما تواجهه الديمقراطيات من صعوبة هو التعامل مع المخاطر المجردة والبعيدة. وإذا تغير المناخ بالفعل، فسيكون من الصعب للغاية حل هذه المشكلة من خلال الديمقراطية. لا يستجيب النظام ١ للتهديدات عن بُعد. لا يمكننا تعبئة العمل العام من دون كثير من المشاعر، ولا يمكننا إثارة المشاعر عندما لا تكون التهديدات ملموسة. وعلمنا أن نجد طريقة للتوجّه بالأحرى إلى النظام ٢، فهو وحده القادر على اكتشاف تهديد رهيب، ونقطة لا رجعة فيها، حتى لو لم نتمكن في الوقت الحالي من التمييز كثيراً.

- في كتابك النظام ١ / النظام ٢: سرعتنا الفكر، لقد ذكرت الدفعة^(١)، والأبوية التحررية، التي تهدف إلى مساعدة الناس على اتخاذ القرارات الصحيحة. فهل هذا حل ناجع وكاف للحصول على نفس النتائج كما لو حشدنا نظامنا ٢؟

- إنه أمر ناجع ومهم حيث يمكن تطبيقه لحماية الناس من أنفسهم، ومن الأشياء الغبية التي يقومون بها، وكل هذا من دون الانتقاص من حريتهم. ولكن بالنسبة إلى مشكلات عديدة، فإن هذا لن يكون كافياً. إذا كان تغير المناخ حقيقياً، فإننا لا نرى كيف يمكن للدفع أن تؤدي إلى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الضرورية. إنه يستهدف بشكل أساسي النظام ١: الفكرة هي لتسهيل اتخاذ أفضل القرارات للفرد، من دون إجبار، نظراً لأن النظام ١ غير مهتم بالمستقبل البعيد. لا ينبغي التعويل كثيراً على عقلانية الناس. عندما يتعين اتخاذ قرار التقاعد في عمر ٢٥ عاماً، فلن يكون لديك انطباع بأن ذلك سيحدث لك شخصياً.

- لقد حصلت على جائزة نوبل في الاقتصاد كطبيب نفسي. هل تؤيد إنشاء جائزة نوبل في علم النفس للمساعدة في الحصول على الاعتراف بهذا التخصص؟

- لا، ليس حقاً. يبدو لي أن علماء النفس لكي يمارسوا نفوذهم على المستويين السياسي والاجتماعي، يجب عليهم التأثير في الاقتصاديين قبل كل شيء، وهذه هي الحال بالفعل. على سبيل المثال، أخذت لجنة

(١) يشير المصطلح إلى تحسين القرارات المتعلقة بالصحة والثروة والسعادة، ولم يُقدّم تعريف محدد لهذه النظرية ولكن بصفة عامة تعرف بأنها التدخل في أي وجه من أوجه الاختيار الذي يغير سلوك الأشخاص بطريقة يمكن التنبؤ بها من دون حظر أي خيارات أو تغيير الحوافز الاقتصادية بشكل كبير. ووصفت كلمة Nudge في قاموس التراث الأمريكي بأنها دفعة لطيفة ويقصد بها منح تغيير السلوك.

ساركوزي المعنية بالسعادة، أو حتى الدفعة، في الاعتبار عوامل نفسية للتغلب على بعض القيود التي يفرضها الاقتصاد. ومن ثم، لديّ انطباع بأن جائزة نوبل لا تضيف شيئاً ذا بال إلى سعادة الإنسان. إن معاناة المنتظرين عبثاً أعظم من فرح المنتصرين.

- ما أهم الأهداف التي ينبغي أن يضعها علم النفس لنفسه اليوم؟

- لا أعتقد أننا يجب أن نضع أهدافاً للعلوم. سيكون هذا تمريناً عقيمًا، لأننا لا نملك أي فكرة عما سيحدث. كل ما يمكننا قوله هو أنه خلال العشرين عامًا القادمة على الأقل، ستهيمن دراسة الدماغ على علم النفس، خاصة وأن هذا هو ما يهم طلاب اليوم بشكل أساسي، وبالتالي يهم معلمي الغد.

ليست هناك حاجة إلى اتخاذ قرار، إنها حقيقة. هذا البحث مكلف للغاية، ويستقطب أغلبية الميزانيات المتاحة، الأمر الذي لا يرضي جميع زملائي علماء النفس، الذين يشتكي بعضهم بمرارة. ومع ذلك فإن هذا هو الشيء الأكثر إثارة الذي يحدث في علم النفس. تسترشد التغييرات في الموضة عمومًا بالتكنولوجيا، فنحن لا نزال لا نعرف إلى أين سيأخذنا تصوير الدماغ فحسب، بل إننا نعرف قليلاً عما ستكون عليه تكنولوجيا المستقبل. في حين أنها هي التي ستوجه علم النفس. لا شك في هذا.

أجرى الحوار جان فرانسوا مارميون

الدفعة أو الوكزة

بالفرنسية الجيدة: «وكزة مرفق». من الأفضل أن أقول «دفعة». الدفعة، المعروفة أيضًا باسم الأبوية التحررية، رُوِّج لها ريتشارد ثالر، أستاذ الاقتصاد في شيكاغو والحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد لعام ٢٠١٧، كما رُوِّج لها كاس سنشتاين، أستاذ القانون في جامعة هارفارد والمساعد السابق لباراك أوباما كمدير لمكتب المعلومات والشؤون التنظيمية. ويهدف هذا النهج إلى تهيئة البيئة لتشجيع المواطنين على تبني السلوك المرغوب فيه بعفوية، مع ترك حرية الرفض لهم. أمثلة: نؤيد اشتراك الموظفين تلقائيًا في خطة مدخرات التقاعد (يمكنهم الإلغاء، ولكن القليل منهم يفعلون ذلك)، ونعد آلات التصوير سابقًا بحيث يطبعون على الوجهين (يمكننا تغيير الإعداد، لكننا لا نفعل ذلك)، ونلوّن الدرج أبيض وأسود حتى يصعد الناس أسرع (قد يجرون أقدامهم، لكنهم في الحقيقة يسرعون).

چان فرانسوا مارميون

كانيمان وتفيرسكي، مثل مونتاني ولا بويسي

وليس من قبيل المصادفة أن يهدي دانييل كانيمان كتاب «النظام ١ / النظام ٢»، الذي يلخّص كل أعماله، إلى عاموس تفيرسكي. من المقدمة وطوال العمل بأكمله، يشيد الأول بالثاني باستمرار. وفي «يوم

سعيد من عام ١٩٦٩» التقى الشخصان اللذان لا ينفصلان. دانييل كانيمان، ٣٥ عامًا، أستاذ علم النفس في الجامعة العبرية في القدس، يدعو زميله الذي يصغره بثلاث سنوات، للتحدث في ندوة. كتب دانييل كانيمان: «لقد كان لامعًا، وفصيحًا، وذا شخصية جذابة. يتمتع بذاكرة مذهلة للنكات، وقدرة استثنائية على استدعائها لدعم الأطروحة. لم تكن هناك لحظة مملة معه». لاحظ كلاهما أنه على الرغم من تعاملهما اليومي مع الإحصائيات، فقد أثبتا عدم قدرتهما على التنبؤ بكثير من نتائج تجاربهما. وهنا يوثقان مع إحصائيين ذوي خبرة، ويجدان أخطاء متطابقة بينهما.

ما يقرب من ثلاثين عامًا من العمل المشترك بشأن الحكم ومن ثم عملية اتخاذ القرار، وهو ما يتجاوز بكثير مجال علم النفس الوحيد. يغادر كلاهما للتدريس في الولايات المتحدة عام ١٩٧٨ في جامعات مختلفة. من بين النقاط البارزة في تعاونهما، لنستشهد بمقالة مدوية نُشرت في مجلة العلوم Science في عام ١٩٧٤ لتقديم مبادئ الكشف ونظرية الاحتمالات، المقترحة في عام ١٩٧٩ لشرح إلى أي مدى تغذي الجهات الاقتصادية الفاعلة «نفورًا حقيقيًا من الخسارة»؛ ما يؤدي إلى تحييز معاملاتهما. وفي عام ١٩٨٠، استلهم عالم الاقتصاد ريتشارد ثالر أعمالهما لإرساء أسس الاقتصاد السلوكي، والدعوة إلى دراسة البشر، المعرّضين للخطأ في قراراتهم، وليس من أسماهم بعض الاقتصاديين، عملاء غير واقعيين، في عام ٢٠٠٨، في كتاب الدفعة Nudge، وهو كتابه الأكثر مبيعًا الذي شارك في كتابته مع كاس سنشتاين. حصل

دانييل كانيمان على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠٢ من أجل أعماله، وهي مكافأة كان سيتقاسمها مع عاموس تفيرسكي، لو لم يمت الأخير عام ١٩٩٦. «حتى أدى الانفصال الجغرافي إلى تعقيد حياتنا، أتاحت لي أنا وعاموس فرصة رائعة للعمل معًا، يكتب دانييل كانيمان مرة أخرى، ويتفوق تفكيرنا المشترك على أي شيء كان بإمكاننا إنتاجه بشكل فردي، وجعل العمل ليس مثمرًا فحسب، بل ممتعًا أيضًا».

چان فرانسوا مارميون

عن الحمافة في الدماغ

بيير لوماركي

طبيب أعصاب وكاتب مقالات

عندما سألني جان فرانسوا مارميون عما إذا كنت مهتمًا بكتابة مقال عن مكان الحمافة في الدماغ، فلأعترف، إنني كنت متحمسًا للغاية. لقد قبلت على الفور، من دون أن أعرف السبب. طبعًا في البداية فهمتُ بشكل خاطئ واعتقدت أنه يجب أن نتحدَّث عن أفلام جيمس بوند الأولى وفيلم «اسم الورد». بالتأكيد، عندما فهمت أهمية الموضوع بشكل أفضل، وحيث كان الوعد بأتعاب باهظة وشرف الظهور مع ناشر مرموق، لذا، فإن ثمة تحديًا يجب أن أتقبَّله، شعاري هو شعار مارك توين: «لم يعلموا أن الأمر مستحيل، لذلك أنجزوه»، وجدت نفسي فجأة في مواجهة فيلم لصوص أغبياء tontons flingueurs لأوديار: «الحمقى يجرؤون على كل شيء! ولهذا السبب نتعرَّف عليهم». سرعان ما شعرت بخيبة أمل لأنه لا يوجد مختبر أبحاث في علم الأعصاب يستحق هذا الاسم ويبدو أنه يعالج هذه الظاهرة، التي

تُعد رغم ذلك حاسمة وفي قلب وجودنا اليومي. كان علينا أن نبتكر. بادئ ذي بدء، لاحظت أن حماسي الأولي كان تواصلًا للغاية، وهو ما شكّل مؤثرًا أخلاقيًا حاسمًا في بحثي عن الحقيقة! بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن توفر بعض الذكريات عن علم الأعصاب والقراءة السليمة الأساس. أخيرًا، النسخة طبق الأصل من لوحة كوربيه الشهيرة، وهي تكشف عن جذع امرأة عارية، وتعرض بشكل سلبي عضوها الأنثوي، متاعها، والتي تسمى، وأنت تعرف ذلك، أصل العالم، هي صورة لا تطاق، حتى إن لا كان، الذي كانت لديه النسخة الأصلية لها في حمّامه، غطاها بغطاء سريالي زلق. أعلن المحلل النفسي باقتضاب وهو يكشف عن العمل لضيوفه المرموقين، من ليفي شتراوس إلى بيكاسو مرورًا بمارجريت دورا، ملاحظًا افتتاحهم خلصة: «والآن سأعرض لكم شيئًا غير عادي».

نحن جميعًا أطفال مبتسرون تمامًا بسبب تشريح الحوض الأنثوي، ويجب أن نبقى دافئين لمدة ١٥ شهرًا إضافيًا على الأقل قبل أن نلتقى في العالم. وهذا يعرّضنا لضغوط مبكرة يمكن أن تؤثر علينا مدى الحياة، حتى لو نسيناها.

لقد تطور دماغنا أيضًا بسرعة كبيرة جدًا، ويعاني حروبًا داخلية عديدة وغيرها من تضارب المصالح، وهو ما يفسر الصعوبات المتكررة التي نواجهها في اتخاذ القرار... في أغلب الأحيان يكون القرار الخطأ!

حرب الشمال / الجنوب

من الناحية النظرية، الطريقة التي يعمل بها دماغنا بسيطة. إنها تشبه لوحة تيتيان حول رمزية الحكمة. نرى فيها ثلاثة رؤوس لكل منها مرحلة من العمر. يمثل الرسام الرجل العجوز، ويرافقه ابنه وحفيده المتبنّى بالنص التالي: «الحاضر، المطلّع على الماضي، يتصرّف بحكمة حتى لا يخجل من أفعاله في المستقبل». يتصرف دماغنا كآلة للتنبؤ بالمستقبل وهدفه هو إبقاؤنا على قيد الحياة من خلال التكيف مع الظروف، مما يدل على مرونته. يلتقط جزءه الخلفي المعلومات التي تقدّمها الحواس ويفك تشفيرها، ثم يواجهها بما خزّنه كذكريات ثم يقترح، بفصه الأمامي الرائع، أفضل موقف يمكن اتباعه. إن مقدمة سفيتنا العصبية هي التي تسمح لنا بالماضي قدمًا، وتضخّمها يميزنا عن الحيوانات وعن أسلافنا ذوي الجبهات المتراجعة، فهي توجّهنا نحو أفضل إجراء يجب مراعاته في العالم لضمان مستقبلنا، وذلك بفضل ما يسمّى الوظائف «التنفيذية».

إنه الجزء المخصّص من دماغنا لأبولو، الدماغ الجاف الأكثر عقلانية وحكمة ورزانة. لكن الحياة ستكون مملة للغاية إذا كان الفصّ الجبهي هو الذي يملّي سلوكنا دائمًا، ويمكن أن يحلّ الحاسوب قريبًا محل دماغنا المهيّب. ألم يخترع تورينج، عالم الحاسوب، الذي كان مهتمًا بالاحتمالات وكان يحلم -بالفعل- بإنشاء دماغ اصطناعي، وألم يختر لغة الحاسوب في طريقه؟ لكن ديونيسوس يراقب ويحتلّ مناطق

الدماغ القديمة والتحتية، دوائر اللذة والمكافأة، دماغ خصب وهرموني يجعلنا نريد أن نعيش، حصان جامح لا تتفق أهدافه دائماً مع أهداف الفارس الذي يحاول التحكّم فيه بسهولة: مات فئران ورجال بسبب التحفيز الذاتي المحموم لهذه الدوائر الاعتمادية التي من دونها ستكون الحياة خطأ. لن نذكر مثلاً أو نعلن عن سلسلة فنادق مشهورة، ولكن العديد من الأفراد الذين لا يشك أحد في قدراتهم الفكرية الاستثنائية قد استسلموا ذات يومٍ لنزواتهم؛ ما أدّى إلى تدمير حياتهم المهنية الواعدة في لحظة وجيزة من المتعة المسروقة، سواء الجنس أو المال، بتصرّفهم مثل الحمقى.

حرب الشرق والغرب

صراع آخر يدمّر القدرات الهزيلة لعقلنا، إنها ازدواجيته. وهو في الواقع مرتّهن بفصّي الدماغ، رغم أنهما متصلان: لكن هذا التواء المزيف لا يتفق بأي شكل. الأيسر يميني، محافظ، آلة حاسبة. إنه يحتكر الكلام، فهو يستكشف فقط نصف العالم، الأيمن بالطبع، وإذا تعطلت أناه الأخرى، الفص الأيمن، فإنه يكشف عن طبيعته الحقيقية، ويهمل ما يوجد في مجاله البصري الأيسر، ويصطدم بالأبواب، ويأكل فقط النصف الأيمن من الطعام الموجود في طبقه، لا يرسم إلا على النصف الأيمن من الورقة؛ ما يؤكد ضيق رؤيته. محروم من الأحلام والشعر، هذه النملة لا تفهم الاستعارات، وتسعى إلى عقلنة كل شيء، فهو يرى كوكبةً من النجوم، ويبحث عن التكرارات والرموز ونظام

مارتينجال^{(١)(*)} من خلال ظواهر عشوائية يريد أن يمنحها معنى لطمأننة نفسه، ويكون قادرًا على تفسيرها على أمل السيطرة عليها، وفرض هيمنته، والذهاب إلى حدّ التضحيات البشرية لإرضاء صانع الساعات العظيم. لكن جريمته الكبرى هي تقييد النصف الآخر باستمرار، أخيه غير الشقيق، اليميني، الثوري، الشاعر، الذي على اليسار، الدبور الذي يفهم كل الألحان، يربط الوجه بالكلمات المسموعة، ذلك الذي لديه رؤية شمولية للعالم ويقدرها بالكامل ولكنه لا يعرف كيفية وضع ميزانية أو تجميع كلمتين معًا. تاتشر ضد تشي جيفارا؟ ها هي حكومتنا مأهولة بالمتطرفين الذين من المفترض أن يكمل بعضهم بعضًا بشكل متناغم ولكنهم ممزقون بين بعضهم ويكافحون من أجل إعطائنا خطأ محددًا واضحًا لصنع القرار!

الحمقى سأمون وعلينا أن نحمي أنفسنا منهم

لذلك جميعنا حمقى محتملون. لكن بعضنا يتعرّض لخطر أكبر من البعض الآخر، فالفص الجبهي، الذي يراقب دماغنا من خلال محاولة قمع صراعاته، لا يعمل بكامل طاقته إلا منذ مرحلة البلوغ؛ ما يترك كثيرًا من الوقت للأصغر سنًا من بيننا للتعبير عن دوافعهم ونقاط ضعفهم، حتى إذا كان ذلك يعني الظهور كحمقى.

إن التصلّب الدماغي، الذي يهدّد بسرعة أيّ شخص خامل لا يلتزم

(١) (*) في نظرية الاحتمالات، فإن المارتينجال هي سلسلة من المتغيرات العشوائية التي يكون فيها التوقع الشرطي للقيمة التالية في التسلسل في وقت معين مساويًا للقيمة الحالية، بصرف النظر عن جميع القيم السابقة.

بحياة ثقافية أو اجتماعية نشطة، يهيئ المرء، إذا نجا من مرض ألزهايمر، ليصبح عجوزاً أحمق، حتى لو كان الخبير العظيم جورج براسانس يعتقد من جانبه أن «الزمن ليست له أهمية»^(١). من ناحية أخرى، فإن المستوى الفكري ليس تمييزاً، والحماسة منتشرة بين حائزي جائزة نوبل وغيرهم من أعضاء المعهد كما هي الحال في تعليقات رفيق طاولتك. في فيلم الرائع ميشيل هازانافيسيوس Le Redoutable الرهيب، نشهد تحول العبقرى ولفجانج أماديوس في دور جودار إلى ما يمكن اعتباره حماقة مدعاة ومُحكّمة. تدور أحداث المشهد في فيلا فخمة على شاطئ الريفيرا الفرنسية في مايو ١٩٦٨، وقد أسهم مخرج الموجه الجديدة، من خلال تحريضه، في إيقاف مهرجان كان قبل الأوان. المدافع عن الشعب، الثوري، يوبّخ رفيقته على سمرتها البرجوازية في الإجازة ويشرح لأصدقائه المذهولين مشروعه لسينما راقية بالكامل من دون سيناريو أو نجم أو حيلة. فيما يضيف أحد المقربين منه بمكر، «وبلا متفرجين»، يواجه العبقرى الفطرة السليمة لبستاني الفيلا (الذي لم يرحّب به) الذي يخبره بصراحة أنه يحب الذهاب إلى السينما يوم الأحد للاستمتاع والدهشة والترفيه.

في عمله اللامع الذي كتبه في أمسية واحدة تحت اسم مستعار، يشرح لنا الاقتصادي الإيطالي كارلو ماريا سيبولا في كتاب يحمل نفس

(١) مقال حديث، على الرغم من جودته العالية، فهرسه طوعاً مجتمع أطباء الأعصاب، ولا سيما المستشفيات الجامعية. لقد كتب فيه وثبت أن التقاعد المبكر يعرضك لخطر إضافي بنسبة ١٥٪ للإصابة بمرض ألزهايمر. ومن باب التضامن لن أذكر المصادر خوفاً من أن يساء استخدامها ويساء تفسيرها من قبل الوزارة أنييز بوزان.

الاسم «القوانين الأساسية للغباء البشري» Les Lois fondamentales de la stupidité humaine. من خلال الرسوم البيانية الداعمة، يوضح لنا الخطر الشديد للغباء؛ أيّ معاملة مع أحمق تؤدي إلى غرق السفينة! الاتفاق بين شخصين ذكيين مثمرٌ لكلا الطرفين؛ قد يسرقك قاطع الطريق لكن يتبين أنه أقل خطورة من الأحمق، لأن هذا الأخير يسحبك معه إلى دوامته المؤذية، فهو يقطع الغصن الذي وضعكما عليه اتفاقكما معًا.

ولذلك فمن الضروري معرفته قبل الوصول إلى مثل هذه التطرفات. لكن العملية خطيرة للغاية! ولمحاولة تجنّب العواقب المخيفة للحماقة، يقدم عالم الاجتماع كريستيان موريل بعض الأفكار في أعماله حول القرارات السخيفة: تشكيل فريق من الخبراء الذين يحترمون بعضهم بعضًا بدلاً من مجموعة خاضعة لقائد، أو محو البنية الهرمية أو تسلسل هرمي متناوب، وتأمين وظيفة محامي الشيطان، مما يسمح بإجراءات متناقضة تحفز الفحص النقدي وتبطل الامتثال، وإعطاء مزيد من الوقت، باختصار، بطريقة ما، إنها ديمقراطية حيث لا يشكك أحد (أو أقل من ٥٠٪ من السكان) في صفات ممثليها وقدرتهم على اتخاذ القرار.

ولكن كيف يمكن أن يطمئن المرء في البداية على مصيره؟ «سواء كان أحمق أم لا، فهو دائماً أحمق بالنسبة إلى شخص ما»، ينبّه بيير بيريه، لكن طرح السؤال علامة جيدة، فهو القدرة على الاستبطان، وبالتالي النقد الذاتي، وهو ما يشهد على قدرات معرفية متطورة.

كلما قلّت معرفتنا، زادت قناعاتنا، كما يخبرنا بوريس سيرولنيك. والعكس صحيح تمامًا: كلما زادت معرفتنا، زادت الشكوك لدينا. كلما زاد عدد الذكريات التي خزّناها، زاد عدد العناصر التي تمكّن دماغنا من التصرف بحذر وكفاءة. وبالنظر بعناية، كما يقول مؤلف كتاب Zizi^(١) (*): «... نطمئن في كل مرة أننا نجد دائمًا من هو أحق منا».

عن ضرورة الحمقى: مديح حماقة

حل المشكلة موجود بالتأكيد! أما سؤال «أين تقع حماقة في الدماغ؟» فالجواب هو، في دماغ من يصم أخاه بهذا الوصف. من الواضح أن حماقة ضرورية من الناحية التطورية، وإلا لكان مثل هذا الخلل قد اختفى منذ فترة طويلة! بعيدًا عن ذلك، وفقًا للرأي العام، يفرخ الحمقى ويتكاثرون أسرع من الأرانب. ولكن كيف يمكنهم الهروب من الانتقاء الطبيعي في حين أن مؤهلاتهم سيئة للغاية؟ يجب أن نواجه الحقائق: الأحق، على الرغم من خطورته، ضروري للغاية لبقاء المجتمع، الذي يدلّهم حيث يشكّلون الأساس فيه!

دماغنا عقلٌ اجتماعي، فوصف شخصٍ ما بأنه أحق يعني الإشارة إليه بالبنان وتقييده بمسمّى. وذلك لإثبات أننا قادرون على اكتشاف هذا الخلل، الذي ليس من السهل دائمًا أن نلاحظه على وجه اليقين للوهلة الأولى، وأننا لا نعاني منه. إنه إظهار البصيرة، التي ترضي الأنا دائمًا، وتضعنا فوق الضحية المعنية، بشكل عام، قليل من الناس سوف يخالفونك، وبالتالي ستؤكد صعودك على مستوى مجموعة ستشاركك

(١) (*) شخص مثير للشفقة أو أحق، والكلمة معناها في الأساس «القضيب».

الرأي، بدلاً من الاعتراض؛ مما يوفر الأداء المكلف لأدمغتهم من خلال إبقائها في وضع المراة فقط. سيحددون معك الضحية التعويضية (المقدمة كقربان) بالسخرية، ويجمعكم الضحك العالي. ستؤكد كزعيم لمجتمع متفوق يعرف كيف يرسم حدوداً واضحة تفصله عن عائلة الحمقى. سوف تمتد خبرتك بسرعة إلى مجالات أخرى. سوف تصبح مسموع الكلمة وتُتبع نصيحتك، والأفضل من ذلك أنهم سيطيعونك! عندها سيكون على الحمقى المثيرين للشفقة أن يغادروا أو يتصرفوا بشكل جيد. سينعِن عليهم الخضوع للسخرية وقبولها من أجل الوفاء بدورهم الأساسي ككبش فداء. هل سيجرؤون على أن يدندنوا بأغنية براسانس بصوت خافت، «إن صيغة الجمع لا تعني شيئاً للإنسان، وبمجرد أن يكون هناك أكثر من أربعة، فإننا نصبح مجموعة من الحمقى»؟ هل سيخاطرون بتثبيت صورتك وصور شخصيتك المتغيرة سرّاً على جدار مخصّص لقضاء حاجتهم بدورهم، والمخاطرة في أي لحظة بالتنديد وتهديد الأشخاص الذين وصموهم؟ بسبب جنون العظمة، سيرغب الملك قريباً في الاحتفاظ بتاجه، وتوسيع سلطته، ويهيمن من دون مشاركة العامة الذين وضعوه على العرش، ويستغلهم بشكل مشروع لأنهم حمقى للغاية. ووفقاً لبراسانس، هناك فرصة ضئيلة لخلعه عن العرش!

يطلق على النقل الحديث لعمل كورييه «بعد الخلق»، وبالتالي يضع اللوحة بعد الفعل الجنسي: لقد أنشئت حياة جديدة للتو بمساعدة «الأحمق». تشير اللوحة إلى اللوحة الجدارية لخلق آدم التي رآها

مايكل أنجلو على قبو كنيسة سيستين. لقد خلق الله الإنسان على صورته ويشير إليه بإصبع السبابة، لكن آدم يقوم بنفس الإشارة ويعين (أو يخترع) بالمثل خالقه. أعطى مايكل أنجلو الله شكل الدماغ الذي يُشار إليه بإصبع سبابة الإنسان الأول. هل يحاول الأخير الإجابة عن سؤال جان فرانسوا ماريون؟ هل يعامل الخالق ومخلوقه بعضهما مثل الحمقى؟ يكتب ألبير كامو بلا هوادة عن الخرافة في أسطورة سيزيف: «إما أننا لسنا أحرارًا والله القدير مسؤول عن الشر، وإما أننا أحرار ومسؤولون، لكن الله ليس كلي القدرة». الأمر متروك لك لاستخلاص النتائج من مقولتنا!

وهكذا فهمت حماسي وحماس من حولي وابتهاج كل من تحدثت معهم عن هذه المساهمة المقترحة! في غياب دراسات علمية رفيعة المستوى ومن دون أن أعرف ذلك، منحتني ضحكاتهم (الذي منعه الموقر خورخي دو بورجوس، أمين مكتبة اسم الورد^(١)) مفتاح أصل العالم وأشكرهم عليه من أعماق القلب. حفنة من الحب...!

(١) هل يمكن لأحد أن يدكرني باسم هذا الممثل الشهير الذي يلعب دور ويليام باسكرفيل في هذا الفيلم والذي لعب أيضًا دور جيمس بوند في أيامه الأولى؟

الحماقة المتعمدة

إيف ألكسندر نالمان

دكتوراه في العلوم الطبيعية،

أستاذ علم النفس في كلية سان ميشيل في فريبور

حماقة، غباء، قلة عقل... لا يوجد نقص في المصطلحات عندما يتعلق الأمر بالخطّ من فرد أو من تصرفاته. هذه الكلمات الازدرائية والمهينة في كثير من الأحيان هي جزء من المفردات المألوفة، لدرجة أن تعريفها يبدو واضحًا لنا: نقص الذكاء. أما فيما يتعلق بما هو الذكاء على وجه التحديد، فقد تبين أن السؤال أكثر حساسية ومصدرًا لمناقشات عاطفية وحادة، حتى لو اعتقدنا، بشكل حدسي، أننا نفهم معناه. ومع ذلك، فإننا جميعًا نفكر في الأشخاص ذوي الذكاء الملحوظ الذين ارتكبوا أفعالًا غبية بشكل خاص. كيف يكون هذا ممكنًا؟ ماذا لو لم يكن الغباء نقصًا في الذكاء، بل طريقة معينة لممارسته؟

كنقطة بداية، يبدو من الحكمة التمييز بين مصطلحين يُستخدمان غالبًا كمرادفين بشكل خاطئ. بل إن بعض الأفعال تؤدي إلى إزعاج

وأثار سلبية لمرتكبها أو لمن حوله أو حتى لكليهما. وهذا من دون أي ميزة صريحة رئيسية. ثم نتساءل لماذا تورط مرتكبها في ذلك! وإذا لم تكن لديه وسائل توقُّع عواقب سلوكه، بسبب عدم التفكير أو النضج أو الحكم، فهو قليل عقل، مثل الأطفال الذين يستكشفون العالم ويتحدّون بعض المحظورات من دون أن يدركوا الآثار المحتملة لمحاولاتهم. يختلف الأمر تمامًا عن حالة الأشخاص الذين يرتكبون هذا النوع من الأفعال مع معرفتهم بذلك تمام العلم. كيف يمكننا أن نعرف أنهم يعلمون؟ فمن ناحية، يعترفون بعد أفعالهم أنه كان من الأفضل لهم الامتناع عن ذلك، وهم يعرفون جيدًا ما الذي يعرّضون أنفسهم له. من ناحية أخرى، إذا طلبنا منهم تحليل سلوكٍ مماثل ولكن قام به شخص آخر، فإن استنتاجهم سيكون ذا أهمية: «هذا غبي، لم يكن عليه أن يفعل ذلك!». لذلك فإن الغباء لا يكون نتيجة لقلة التفكير أو التوقع.

والأمر الأكثر إثارة للقلق هو أن ثمة أفعالاً غبية يرتكبها أشخاص يتمتَّعون بذكاء راسخ. إما أنه كان موضوع تقييم باختبارات إدراكية تؤدِّي إلى معدل ذكاء مرتفع، وإما أنه يستجيب للمعنى الشائع للمصطلح؛ فردُّ لديه أصل نجاح باهر بشكل خاص (ستيف جوبز، على سبيل المثال)، أو اعتراف اجتماعي واسع النطاق بأفكاره (ألبرت أينشتاين)، أو حصوله على شهادات مرموقة. الأشخاص الأذكاء ليسوا محصَّنين ضد الأفعال الغبية بخاصة ذات العواقب الكارثية. ولنفكر في الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون الذي -على الرغم من علمه أنه يخضع للتحقيق- واصل «علاقته غير اللائقة» مع متدربته مونिका

لوينسكي، وهو ما سيكلّفه رئاسته في نهاية المطاف. لذلك يمكننا أن نكون أذكاء، بل وحتى أذكاء جداً، ومع ذلك نتصرف بغباء في بعض الأحيان^(١). دعونا نلاحظ بشكلٍ عابر عدم التماثل هذا: بينما يؤهّل الذكاء الأشخاص، يتعلّق الغباء بأفعالٍ أكثر تحديداً.

الذكاء الخوارزمي مقابل العقلانية

هل يمكن أن يكون الذكاء غير محدّد بشكل شامل بما فيه الكفاية؟ يرجع هذا التأمل المهم حول هذا الموضوع إلى كيث ستانوفيتش، الأستاذ الفخري لعلم النفس في جامعة تورونتو^(٢). وهو يميّز في الواقع مستويات عدة من الذكاء (يجب عدم الخلط بينها وبين أشكال الذكاء كما وصفها هوارد جاردنر: الذكاء اللفظي، والذكاء المنطقي الرياضي، والذكاء الحركي، والذكاء الشخصي، وما إلى ذلك).

فمن ناحية، هناك ما يسميه الذكاء الخوارزمي، الذي يتعلّق بفهم الأشياء والتركيب المنطقي للأفكار. هذه المهارات بالتحديد هي التي تُقاس باختبارات الذكاء المستخدمة حالياً، بما في ذلك مقياس وكسلر لذكاء البالغين الشهير (WAIS (Wechsler Adult Intelligence Scale و WISC مقياس وكسلر لذكاء للأطفال (Wechsler Intelligence Scale for Children) الذي يقيّم معدل الذكاء.

R. J. Sternberg et al., Why Smart People Can be So Stupid, Yale University Press, 2003.

E. Stanovich, What Intelligence Tests Miss: The Psychology of Rational Thought, Yale University Press, 2009.

وبعيداً عن الانتقادات الموجهة بانتظام إلى هذه الأدوات والنتائج التي تقدّمها، فمن الواضح أنها تؤدّي رسالتها على أكمل وجه: تقديم معلومات عن قدرات الطلاب على متابعة البرامج المدرسية، أو تقديم تفسيرات للصعوبات التي يواجهها البعض في هذه البرامج^(١). يُقاس الذكاء الخوارزمي بدقة، ويُقال إن الاختبارات المستخدمة لها خصائص القياسات النفسية الجيدة. ولسبب وجيه تتضمن جميع الاختبارات إجابات صحيحة لمقارنة تلك التي قدّمها الأشخاص الخاضعون للاختبار. وبالتالي يمكن بسهولة تعيين عدد من النقاط. ولكن في الحياة الواقعية، وخارج المدرسة، فإن الوضع مختلف، نادراً ما تكون هناك إجابة جيدة للمعضلات التي نواجهها: هل ينبغي لنا أن نقبل هذا التعزيز المهني خارج المدرسة؟ هل من الأفضل أن نتزوج؟ هل سنكون أكثر رضا بشراء سيارة رينو أو سيتروين؟ لا يوجد جدول إكسيل Excel مكتمل حسب الأصول يعطي «الإجابة الصحيحة» عن هذه الأسئلة.

ولهذا السبب يحدد البروفيسور ستانوفيتش، من ناحية أخرى، مستوى ذكاء يسميه العقلانية. ويشير ذلك إلى القدرة على اتخاذ القرارات التي تساعد على تحقيق أهدافنا وتبني المعتقدات التي تعكس الواقع، حتى إنه طوّر بالتعاون مع معاونيه اختباراً يهدف إلى قياس هذه الدرجة من العقلانية^(٢). إنها ليست مسألة فهم، بل مسألة قصدية. لأنه ليس فهم

Brasseur et C. Cuhe, Le Haut potentiel en questions, Mardaga, 2017. (١)

K. E. Stanovich, R. FE West et M. E Toplak., The Rationality Quotient: Toward (٢)
a Test of Rational Thinking, MIT Press, 2016.

الموقف هو الذي يؤدي بالضرورة إلى التصرف وفقاً للعواقب: دعونا نفكر في المدخنين الذين يدركون تمامًا المخاطر المرتبطة بالسجائر ولكنهم يستمرون في التدخين رغم كل شيء. هذه الطريقة في النظر إلى الذكاء على عدة مستويات تلقي الضوء على المفارقة التي أثّرت سابقاً: الأشخاص الأذكياء؛ أي الذين يتمتعون بمعدل ذكاء يتجاوز المعدل الطبيعي، يمكنهم اتخاذ قرارات غبية؛ أي ارتكاب أفعال لا تقدّم لهم أي فائدة في حين أنها تعرّضهم لمخاطر عالية من العواقب الضارة.

الجانب الثاني المثير للاهتمام في منهج البروفيسور ستانوفيتش يتعلق بالأفراد ذوي الإمكانيات الفكرية العالية *haut potentiel intellectuel* (HPI). لقد استفادت ظاهرة HPI في السنوات الأخيرة من الإصدارات العديدة التي نشرت الفكرة، وسمحت للناس بالتعرف إلى أنفسهم من خلال هذا الأداء بالذات. ومع ذلك، فإن مؤشر HPI ليس ضماناً لنجاح أفضل في الحياة، عندما لا يكون أصل صعوبات التكيف في النسيج الاجتماعي والمهني. يقدم مفهوم العقلانية فهمًا أنيقًا: تتعلّق الإمكانيات العالية بالذكاء الخوارزمي فحسب ولا تتنبأ بأي حال بأن القرارات اليومية قد تكون أكثر ملاءمة. إن الأمر يشبه قيادة سيارة بمحرك قوي للغاية، فهذا لا يعني شيئاً فيما يتعلق بقرارات السائق في القيادة أو وجهة الرحلة.

ولذلك يمكننا أن نعتبر، من دون تناقض، أن فرداً ما ذكي وأنه قادر على ارتكاب أعمال غبية في نفس الوقت. وهنا يُطرح سؤال جديد: ما الدافع وراء التصرف بغباء؟ يرى كثيرون أنه الافتقار إلى السيطرة

العاطفية. بمعنى آخر، ستكون العواطف هي التي تطفئ على الفرد وتحجب قدراته على التفكير مؤقتاً. إنها نظرية جذابة بالتأكيد، لكنها لا تأخذ في الاعتبار الحالات التي ينتج فيها الفعل الغبي ببرود، من دون ذريعة، المشاعر القوية. على سبيل المثال، اقترح طالبان مدرستهما الثانوية ليلاً، وبمجرد دخولهما، أفرغا طفايتي حريق. هذا الفعل غبي، باعتراف الشابين اللذين قُبض عليهما في اليوم التالي؛ لا فائدة حقيقية من ذلك، عواقبه ضارة، ومن الواضح أن سلوكهما غير عقلاني. ذكر فقدان الهدف والملل، ولكن لم تكن هناك مشاعر أخرى؛ لم يكن الأمر يتعلّق حتى بالانتقام من المعلّم أو إلغاء الدروس في صباح اليوم التالي.

تحيز الحصانة، والإفلات من العقاب، والتفاوت الذاتي...

هناك مسار آخر يبدو واعدًا أكثر من مسار العواطف لتفسير القرارات الغبية، وهو مسار التحيزات الإدراكية. هذا المجال من الدراسة واسع النطاق للغاية في علم النفس الإدراكي اليوم، حتى إننا ندين له بجائزة نوبل الوحيدة التي مُنحت لعالم نفس، وهو دانييل كانيمان في عام ٢٠٠٢. والتحيز الإدراكي هو خطأ منطقي يحدث بمنهجية، مثل الخداع البصري، حتى لو كنت تعرف الخدعة، ستقع فيها في كلّ مرة. دعونا نفكر في الانحياز السببي الذي يقودنا إلى رؤية علاقة سببية حيث لا يوجد سوى تعالق، كما لاحظت أن قطتي جاءت لتموء في حجري في حين كنت أشعر بالقلق، استنتجت أن قطتي «تشر» بحالتي وتستجيب لها. قد يكون السبب هو أن القطّة كانت قد استشعرت حالتي الداخلية من مسافة بعيدة فأنت لترىني بوجودها (هل

أتذكر أيضًا المناسبات التي يأتيني فيها حيواني وأنا في حالة جيدة؟). أحد التحيزات في التصرفات الغبية يتعلق بالتفاؤل^(١). نحن نفرط في التفاؤل عندما يتعلق الأمر بأنفسنا. نميل إلى الاعتقاد بأننا نقود بشكل أفضل من المعدّل، وأنا أقلّ عرضةً للمعاناة من المرض أو الطلاق مما تشير إليه الإحصائيات.

نعيش كأشخاص منفصلين، مختلفين عن الآخرين. يقول عالم النفس الأمريكي دانييل تود جيلبرت ساخراً: «إذا كنت مثل معظم الناس، فأنت لا تعلم أنك مثل معظم الناس». عندما اقتحم الطالبان مدرستهما الثانوية، كانا مقتنعين بأنه لن يُقبض عليهما. مع ذلك، من الواضح، أنهما لا ينصحان شخصاً آخر بتنفيذ هذا المشروع الغبي نظراً للمخاطر التي ينطوي عليها.

هذا الشعور بالحصانة، الذي يمنحه التفاؤل الذاتي، يعزّزه الشعور بالإفلات من العقاب، وهو في حدّ ذاته نتيجةً لعددٍ من التجارب التي لم تكن لها عواقب في حياتنا. إذا فكرنا في الأمر، فغالبًا ما نخرق القواعد من دون تكلفة لذلك: كم عدد مخالفات السرعة، والتأخير عن العمل، والأكاذيب الصغيرة التي لا يُعاقب عليها؟ لا شك الغالبية العظمى! ومع ذلك، من خلال تجربة التجاوزات غير المعاقب عليها، يفهم الدماغ أنه لا يتعرّض لخطر، إن وجد -وهو استنتاج منطقي- القبض عليه بعد فعل غبي يُسبّب الضرر.

Sharot, The Optimism Bias: A Tour of the Irrationally Positive Brain, Vintage, (١) 2012.

إن الشعور بالحصانة والإفلات من العقاب يقعان في قلب القرارات الغبية في الحياة اليومية. كمّ منا يمكن أن يتمتّع بنمط حياةٍ صحية، وتناول نظام غذائي متوازن (ليس به كثير من السكر، والدهون، والملح، مع ما لا يقل عن خمس حصص من الفاكهة والخضراوات يوميًا) وممارسة الرياضة البدنية بشكل كافٍ؟ إذا لم تكن هذه حالتك، فمن المحتمل أنك تستسلم لتحيز التفاؤل الذاتي، فأنت لا تفعل كل ما بوسعك، لكنك تحب أن تعتقد أنك لن تمرض، مثل الآخرين. بالإضافة إلى ذلك، أنت لا ترى حاليًا أي عواقب سلبية لأسلوب حياتك الصحي غير الأمثل. أنت تخذع نفسك عن قصد بشأن مصيرك.

لا يمكن فصل التحيزات الإدراكية عن عمل الذكاء، فهي ما تسمح له بتوفير الجهد واتخاذ القرار بسرعة في حالات الطوارئ. إضافة إلى ذلك، فقد تبين أن الأشخاص الأكثر ذكاء -الذين يتمتعون بمعدل ذكاء أعلى- لا يؤدّون أداءً أفضل في الاختبارات التي تنطوي على تحيزات مختلفة. الذكاء لا يحمي من التحيز أو القرارات الغبية.

الغباء أو الإبداع

هل نحن محكومون إذن بتحمّل الأداء النفسي المتحيّز جزئيًا والذي من المرجّح أن يقترح علينا قرارات غبية؟ دعونا لا ننسى خاصية أخرى للأفعال الغبية: جانبها الانتهاكي. لو كان الطالبان المذكوران قد دخلا مدرستهما الثانوية وقررا كنس القاعات، لما وصف أحد خطتهما بالغباء. فعل غير لائق، بلا شك، ولكن ليس غبيًا. لأنه يمكن في هذه اللحظة اكتشاف غرض بناء. في المقابل، إفراغ طفايات الحريق قصة

أخرى: لا يوجد أي مبرر بناءً على هذا الفعل، إلا أنه تعدُّ بصورة لذيدة. يعرف الطالبان أنهما يعلان ما لا ينبغي لهما فعله، ما يمنحهما قليلاً من الإثارة في هذه اللحظة.

إن القيام بما ليس من المفترض فعله غالباً ما يدفع إلى الغباء... ولكن أيضاً إلى الإبداع. إننا على وجه التحديد من خلال الخروج عن المسارات المطروقة، واستكشاف السبل التي لم يفكر فيها الآخرون، نكتشف أشياء جديدة. ولا بدّ من الاعتراف بأن عديداً من الأفعال الغبية -للأسف- إبداعية وأصيلة. إضافة إلى ذلك، فإن العقول الأكثر إبداعاً ليست بعيدة عما نطلق عليه عادة الجنون، حيث يصعب في بعض الأحيان الكشف عن معنى أفعالهم وقراراتهم. ومن ثم، فمن الممكن أن يكون الغباء، بالمعنى الذي تم تناوله في هذا النص، هو السبب وراء عديد من الاكتشافات والاختراعات التي أسهمت في جعل عالمنا أكثر راحة. ولا شك أن هذا الميل إلى الانتهاك، الذي يدعمه التفاؤل المحبذ للمجازفة، يسهم في التقدم والاكتشاف... وسيكون الغباء والإبداع وجهين لعملة واحدة، القاسم المشترك بينهما هو التفكير الذي يوصف بالمتباين؛ أي الذي يخرج عن المسارات المطروقة.

ولذلك فإن الغباء أكثر دقة مما يبدو. ولا يمكن اختزاله في نقص الذكاء، كما أن معدل الذكاء العالي (IQ) لا يحمي من الإغراءات.

لماذا يصدّق الأشخاص الأذكياء أحياناً التفاهات/الهراء؟

بريجيت أكسلراد

أستاذة فخرية في الفلسفة وعلم النفس

«يبدو أن كل الجهود التعليمية التي بذلتها المجتمعات الديمقراطية قد نسيت قضية أساسية في المعرفة؛ أن التفكير النقدي، إذا مورس من دون منهج، يؤدي بسهولة إلى السذاجة. صحيح أن الشك له فضائل كشفية، ولكنه يمكن أن يؤدي أيضاً، بدلاً من الاستقلال العقلي، إلى العدمية الإدراكية».

جيرالد برونر، ديمقراطية السذج^(١)

أحياناً ما يثير الأشخاص الذين يبدو ذكاً وهم واضحاً الدهشة من خلال التعبير، من دون ضحك، عن أفكار خالية من أي أساس أو من خلال التمسك بنظريات غريبة الأطوار.

(١) Puf, 2013, p. 296.

صحيح أنه لا يوجد تعريف موحد للذكاء. ربما يكون السبب هو أن هذه الكلمة تشير إلى قدرات متنوعة، فالتاريخ يقدم لنا أمثلة عديدة لأفراد يُعتبرون بالإجماع أذكياء في مجالات متنوعة مثل العلوم أو التكنولوجيا أو الفنون أو الفلسفة.

واستنادًا إلى تعريف الذكاء باعتباره «القدرة على التفكير، والتخطيط، وحل المشكلات، والتفكير بشكل تجريدي، وفهم الأفكار المعقدة، والتعلم بسرعة، والتعلم من التجربة»، خلّص تحليل واصف *méta-analyse* يركز على ٦٣ دراسة^(١) إلى أن الأشخاص الأذكياء أقل ميلًا إلى الاعتقاد من غيرهم.

من ثم يبدو من المنطقي الاعتقاد بأن الأشخاص ذوي الذكاء المتفوق لديهم فرصة أكبر للحماية بنجاح من المعتقدات.

لتعريف الذكاء عالي المستوى، يجب أن نستحضر القدرة المذهلة لبعض الأفراد على التفكير خارج الصندوق والنماذج السائدة في عصرهم، وقدرتهم على الابتكار، وعدم الاكتفاء بما يبدو بدهيًا في لحظة معينة. عرف جاليليو، أو داروين، أو أينشتاين، أو حتى كانط، أو ديكارت، كيف يفكرون بشكل مختلف عما كان يُعتقد في عصرهم. لقد تحدّوا تفكير الأغلبية والتفسيرات المبسّطة. فالذكاء، في حالتهم،

M. Zuckerman, J. Silberman, J. A. Hall, Personality and social psychology (١) review, «The Relation Between Intelligence and Religiosity- A Meta-Analysis and Some Proposed Explanations» (trad. «La relation entre [intelligence et la religiosité]», université de Rochester, aotic 2013.

يكون مصحوبًا بالتفكير النقدي، والقدرة على «مقاومة» الخطاب المهيمن فكريًا، ومحاولة غرس مذهب، وبشكل أعم، أي شكل من أشكال الدوجمائية.

ومع ذلك، في أحد مقالاتها^(١)، تتساءل هيدر أ. بتلر، الأستاذة المساعدة في قسم علم النفس بجامعة ولاية كاليفورنيا، عن هذه الظاهرة المحيرة: يمكن لأشخاص أذكاء أن يقولوا ويفعلوا أشياء حمقاء (foolish things)، ويصدّقوا تفاهات. تكتب: «على الرغم من الخلط بين التفكير النقدي والذكاء، في كثير من الأحيان، فإنهما مختلفان. التفكير النقدي هو مجموعة من المهارات الإدراكية التي تسمح لنا بالتفكير بعقلانية مع وضع هدف في الاعتبار، والميل إلى استخدام هذه المهارات عندما يكون ذلك مناسبًا. المفكرون النقادون [...] هم مفكرون مرنون يحتاجون إلى أدلة لدعم معتقداتهم ويدركون المحاولات المضلّة لإقناعهم. التفكير النقدي يعني القدرة على التغلّب على جميع أنواع التحيزات الإدراكية (على سبيل المثال، التحيز الاسترجاعي، والتحيز التأكدي)».

ومن ثم نفهم بشكل أفضل لماذا يمكن حتى للأشخاص الأذكاء جدًّا أن يؤمنوا أحيانًا بأشياء غريبة. يقول عالم الاجتماع جيرالد برونر، الذي أجرى معه مؤخرًا توماك. دوران مقابلة في الفيلم الوثائقي «قوانين

H. A. Buder, «Why Do Smart People Do Foolish Things? Intelligence is not (١) the same as critical thinking and the difference matters», Scientific American, 3 octobre 2017.

الجذب العقلي» Les Lois de l'attraction mentale^(١)، إنه كان من أصحاب المذهب الألفي في أيامه الأولى: «أعلم أنه يمكنك أن تؤمن بالأشياء المجنونة من دون أن تكون مجنوناً»، ويضيف أن الأمر كان «سلسلة من المصادفات»، «سلسلة من أشياء صغيرة جداً»، هو ما دفعه إلى التشكيك في هذا الاعتقاد.

لكن لا يغتنم الجميع هذه الفرصة.

جيمي كارتر ورسائله إلى الكائنات الفضائية

أعلن الرئيس الأمريكي جيمي كارتر (١٩٧٧-١٩٨١) خلال حملته الانتخابية: «إذا انتُخبت رئيساً، فسوف أضمن أن تكون جميع المعلومات التي تحتفظ بها هذه الدولة حول مشاهدات الأجسام الطائرة المجهولة متاحة للجمهور والعلماء». وأضاف هذه الجملة المفاجئة، وهي مثال جيد على الانحياز التأكيدي: «أنا مقتنع بوجود الأجسام الطائرة المجهولة لأنني رأيت أحدها».

تماشياً مع قناعاته، أرسل جيمي كارتر رسالة إلى الكائنات الفضائية على متن مسبار فوييجر 1 Voyager في ٥ سبتمبر ١٩٧٧. وبعد أن قدم عرضاً عن المسبار والأرض، خاطبهم جيمي كارتر قائلاً: «هذه هدية من عالم صغير بعيد، شهادة على أصواتنا وعلومنا وصورنا وموسيقانا وأفكارنا ومشاعرنا. نحن نحاول البقاء على قيد الحياة في عصرنا حتى نتمكن من العيش في عصركم. ونأمل أن ننضم ذات يوم،

(١) La Tronche en biais, Les Lois de [attraction mentale, novembre 2017.

بعد حلّ المشكلات التي تواجهنا، إلى مجتمع الحضارات المَجَرَّية. ويمثل هذا التسجيل أملنا وإصرارنا، فضلاً عن حسن إرادتنا في هذا الكون الفسيح والرائع».

إن جيمي كارتر الحائز جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٢، ومؤلف العديد من كتب الأدب السياسي، كان لديه من السذاجة أن يرسل رسائل إلى كائنات فضائية في حين أنها لن تصل قبل أربعين ألف سنة، وفي كل الأحوال لن نعرف عنها شيئاً. وبما أن المسبار لن ينقل البيانات بعد عام ٢٠٢٥، فهذا يجعلنا نتساءل.

تظل الحقيقة أن كارتر ليس الوحيد الذي أرسل رسائل إلى كائنات فضائية. في ١٩ نوفمبر ٢٠١٧، أعلنت مجلة Science Post أن فريقاً من علماء فلك الـ SETI (البحث عن كائنات ذكية خارج الأرض Search for Extra-Terrestrial Intelligence) قد أرسلوا رسالة إذاعية تحتوي على معلومات عن كواكب نظامنا الشمسي، وبنية الحمض النووي، ورسم لإنسان، وغيرها من المعلومات الأساسية عن الأرض وسكانها في اتجاه نظام مجاور، وهو أحد أقرب الأنظمة المعروفة لإيواء كوكب يحتمل أن يكون صالحاً للسكن، وهو قريب بدرجة كافية بحيث يمكننا الحصول على إجابة في أقل من ٢٥ عامًا، وهو إطار زمني أكثر منطقية بكثير، دعونا نعترف بذلك، في حين أنه ليس غداً.

المثير للدهشة: علماء مثل عالم الفيزياء ستيفن هوكينج أو عالم الفلك دان فيرثيمر، باحث SETI في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، حذروا السلطات من التداعيات المحتملة للتواصل مع كائنات فضائية،

الذين «من المؤكد أن حضارتهم القادرة على استقبال هذه الرسائل وفهمها ستكون أقدم بكثير وأكثر تقدُّمًا من الناحية التكنولوجية من حضارتنا». وأشار دان فيرثيمر:

«إنه مثل الصراخ في غابة قبل معرفة ما إذا كان هناك نمور أو أسود أو دبة أو غيرها من الحيوانات الخطرة بالداخل».

وهو ما يثير الحيرة.

إضافة إلى ذلك، يمكن للأفراد الأذكاء جدًّا أن تعميهم معتقداتهم إلى درجة التخلي عن حريتهم النقدية، والتضحية بسعادتهم وحتى بحياتهم.

ستيف جوبز، صاحب رؤية رائعة ولكن أعمته معتقداته

كان يلقَّب بإله التكنولوجيا الفائقة iGod، وكثيرًا ما كان يتحدث عن «التفكير السحري»، وهي فكرة أنه يستطيع إخضاع العالم لإرادته. وقد أثمرت هذه الفكرة عندما حقق أفكاره الرائعة، لكنها أثبتت عجزها في مواجهة السرطان.

في رأي كاتبَي سيرته الذاتية، دانييل إشبياه والثر إيزاكسون، وفي ضوء كل الإنجازات التي بدأها، كان ستيف جوبز ذكيًّا جدًّا، بل عبقرِيًّا. يصف دانييل إشبياه، الصحفي ومؤلف كتاب «حيوات ستيف جوبز الأربع»، سيرة ستيف جوبز، على النحو التالي: «كان جوبز، المعذب، والساعي إلى الكمال، والمسكون بالعبقرية، والمتمتع بحس فطري بالجمال، قادرًا على تحقيق أحلام كبيرة وكان يتمتع بموهبة مشاركتها

مع الآخرين [...] لم يكن مديرًا تنفيذيًا لمشروع، لكنه فنان أصيل يبحث عن الكأس المقدسة الخالدة، وذو حس جمالي تحركه رغبة تغيير العالم...».

يقتبس والتر إيزاكسون، الكاتب ومؤلف السير الذاتية لألبرت أينشتاين وهنري كيسنجر وبنجامين فرانكلين، مقتطفًا من سيرة ستيف جوبز، الجملة القصيرة التي ظهرت في حملة آبل الإعلانية «فكر بشكل مختلف»:

«فقط أولئك الذين لديهم من الجنون ما يكفي لاعتقاد أن بإمكانهم تغيير العالم هم من ينجحون في ذلك». كان الأب البيولوجي لستيف جوبز سوريًا. والدته أمريكية. طالبة وعزباء، سمحت أن يتبنى ابنها عند الولادة الزوجان جوبز بشرط أن يرسله إلى الجامعة. كان هؤلاء الناس متواضعين للغاية. لقد التزموا بذلك. وبعد فترة وجيزة، انتقلوا إلى وادي السيليكون. انجذب ستيف جوبز إلى الهند والبوذية. بعد فترة مراهقة هيبية ثم إقامة طويلة في الهند مع صديق، عاد إلى وطنه وبدأ دراساته العليا التي تركها بعد ثلاثة أشهر. ثم تابع دراسة حرة في فن الخط؛ ما عزز ذوقه في الجماليات، وأقام في بستانٍ صيفًا كاملاً لا يأكل فيه إلا التفاح. وبعد ذلك بقليل، شارك في تأسيس شركة «آبل» مع صديقه ستيف وزنياك، وأصبح أصغر مليونير أمريكي في سن ٢٥ عامًا. لقد أحاط نفسه بالعابرة الذين استطاع أن يستمد منهم النخاع الأساسي، وكان كاشفًا لمواهبهم بفضل كاريزمته. كانت لديه فكرة رائعة عن أجهزة Apple I، و Apple II، و Pixar، و iMac، و iPod، و iTunes،

و iPhone، و iPad، على سبيل المثال لا الحصر. لكن حياته كانت مليئة بالمزلق التي كان يتغلّب عليها دائماً للمضي قدماً. باستثناء الخطوة الأخيرة؛ سرطان البنكرياس.

عندما شُخّص ورم البنكرياس في أكتوبر ٢٠٠٣، بكى الأطباء من شدة التأثير عندما اكتشفوا أن الورم قابل للجراحة. لكن ستيف جوبز رفض إجراء عملية جراحية. بوصفه بوذيًا ونباتيًا، كان متشككًا في الطب ويؤمن بشدة بالطرق البديلة، وكل منها أكثر غرابة من سابقتها. استشار المعالجين، والمعالجين الطبيعيين، وإخصائيي الوخز بالإبر، وابتلع كبسولات الأعشاب، وشرب عصائر الفاكهة، وصام لفترات طويلة. وفي عام ٢٠٠٤، أظهرت اختبارات جديدة أن سلطات الهندباء لم يكن لها تأثير يُذكر على الخلايا السرطانية، فقد انتشر الورم خارج البنكرياس. ثم قُبِلَ العملية، ولكن ربما بعد فوات الأوان. في أبريل ٢٠٠٩، خضع لعملية زرع كبد في معهد زراعة الأعضاء بمستشفى جامعة ميشوديست في ممفيس، تينيسي. وواصل العمل في شركة آبل حتى وفاته في أكتوبر ٢٠١١، عن عمر يناهز ٥٦ عامًا.

تساءل كُتّاب سيرته الذاتية وأصدقاؤه حول ازدواجية شخصيته. مخترع عبقرى قادر على تحريك الجبال لكنه غير قادر على فصل نفسه عن الهراء الذي عبّل نهايته. أكان استحواذ فكرة تخليّ والديه البيولوجيين عنه -ربما- هي التي دفعته إلى ملء هذا الفراغ بالأبحاث الباطنية؟ عندما كان عمره ٧ سنوات، شعر باليأس مما قالته فتاة صغيرة حيث أَسْرَتْ له بأنه تم التخليّ عنه ثم تبنيه: «إذن والداك لم يحباك؟».

بفضل ذكاء القلب الذي أظهره له دائماً، طمأنه والداه بالتبني. ومما لا شك فيه أن تأثير ثقافة الهيسيين المضادة في وادي السيليكون في سبعينيات القرن العشرين قد شكّل أيضاً حاجته إلى البحث في مكان آخر، في الهند، عن «الإشراق».

«كان جاليليو مخطئاً، أما الكنيسة فكانت محقة»

قد تكون المعتقدات غير العقلانية خطيرة على الشخص الذي يحملها فحسب، ولكن هذه ليست هي الحال دائماً. عن طريق التأثير والإيحاء والتبشير، وربما حتى من دون تصديق أنفسهم بما يقولون، يستخدم البعض كل ذكائهم لإقناع العقول الميالة إلى الإيمان. في الفيلم الوثائقي قوانين الجذب العقلي -المذكور أعلاه- يقول هنري بروخ: «يعتقد ربع الأوروبيين أن الأرض هي المركز وأن كل شيء يدور حولها».

قبل بضع سنوات، في ٦ نوفمبر ٢٠١٠، عُقد مؤتمر علمي بعنوان «كان جاليليو مخطئاً، أما الكنيسة فكانت محقة»، في فندق جاردن إن في ساوث بيند، بولاية إنديانا، على بُعد ١٥٠ كيلومتراً من شيكاغو، والذي جمع عشرة متحدثين قدموا أنفسهم على أنهم «خبراء». لقد حاولوا إثبات أن الشمس تدور حول الأرض وفق نظام مركزية الأرض، في حين أثبت العلم منذ كوبرنيكوس وجاليليو وكبلر ونيوتن أن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس وفق نظام مركزية الشمس... كان العنوان الفرعي واعداً: سيكون هذا المؤتمر الكاثوليكي السنوي «الأول» حول مركزية الأرض. افتتح الدكتور روبرت سنجينيس المؤتمر بورقة

بحثية بعنوان: «مركزية الأرض؛ إنهم يعرفون ذلك، لكنهم يخفونه»، تناول الموضوع المتكرر لنظرية المؤامرة. وأعلن باحثون آخرون، مثل الدكتور روبرت بينيت والدكتور جون سالزا، عن موضوعات مذهلة بنفس القدر: «الدليل العلمي؛ الأرض هي مركز الكون»، و«مقدمة في آليات مركزية الأرض»، و«تجارب العلماء تُظهر أن الأرض ثابتة في مركز الكون». وكانت مؤهلاتهم محاطة بأكبر قدر من الغموض، حاملي دكتوراه، أساتذة... على سبيل المثال، أعلن روبرت ج. بينيت، أحد منظّمي المؤتمر، من جانبه عن نيل الدكتوراه في النسبية العامة. كان روبرت سنجينيس رئيسَ منظمة الدفاع عن الكاثوليكية الدولية، ومؤلفَ كتبٍ عديدة ومقالات أخرى حول اللاهوت والعلوم والثقافة والسياسة، ومدرّسَ فيزياء ورياضيات لعدة سنوات في مؤسسات مختلفة. لقد بشّر بأن علماء الفيزياء، مثل ألبرت أينشتاين، وإرنست ماخ، وإدوين هابل، وفريد هويل، وغيرهم كثيرون، كانوا سيثبتون، كما جاء في الكتاب المقدس، أن الشمس وجميع الكواكب تدور حول الأرض، الثابتة، في الفضاء، بلا حراك ولا تغيير؛ ما يغذي الأمل في أن الناس سيعطون الكتاب المقدس مكانه الصحيح ويفهمون أن العلم ليس على الإطلاق ما يقوله الناس.

ومع ذلك، فإن كل اكتشاف علمي يقدّم دليلاً جديداً على أن مركزية الأرض ليست تمثيلاً يتوافق مع الواقع. يمكن لأتباع مركزية الأرض الرجوع فقط إلى الكتاب المقدس، ويردون على كل حجة علمية: «لقد جاء في الكتاب المقدس أن...»، إن مهاجمة جاليليو تشوّه

صورة أحد مؤسسي العلم الحديث، الذي قدم أحد الأدلة الأولى على مركزية الشمس في نظرية كوبرنيكوس، ولكنها تسمح لنا أيضًا بالتخلُّص مما يعتبره البعض إساءة تعرّض لها في أثناء ندم الكنيسة عام ١٩٩٢ فيما يتعلق بإدانة جاليليو.

لقد تدفقت المياه تحت الجسور منذ جاليليو. واجه علم الكوبرنيكيين الكتاب المقدس والإيمان بالحقيقة الموحاة، وكان عليه أن يشن معركة ضد اللا عقلاني. فالعلماء هم الذين تعرضوا للاضطهاد. اليوم، يحاول المتشددون وغريبو الأطوار التلاعب بالعقول لتمرير نظرياتهم الغامضة: إنها دائماً نفس معركة الظلامية ضد الحقيقة.

ما القوة المضادة للظلامية؟

في حين أنه من غير المرجّح أن نتمكّن من زيادة ذكائنا، فإننا يمكننا أن نتعلم كيف نطوّر مهارات تفكيرنا النقدي تطويراً منهجياً.

ليست كل المعتقدات غبية أو سخيفة أو خطيرة. وبعضها بناءً، مثل الإيمان بنفسك، وبقدراتك، وبقيمتك، وبالحياة أو بالآخرين.

إن خطر السماح لنفسك بالتأثر بالمعتقدات الخطيرة إلى حدّ فقدان عقلك يأتي من الحاجة إلى إيجاد معنى لحياتك بأي ثمن. إذا قدّم لنا الآخرون تفسيراً يتوافق مع رؤيتنا للعالم أو يعفينا من الاضطرار إلى البحث عنه بأنفسنا، فمن السهل أن نبتناه. لكن ما يجعل قوة المعتقدات غير العقلانية عظيمة هي أنها تميل إلى الاتفاق مع توقّعاتنا البديهية.

تاريخياً، آمن كثيرون بأشياء غريبة وحاول كثيرون محاربة هذه المعتقدات. وهذا يخلق توازناً لا يتغيّر حقاً بمرور الزمن. هذه هي

الطريقة التي يمكننا بها النضال من أجل العقلانية، بفكرة أننا ببساطة نشارك في التوازن.

ومهما كان الإنسان ذكياً ومثقفاً وناقداً، فلا إنسان في مأمن من تصديق بعض الهراء، وذلك لأنه من الصعب قبول المصادفة. البحث عن المصير، والقدر، والمؤامرة، والنية، والخير أو الشر وراء المصادفة، هو تحيز عالمي. «لا اثنان دون ثلاثة»، «لا دخان بلا نار»، «من ضحك يوم الجمعة، بكى الأحد»، وما إلى ذلك، كلها تعبيرات تثبت حاجتنا إلى السببية والمعنى. وأعظم العلماء ليسوا استثناء من ذلك. هكذا كتب أينشتاين في مراسلاته عن مرض زوجته ميليفا وكذلك مرض ابنه:

«عقاب مستحق لي لأنني قمت بأهم عمل في حياتي من دون تفكير: لقد أنجبت أطفالاً من شخص أدنى أخلاقياً وجسدياً...»^(١). حاولت والدة ألبرت أينشتاين إثناءه عن الزواج بميليفا، التي كانت مصابة بعرج خفيف، من خلال التنبؤ بتأثر نسله. كنا نتوقع منظوراً من مخترع النسبية أبعد قليلاً! ولكن كما قال اثنان من كُتّاب سيرته الذاتية، روجر مايفيلد وبول كارتر: «لقد تسببت تركيبة أينشتاين من الوضوح الفكري وقصر النظر العاطفي في خيبات أمل عديدة في حياة من حوله». في نهاية المطاف، ولعل ما بوسعنا ليس ضمان وجود عدد أقل من الأشخاص الذين يؤمنون بالأشياء الغريبة أو المجنونة، ولكن عدم وجود مزيد منهم. من النادر جداً أن نتمكن من تغيير رأي أولئك الذين اقتنعوا بالفعل. وعلى العكس من ذلك، فإن الخطر يكمن في تعزيز معتقداتهم.

Stachel, D.C. Cassidy, R. Schulmann(eds.), Collected papers of Albers Einstein, (١) the early years 1899-1902, Princeton University Press, 1987.

لماذا نجد معنى للمصادفات؟

مقابلة مع نيكولا جوفري

عالم نفس وعالم رياضيات وأستاذ في كلية الدراسات العليا في التربية والتعليم ESPE جامعة ليل شمال فرنسا

عضو مؤسس في المختبر الجامعي الإدراك البشري والاصطناعي

Cognitions Humaine et Artificielle (chart)

- تبدو بعض المصادفات مذهلة لدرجة أننا نرفض أن ننسبها إلى المصادفة، ونبحث عن معنى لها. لكن في نظرك، الأمر يتعلق بعدم إدراك السياق.

- رؤية موضوعية، سواء في الزمان أو المكان. ومن منظور عالمي، فإن هذه المصادفات ليست مفاجئة إلى هذا الحد. والأهم من ذلك أننا لا نطرح الأسئلة الصحيحة منذ البداية. خذ بعين الاعتبار مفارقة عيد الميلاد: من بين ٢٥ شخصًا، ما احتمال أن يكون لشخصين نفس تاريخ الميلاد؟ للإجابة عن هذا السؤال، نميل إلى استخدام منطق heuristique إرشادي واستدلال مبسّط، لنسأل أنفسنا ما احتمال أن يكون شخص آخر من بين ٢٥ شخصًا له نفس تاريخ الميلاد.

والنتيجة ضعيفة جدًا، لأننا نخترل المشكلة في تاريخ واحد محتمل فقط، وهو تاريخ ميلادنا. احتمال أن يكون لشخص واحد من بين ٢٤

شخصًا نفس تاريخ ميلادي هو ٣, ٦٪ فقط. ومن ناحية أخرى، هناك احتمال ٥٠٪ أن يتصادف عيد ميلاد بين ٢٥ شخصًا. والأمر ليس نفسه على الإطلاق.

- تستشهد أيضًا بمثال المرأة، فيوليت جيسوب، التي نجت من غرق ثلاث سفن، بما في ذلك غرق سفينة تيتانيك. يبدو هذا استثنائيًا، وفي النهاية ليس الأمر كذلك على الإطلاق.

- تنبع المشكلة من حقيقة أننا نفتقر إلى المعلومات، ونملأ الفجوات بعناصر افتراضية تبدو محتملة وضمنية. عندما نعلم، من دون مزيد من التوضيح، أن شخصًا ما نجا من غرق السفينة تيتانيك وسفینتين آخرين، نتخيل أنه يمكن مقارنة هاتين السفينتين بسفينة تيتانيك، والأمر ليس كذلك على الإطلاق، لأن غرق إحداهما تسبب في عدد قليل من الضحايا، في حين لم يتسبب غرق الأخرى في أي ضحايا على الإطلاق. إضافة إلى ذلك، لا نعتقد أن لدى فيوليت جيسوب أي شيء مميز، إذ كانت تعمل في شركة هذه السفن الثلاث.

- تقول أيضًا إنه بفك رموز أحداث ١١ سبتمبر، يمكننا أن نجد رقم ١١ كثيرًا، ومن هنا يأتي إغراء رؤية أنها مؤامرة أو علامة من القدر. لكن بالنسبة إليك، لا يوجد شيء غير عادي في هذا الأمر.

- وهذا ينطبق على جميع أعداد الحظ وأرقامه. ونجد أيضًا رقم ١٩ مئات المرات في القرآن، أو الرقم ٧ في الكتاب المقدس، أو على الأقل مضاعفاتهما، وهو أمر لا يثير الدهشة من الناحية الإحصائية.

يمكننا أيضًا العثور على تنبؤات على شكل كلمات، كما يتضح على سبيل المثال من الكتاب المقدس: الشفرة السرية، حيث الصحفي مايكل دروسنين، من خلال تطبيق شبكات القراءة، يكشف كثيرًا من التنبؤات في الكتاب المقدس، بما في ذلك نهاية العالم قبل بضع سنوات مضت. في الواقع، فإن عدد الشبكات وطرق المتابعة الممكنة بواسطة الحاسوب هائلان للغاية بحيث يمكنك العثور على أي شيء. حتى إن دروسنين وضع تحديدًا؛ العثور على عدد من التنبؤات في رواية موبي ديك كما هي الحال في الكتاب المقدس. حسنًا، لقد كان ذلك!

إضافة إلى ذلك، في الكتاب المقدس، وبنفس الأسلوب، وجدنا أيضًا «الله غير موجود»، «فلتكره يسوع»... كأننا نستطيع أن نجد ما نريد.

- بما في ذلك، في كتابك أنت؟

- بالتأكيد! وفي خواطر باسكال وجدت إعلانًا عن آلاف الوفيات بسبب مرض الإيدز. سياستيان بومير، عالم الحاسوب، بعد ترميزه أبجديًا جينوم الخميرة البيرة، وجد فيه «دجاجًا مقليلًا»! هذا ما تناوله على الغداء.

إذا حاولنا فقط تطبيق شبكة القراءة المختارة عشوائيًا، فإن احتمالات العثور على «الدجاج المقليل» ضعيفة جدًا، ولكن بمضاعفة عدد كبير جدًا من المحاولات، سيكون شيئًا آخر تمامًا.

- لقد حسبت أنه على مدار العشرين عامًا الماضية، كان هناك ٧٢٠٠٠ حلم منذر يتنبأ بوفاة شخص ما في الأسبوع التالي، ولكن مرّت من دون أن يلاحظها أحد.

- نعم، هو مجرد تقدير، لكنه ما زال يوضح الاقتران بين احتمال منخفض وعدد كبير من الحالات. كان هنري بروخ قد أجرى حسابًا مشابهًا لبرنامج تلفزيوني عن السحر، حيث طلب أحد الوسطاء من المشاهدين إشعال الأضواء في منازلهم؛ ما يجعل المصابيح الكهربائية تنفجر في جميع أنحاء فرنسا. اتصل عشرات الأشخاص، خائفين، للإبلاغ أن مصباحًا كهربائيًا قد انفجر بالفعل في منزلهم. لا يصدق! لكن مع العلم أن البرنامج استمر مدة ساعة، وبافتراض أن الجميع كان لديه ٤ أو ٥ مصابيح مضاءة، فقد كان من الطبيعي أن ينفجر بضع مئات في أثناء البث، مع مراعاة متوسط عمر المصباح الكهربائي. وكان الاحتمال منخفضًا جدًا لكل من المصابيح، ولكنه مرتفع لمئات الآلاف.

- كان من الممكن أن يدَّعي أنه يسبب الولادة أو الموت؟

- نعم، لكننا نعلم أن هذا يحدث كثيرًا. نحن لا نتحدث عادة عن انفجار المصابيح. الشيء نفسه ينطبق على الأحلام المُنذرة. لقد واجهت أنا نفسي عديدًا منها، عنيفة جدًا، وبدت كذلك، لكن لحسن الحظ لم يحدث منها شيء. وإلا لكان لدي صديقان على الأقل.

- كيف يتحقق تنبؤ واحد من المنجمين أو العرافين، ولا توجد مصادفة؟

- نعم، التوقعات تتحقق بانتظام. كانت إليزابيث تيسيه قد توقعت شيئًا ما في سبتمبر ٢٠١١. ولم يكن هجومًا ولا يوم ١١ سبتمبر، لكن مهلاً... عامة، تنبؤاتهم يمكن توقعها بشكل أكبر؛ زلازل وحوادث. لكن ليس ١١ سبتمبر، لم يكن متوقعًا حقًا. غالبًا ما تدَّعي إليزابيث

تيسيه، لتبرير توقعاتها، أنها توقعت حوادث طائرات. ثم تسلى شخص ما بإجراء تنبؤات عشوائية بواسطة الحاسوب، وتبين أنها أكثر فعالية إلى حد ما من توقعات إليزابيث تيسيه. وهذه مشكلة أخرى تتعلق بأعياد الميلاد؛ نعمل قائمة بالتواريخ، وإذا تنبأنا بوقوع حادث، فليس من المستبعد أن نجد مصادفة أو مصادفتين.

- تتناول مناهج معينة في علم النفس، مثل علم الأنساب النفسي^(١) والتزامنية...

- يعتمد علم الأنساب النفسي أساساً على مصادفات تواريخ بين ما يحدث لنا، وأحداث حدثت للأجداد. إنها في الواقع نسخة أكثر تعقيداً بعض الشيء من مفارقة أعياد الميلاد، لأننا نبحت عن مصادفات بين قائمتين متميزتين. لكن عندما نبني شجرة عائلة غنية، فإنه ليس من غير المألوف أن ينتهي الأمر بمئات التواريخ، وهو ما يزيد فرص المصادفة. إضافة إلى ذلك، من الناحية العملية، ليست لدينا بالضرورة التواريخ المحددة. وفي أسوأ الحالات، عندما لا نتمكن من العثور على أي شيء، علينا تسوية الأمر:

كان أحد المرضى يبلغ من العمر ٢٤ عاماً، توفي عمه في أثناء السفر عن عمر يناهز ٣٠ عاماً، وقد ربط طبيب نفساني، قائلاً إن الشاب كان في ديناميكية التوجه نحو ٣٠ عاماً. إنه أمر مسلاً للغاية! الحالة الأخرى

(١) النظرية التي طوّرتها آن أنسيلين شيتزينبيرجر، مستوحاة من التحليل النفسي، والعلاج النفسي، والنظميات، يفترض أن التوترات والأحداث المؤلمة التي عاشها أسلاف الفرد من شأنها أن تؤثر في الاضطرابات النفسية والسلوكيات للموضوع.

المعروفة إلى حدٍّ ما التي سُئلت عنها بانتظام، هي في الواقع التزامنية^(١).
أراد يونج تطوير نظرية بمساعدة علماء الرياضيات والفيزياء، لكن هذا
لم يتحقق قط.

- ومع ذلك، لا يسعنا إلا أن ننسب معنى إلى المصادفات. أفترض أنك نفسك تميل إلى
القيام بذلك على أي حال.

- تمامًا! يبدو الحدث ذو الاحتمالية المنخفضة أكثر إثارة للدهشة
بالنسبة إلينا عندما يحدث لنا وليس للآخرين. لقد اختبرتُ مؤخرًا تصوّر
الأطفال حول المصادفة، وذلك برمي نرد خلف غطاء لجعلهم يخمّنون
الرقم الذي سيظهر ثماني مرات متتالية. كنت أرغب في تحليل سلسلة
التوقعات التي ينتجونها. من بين ٧٠ طفلًا، نجح واحد أربع مرات
متتالية. خلال الاختبارات، قلت لنفسي: «إنه أمر فظيع، ربما كنت
مخطئًا، الهواجس موجودة!». كان عليّ التفكير مع نفسي: واحد من
كل ٧٠ يمكن تفسيره بالمصادفة. إنه مثل الأوهام البصرية: لا يمكنك
الهروب منها في الوقت الحالي، ولكن يمكنك التفكير مع نفسك.

هناك ظاهرة تُعرَف باسم «التوقُّع مفرط الامتداد»؛ أي أننا نتوقَّع أن
تكون المصادفة ممثلة لفكرتنا عنها. وعلى وجه الخصوص، نتوقَّع ألا
تُجمَع التواريخ المأخوذة عشوائيًا خصوصًا، بل توزع بشكل موحد. في
الواقع، من الشائع جدًّا أنه من بين اثني عشر تاريخًا أُخذت عشوائيًا،
يقع اثنان في نفس الشهر، وحتى ثلاثة. يمكن أن يؤدي هذا التوقُّع مفرط

(١) صدفة كبيرة بالنسبة إلى المراقب، أنتجت «فرصة كبيرة وإبداعية»، بحسب ملاحظة المحرِّر
كارل جوستاف يونج.

الامتداد إلى الأخطاء، لكنه ليس غير عقلاني.

- هل نميل بالتالي إلى اعتقاد أن المصادفة نفسها يجب أن تخضع لقواعد؟

- في الواقع، سواء في الزمان -نحن لا نتوقع أن التواريخ العشوائية بعضها قريب من بعض- وكذلك في المكان، نتخيل نقاطاً موزعة عشوائياً ومنتشرة للغاية على سطح. تمثل تفجيرات لندن خلال الحرب العالمية الثانية مثلاً تاريخياً جيداً. كان الطيارون الألمان يحلقون عالياً فوق السحب لدرجة أنهم لم يتمكنوا من رؤية المكان الذي كانوا يسقطون فيه القنابل بعشوائية تامة. ولكن بالنظر إلى خريطة التأثير، لاحظت هيئة الأركان العامة البريطانية أنهم تجمعوا معاً في نقاط معينة، لم تتوافق مع أهداف عسكرية واضحة؛ استنتجنا أن خرائط الألمان كانت سيئة. في الواقع، أظهر التحليل الإحصائي أن التأثيرات لم تكن كذلك؛ لم تُجمع معاً بشكل خاص، لكنها انتشرت بعشوائية.

- ومن المفارقة أنك أوضحت بلا شك أننا ندين جزئياً لهذه الأوهام الإدراكية ببقاء جنسنا البشري؛ كان أفضل أن نرى كثيراً من المصادفات بدلاً من عدم وجود ما يكفي...

- ويفترض علماء النفس التطوري أننا قد تمكنا من اكتشافها جيداً للغاية. وفي وقت قد يكون فيه هذا أمراً حيوياً، كان الأفضل المبالغة في تفسير المصادفات، والابتعاد عندما تتحرك أوراق الشجر، ربما لإخفاء حيوان مفترس، بدلاً من التقليل من أهميتها وعدم استنتاج أي شيء منها. تستند الطريقة العلمية أيضاً إلى البحث عن المصادفات والتعالقات،

وتفسيرها بطريقة أخرى غير المصادفة. وهذا ليس غير عقلاني، لكنه أسلوب محفوف بالمخاطر لأنه لا يؤدي دائمًا إلى استنتاجات موثوقة. على سبيل المثال، خلُصت تجربة سابقة أُجريت بشكل صحيح إلى وجود تأثير لموزارت؛ ما يعني أننا عندما استمعنا إلى موزارت، أصبحنا أكثر ذكاء. لكن عندما حاولنا تقليده، لم يعد هذا ينجح. نحن نفترض أنها كانت نتيجة إيجابية كاذبة، كما يجب أن يحدث بانتظام. ومثل هذا الوهم إذن عيب منهج عقلاني.

- في النهاية، من أين يأتي تحفُّظنا في مواجهة المصادفة؟ هل هو عجز إدراكي خالص أم أننا نكرهها؟

- لا أعتقد أننا نكره ذلك، لكن، عمومًا، يجب أن يكون لدينا تفسير؛ لهذا السبب اخترعنا العلم. ومع ذلك، لا أملك إجابة حقًا. أجرى الحوار جان فرانسوا مارميون

الحماقة باعتبارها هذياناً منطقيًا

بوريس سيروولنيك

طبيب نفسي عصبي ومدير التعليم في جامعة طولون

لا يوجد شيء أكثر تواترًا أو خطورة من الحماقة. نحن بالتأكيد أكثر الكائنات الحية موهبة في ذلك، لأننا نعيش في عالم من التمثيلات، بعضها، على الرغم من تماسكه ومنطقه الداخلي، يمكن أن يثبت أنه معزول تمامًا عن الواقع. نطلق عليها «هذيانًا» في حالة الذهان، ولكن في أغلب الأحيان، بالنسبة إليك وإليّ، هي مجرد حماقة. ومن السهل جدًا العثور على آلاف الأمثلة عليها في جميع مجالات الذكاء البشري.

لنأخذ المجال البيولوجي. إذا أكدت أن التأثير النفسي الدوائي لقرصين من فيتامين ب^٦ يعادل تمامًا تأثير قرص واحد من فيتامين ب^{١٢}، فإن المنطق الرياضي مُغرٍ لي لأجعلك تؤمن بمنطق ما. إذا كيّفنا المنطق مع مجال آخر، يمكن أن يصبح حماقة. لذلك أُجريت عملية حسابية صغيرة، مستوحاة من الطبيب والمحلل النفسي فيلهلم رايش. يبلغ متوسط العمر الجنسي المتوقع للزوجين نحو ٥٠ عامًا، وأحيانًا أكثر. بمعدل لقاءين حميمين في الأسبوع، وهي الوتيرة المعتادة في ثقافتنا، فإننا نمارس ما بين ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ لقاء حميمي. لكن في

فرنسا، المعدل الذهبي الأوروبي للمواليد؛ تلد المرأة في المتوسط ١,٩ طفل. وهذا يعني، تخطيطيًا، طفلًا واحدًا مقابل ٣٠٠٠ لقاء حميمي. لذلك، إحصائيًا، من المستبعد جدًا أن يكون الجماع هو سبب الحمل! إنه أمر أساسي (دعونا نلاحظ ملاحظة عابرة أن الأمر بهذا المعدل الرياضي، يتطلب ٠,٠٠٠, ٠٠٠, ٢٠٠, ٣٩٩, ٢ لقاء حميمي للحصول على ٥, ٧ مليار نسمة من البشر).

شقلبات علماء التحليل النفسي اللاكانيين

وماذا عن الأطباء النفسيين؟ سوف نتعلم بشكل مفيد من تاريخ موجز للمنافسة بين الله خان^(١) وبابا فرويد^(٢). كانت غيرة الله خان نقطة البداية للاختلاف النظري الأساسي الذي أدى إلى ظهور التحليل النفسي اللاكاني *psylacanise*، الذي يقُدّسه اليوم عباده ويكررون نظرياته من دون كلمة نقد أو مناقشة. ومن المعروف، على سبيل المثال، أن مريضًا يهوديًا قال ذات يوم لله خان: «إنني أستيقظ كل صباح بسبب القلق. لقد كنت أعيش هذا منذ الحرب، وكان ذلك هو الوقت الذي كان الجستابو Gestapo يأتون فيه ليطلقوا الباب». لقد ترك الله خان كرسيه والنظرية ليدخل حيز الممارسة وينتقل إلى الفعل، لأنه داعب وجنة سيدة وهو يقول: «إيماءة للبشرة، إيماءة للبشرة... Geste à Geste»^(٣) Gestapo «*peau, geste à peau*»^(*) رد فعل المريضة: «إنه أمر رائع للغاية!» بالفعل، لاحظ أن عمل الله خان على مرحلة المرأة مستوحى

(١) إشارة إلى المحلل النفسي البريطاني مسعود خان (١٩٢٤-١٩٨٧).

(٢) المقصود: الله لدى خان، والأب لدى فرويد.

(٣) (*) نفس نطق الكلمتين، لكن الأولى بمعنى إيماءة إلى البشرة والثانية الجستابو.

من علم سلوك الحيوان، الذي استشهد به بصراحة. كما أنه كان من أوائل من قرأ هذا النوع من الإصدارات، على عكس ما يدعيه أصحاب علم التحليل النفسي اللاكانيون، الذين يكرهونني لأنني أبرزت هذا النسب، مع أنه يمكن التحقق منه في غمضة عين. كما أن المحلل النفسي الأمريكي رينيه سبيتز، في عام ١٩٤٦، في كتابه السنة الأولى من حياة الطفل *La Première année de la vie de l'enfant*، الذي كتبت مقدمته أنا فرويد، استشهد هو نفسه بثمانية وعشرين مرجعاً في علم سلوك الحيوان. أخلص إلى أنه، من دون قراءة نصوصهم الأساسية، يهاجمني علماء التحليل النفسي اللاكانيون باسم الفكرة التي يصنعونها عن الواقع، وليس الواقع نفسه. وهو تعريف الهذيان المنطقي نفسه.

خلال أحد المؤتمرات في ثمانينيات القرن الماضي، تخيلت خدعة لتوضيح ما أسماه فرويد التكثيف والإزاحة في العصاب الوسواسي. لقد اخترعت حالة شخص يدعى أوتو كرانك *Otto Krank*، يعاني شللاً هستيرياً في كلتا الأذنين؛ لم يكن يستطيع تحريكهما كما يفعل زملاؤه في الفصل. لذلك ذهب لاستشارة محلل نفسي أو محلل نفسي لاكاني، الذي بالنسبة إليه يحلق الدال على مستوى عميق لأنه يؤثر في الواقع، لأنه يكفي تغيير الدال لتعديل تأثيره في الواقع، نصح المحلل النفسي أوتو بعمل الجنس الناقص لاسمه الأول *Otto* أوتو، وكتابته بشكل عكسي. في اليوم التالي، شعر أوتو بتحسن كبير. وهذا هو نفس المنطق الذي يفسر «إيماءة للبشرة»: الإزاحة، والتكثيف، ثم الشقبة...

سوف ندخل إلى الحياة المهنية

لكن لنكن منصفين؛ أحياناً ما تؤثر الحماية بنفس القوة على الجانب الآخر، بين الأطباء النفسيين الذين يزعمون أنهم يتبعون المنهج العلمي. ولقد طوّرت تصنيف DSM (الدليل التشخيصي والإحصائي للجمعية الأمريكية للطب النفسي, Manuel diagnostique et statistique, أو تصنيف ICD (التصنيف الدولي للأمراض (maladies) منظمة الصحة العالمية، على أساس الأبحاث التي تُقبل في المجلات وتراجعها لجنة من النظراء، التي أدعى أحياناً للمشاركة فيها. قد يظل اسم مؤلف البحث مخفياً، لكننا في كثير من الأحيان نخمن من كتب البحث لأننا نعرف أسلوبه وموضوعه المفضل. إضافة إلى ذلك، يمكنك تنظيم لجنة تقييم تنظيمًا جيدًا للغاية عن طريق اختيار الأعضاء المناسبين، سواء كان صهرك أو صديقاً أقرضته كثيراً من المال أو سبق لك أن نشرت له مرتين ويجب عليه رد الجميل، أو حتى من شخص في التسعين من عمره ويكرر باستمرار نفس الجملة («مرحلة المرأة، مرحلة المرأة، مرحلة المرأة...»). ففي نهاية المطاف، هذه هي الطريقة التي تصنع بها مسيرتك المهنية؛ من خلال تكرار نفس الإصدار دائماً، حتى لو كان ذلك يعني تغيير العنوان وجملة أو اثنتين، حتى تتقاعد. إنني أبالغ قليلاً بالطبع، ولكن، من خلال المضي قدماً من دون الكشف عن هويتي، رفض صديقي بول أيكمان، الرائد البارز في علم نفس العواطف، نشر بحث في مجلة كانت قد نشرته بالفعل قبل عامين.

وتنطبق هذه الحماسة أيضًا على لجنة تحكيم الأصدقاء!

إنها جزء من أي نظام، سواء كنت عالم أحياء، أو عالم رياضيات، أو إحصائيًا، أو محللاً نفسيًا، أو محللاً نفسيًا لأكانيًا أو طبييًا. إنها تشارك في الإدارة اليومية. نحن نستحق جائزة نوبل لرضانا عن أنفسنا! أو الأفضل من ذلك، عن أي هراء. ومع ذلك، دعونا نُشد بالنهج العلمي. إنه على الأقل يمثل فضيلة الدعوة إلى الشك والتحقق وقبول أن حقائقنا مؤقتة. وهذا تقدّم في الحماسة. ولكن إذا كنت ترغب في ممارسة حياة علمية، يجب عليك بالتأكيد إثبات أنك على حق... وهو ما يرتبط بالقناعة الواهمة. لذا، هناك خياران يطرحان نفسيهما: متوسط العمر المهني، أو متوسط العمر المتوقع. إما أن نحارب الشك لصالح الإيمان الراسخ؛ ما يعزز حماقتنا ومتوسط عمرنا المهني. بعد ذلك، نوقع الإصدارات «بأي هراء et ron, et ron, petit patapon» لنحظى بالإعجاب، مع إدخال المصطلحات والاقتراسات التي تعمل جيدًا. وإما أن نتجاوز، حتى لو كان ذلك يعني شن هجوم. بعد فترة من الانزعاج، ربما ينضم إلينا أشخاص آخرون لتشكيل طائفة جديدة... التي بدورها ستكرّر مهماتها. لذا فإن التفكير بنفسك هو حكم على نفسك بالتفكير من أجل نفسك، قبل أن تنضم سريعًا إلى مجموعة من الأصدقاء، لتشكّل مجموعة جديدة من الحمقى... الحمقى الودودون. ونأمل أن نستمتع على الأقل بالعبث معًا. هكذا يمكن أن تتأثر مسيرتنا المهنية بعلاقتنا بالحماسة.

إضافة إلى ذلك، بعد هذا المقال، أعتقد أن مسيرتي المهنية ستلتقى

ضربة كبيرة!

لغة الحمافة

باتريك مورو

أستاذ الأدب بكلية أهانتسيك بمونتريال،

رئيس تحرير مجلة Argument

«ماذا يقول الحمقى؟»، إنهم لا يعرفون أنهم حمقى،
وعدم معرفتهم بحمقتهم هي ضمانهم. كلام الأحمق، من
دون أن يتحرّر من المعنى، لا يخضع للدقة.
إن جلبلة الأحمق ذات النزوع الانتباهي، تهدف إلى
دفع الصمت إلى الزوايا. فهو [...] يتمسك بالأمكن الشائعة
كما يتمسك فنان الترايز المخمور بحبله. يمسك بمشهور
الجمل الباهظة ولا يتركها.

جورج بيكار، عن الحمافة^(١)

أحياناً نرتكب حماقات، ولكن من الشائع جداً أن نقولها. وفي
معظم الأحيان، تمر هذه من خلال اللغة. فهل هذه الخطابات التي

Editions Corti, 2004. (١)

نعتبرها حمقاء لا تعكس إلا عجزاً، مؤقتاً على الأقل، في الذكاء، ولا تشكّل إلا مظهرًا واحدًا من المظاهر المتعدّدة المحتملة؟ أليست هناك بالأحرى حماقة مرتبطة باللغة على وجه التحديد، تجد مكانها الطبيعي في الأقوال غير المدروسة؟ من شأن هذه الفرضية بعد ذلك أن تقرّب الحماقة من لغة أورويل الجديدة، التي لا يشمل استخدامها المثالي، والتي أطلق عليها مؤلف رواية ١٩٨٤ «لغة البط» (canelangue duckspeak)، «أي شكل من أشكال المراكز العليا في الدماغ»^(١).

للهولة الأولى، قد يبدو غريباً ربط هذه الحماقة (الهراء) اللغوية باللغة الجديدة؛ النموذج الأساسي لجميع اللغات المبهمة. ومع ذلك، فإن الاثنين مرتبطتان بطبيعتهما، فكلاهما تُعرّف بأنها استخدام غير مناسب وغير واعي للغة. إن الكلمات أو الملفوظات الحمقاء، مثل تلك المستخدمة في اللغة الجديدة، أثبتت أنها غير قادرة على عكس الواقع بشكل مناسب، وكذلك أفكار أولئك الذين يستخدمونها. وعلى الرغم من أن إحداها جزء من البُعد السياسي والأيدولوجي والأخرى أكثر عفوية، لذا، فإن رؤية اللغة الجديدة والهراء اللغوي معاً ممكنة، فكلاهما يبدو كأنه انحراف فيما يتعلق بالاستخدام العادي والمشروع للغة والكلمات. إضافة إلى ذلك، سنفترض أن هاتين الظاهرتين المتجاورتين، المختلفتين في البداية، تقترب حالياً إحداها من الأخرى، وذلك بفضل ظاهرتين متزامنتين على الأقل. فمن ناحية، فإن الأيدولوجيات (النسوية التفاضلية، ومناهضة النوع، ونظرية النوع

(١). 1984, Gallimard, 1950, p. 405.

الاجتماعي، وما إلى ذلك)، بينما تمارس «ضغطاً مفاهيمياً»^(١) مكثفاً،
تتطور أكثر فأكثر ضد الحس المشترك.

ومن ناحية أخرى، ينفجر الهراء فجأة في المجال العام، وذلك
بفضل الإنترنت والشبكات الاجتماعية التي توفر له غرفة صدى هائلة.
لا يوجد مثال أفضل لهذا اللقاء الحالي بين الهراء واللغة الجديدة
من هذه الرسالة التي نشرتها ناشطة نباتية على فيسبوك في مارس
٢٠١٨، في أعقاب الهجوم الإسلامي في تريب (مارس ٢٠١٨)، الذي
قُتل فيه جزار:

«حسنًا، هل يصدمك أن يُقتل قاتل على يد إرهابي؟ ليس أنا، ليس
لديّ أي تعاطف معه، لا تزال هناك عدالة».

وهنا نجد راسبًا لكل ما هو أكثر تمييزًا لهذه اللغة الجديدة المعاصرة
الذي يحولها إلى هراء.

الانحراف المرجعي: عندما «تنفصل» الكلمات

إن أكثر ما يصدم الحس المشترك في هذه الرسالة هو بالطبع
وصف هذا الجزار بأنه «قاتل». يبدو هذا المصطلح في نفس الوقت غير
لائق، ومبالغًا فيه، ومهينًا، وفي نهاية المطاف، أحرق، تمامًا مثل كلمة
«لوطي» pédés التي استخدمها أحد المعلقين الرياضيين مؤخرًا على
الهواء لوصف لاعبي كرة القدم في فريق ألماني كان قد واجهه للتو ناديًا
فرنسيًا.

(١) Chauvier, Les Mots sans les choses, Editions Allia, 2014, p- 76.

لذلك فإن الحماسة التي نتفوه بها في المقام الأول هي نوع من الزيف، الذي غالبًا ما يصل إلى حد المبالغة. الكلمات المستخدمة لا تتفق مع معناها المعتاد ولا مع المرجع الذي من المفترض أن تحدده. ولكنها تتميز عن الكذب، لأن من يقول الحماسة لا ينوي في الحقيقة خداع محاوريه. يقول فقط هراء. بالتأكيد، من دون أدنى اهتمام بالحقيقة^(١)، ولكن من دون أدنى ادعاء بأن يؤخذ على محمل الجد، بمعنى آخر: لن تحسب عليه كلمة. ويبدو للوهلة الأولى أن هذه النقطة الأخيرة تميز بين الشخص الذي يقول هراء ومستخدم اللغة الجديدة الذي، على العكس من ذلك، كل كلمة مهمة بالنسبة إليه، لأنها تكشف عن عقيدة معينة. دعونا نر هذا الأمر.

بوصف هذا الجزار الذي كان ضحية إرهابي بأنه «قاتل»، فإن هذه النشطة النباتية بالتأكيد لا تدرك أنها تقول هراء. لا، على العكس تمامًا. إنها تستخدم هذا المصطلح وهي تدرك تمامًا أنه يفلت من معناه العادي. وهي تدعو بقوة إلى مثل هذا التعديل المعجمي الذي، حسب رأيها، يجعل اللغة أكثر قدرة على قول الحقيقة، ولتعكس الواقع. قتل الحيوانات هو، في نظرها وبموضوعية، جريمة قتل، لذا فإن تسمية قاتل الحيوانات بـ«القاتل» هو استخدام الكلمة الصحيحة، حتى لو لم يدرك الجميع هذه الدقة على الفور. يجب علينا أن ندرك أن مثل هذا التعديل في معنى الكلمات ليس في حد ذاته أمرًا سخيًا. ودعمًا لهذا النهج،

C'est cette «indifférence à égard de la réalité» qui est, selon Harry G. Frankfurt, (١) «essence même» de la connerie (cf. De l'art de dire des conneries, Mazarine/Fayard, 2017, p. 46).

يمكن للمرء على سبيل المثال أن يزعم أنه خلال فترة العبودية، لم يكن قتل العبد يُعدُّ جريمة قتل، وهو أيضًا كان يُعدُّ قاتلاً! لذا فإن الاستخدام المتطرف على ما يبدو هنا لكلمة «قاتل» لن يكون إلا مقدّمًا على معنى سيُتفق عليه بالإجماع لاحقًا. الفرضية معقولة، باعتبارها تحولًا في اللغة القديمة، وخاصة في معنى كلماتها، تقدم اللغة الجديدة نفسها في كثير من الحالات على أنها تقدّم. ولكن هل هذه هي الحال حقًا هنا؟

من الواضح لا. بادئ ذي بدء، لسبب بسيط هو أن الجزارين في أيامنا هذه لا يذبحون الحيوانات -إنها تُذبح في المسالخ- بل يكتفون بتقطيع جثثها إلى شرائح ستيك أو شرائح فيليه، إلى آخر ذلك. ولذلك فإن مصطلح «قاتل» يفتقر إلى الدقة ويظل غير لائق معجميًا.

وهنا نتطرق إلى نقطة أولى تقرّب لغة الأيديولوجيا من لغة الهراء، ألا وهي هذا الانجراف المرجعي الذي يجعل الكلمات تنفصل، إذا جاز التعبير، عن الواقع، من دون أن نتمكن من استيعاب هذه الاستخدامات غير اللائقة للغة الأكاذيب. ناشطتنا المرموقة، ببساطة، لم تفكر أن الجزار الذي تعتقد أنها تندّد به ربما لم يذبح حيوانًا واحدًا على الإطلاق. في هذا النوع من الخطاب، تشير الكلمات إلى نفسها فقط، وتصبح «مرجعيتها خاصة»^(١). إنها تنقل نوعًا من الخيال، مثل الأوثان التي تتقدّم دلالتها على معناها الحقيقي.

(١) C. Hagege, L'Homme de paroles, Fayard, 1985, p. 202.

عدم اتساق المدلول : هل القاتل دائماً قاتل؟

ومع ذلك، فإن هذا اللجوء إلى الوظيفة المرجعية للغة لا يكفي لحل الخلاف حول الاستخدام الصحيح للمفردات؛ أي تمييز القمح الطيب للكلمات الصحيحة من تبين الكلمات غير الصحيحة. لا يزال يتعين علينا أن نتساءل عن دلالات الكلمات المعنية؛ أي تعريفاتها، لأن الكلمات لا تشير إلى العالم من حولنا بقدر ما تساعد في تحليله، وإعطائه معنى باستخدام المفاهيم التي نحددها. ومع ذلك، يمكننا أن نشير إلى الشخص الذي يستخدم كلمة «قاتل» هذه، فإذا كان قتل الحيوان هو بالفعل عملية اغتيال، يجب علينا أيضًا أن نصنف القط الذي يمسك فأراً ويقتله «قاتلاً»، وكذلك الحوت الذي يُبَيّد أسماك الكريل، والفهد الذي يُقال إنه ذبح ظبيًا لتناول العشاء. يتطلب الاستخدام الصحيح للكلمات أن يكون للمدلول تعريف ثابت يسمح له بتعيين مرجعيات مختلفة إذا كانت لها نفس الصفة. فإذا كان قتل الحيوان إجراميًا من جانب الإنسان، فمن المنطقي أن يكون نفس الفعل إجراميًا من جانب حيوان آخر. بطريقة أو بأخرى، ينبغي لمدافعتنا عن حقوق الحيوان أن تشيد بفكرة انقراض جميع الحيوانات آكلة اللحوم، على الأقل بتأثير من هذه «العدالة» الإلهية التي تُستحضر في نهاية رسالة، ليس من المؤكد أنها أجرت قياسًا لكل العواقب. من الواضح أن هذا الاستخفاف والطيش اللذين يشكّلان ثمار الهراء هما النقطتان الرئيسيتان المشتركتان بين اللغة الجديدة والهراء، وكلاهما يدفع الناس أحيانًا إلى قول أشياء غبية وارتكاب أخطاء فادحة. لكن هذا ليس كل شيء.

كلمات ضيقة الأفق: على غرار البيضة هامبتي دمبتي

Humpty Dumpty

في الواقع، هذه الكلمات التي تحرّر نفسها فيما يتعلق بمرجعها، وكذلك فيما يتعلق بمفهومها الخاص، تفلت بطريقة ما من الحالة العادية للكلمات، لأن الكلمة تبدو دائماً إشكالية بشكل أساسي، حيث تظل دلالتها مفتوحة ويمكن أن تكون موضوعاً للتفاوض بين اثنين من المحاورين^(١)، اللذين سيعتمدان بدورهما على مدى ملاءمتها للمرجع أو على تماسكها المفاهيمي لتأكيد أو دحض أنها في هذه الحالة أو تلك تستخدم بشكل صحيح، وأنها الكلمة الصحيحة.

ومن وجهة النظر هذه، فإن اللغة حقيقةً جدلية كما أنها حقيقةً حوارية، ولا يمكن إلا لفرد مستبد مثل هامبتي دمبتي في كتابه «عبر المرأة» أن يعلن، إضافة إلى ذلك (بنبرة ازدراء إلى حد ما): «أنا، عندما أستخدم كلمة ما، [...] فهي تعني بالضبط ما قرّرت أنه يجب أن تعنيه، لا أكثر ولا أقل». هذا بالضبط ما يفعله الحمقى والأيديولوجيون. كلماتهم، التي عُرِّفت تعريفاً تعسفياً، والتي أصبحت الآن بلا أي علاقة بما ليس على شاكلتها، لم تعد منفتحة على أدنى نقاش. إنها تحريف نهائي للغة، لأنها يمكن أن تكون شائعة فحسب.

وبنفس الطريقة التي لم يعد فيها الأحمق نفسه، تماماً مثل

[Cf]. Dewitte, «La lignification de la langue», Hermes, La Revue, 2010/3, n° 58, (١)

الأيدولوجي، حساسًا بحكم تعريفه إزاء تنوع الواقع أو تعدد وجهات النظر^(١)، فإن كلماته تكون هي أيضًا ضيقة الأفق. وهي تعني «لا أكثر ولا أقل» ما يقرره -حتمًا- الشخص الذي يستخدمها، من دون أدنى اعتبار للمتحدثين الآخرين، أو للتقاليد كما يعكسها القاموس. إذا قرر هذا الشخص (الذي يتباهى، دعونا نتذكر، بأنه لا يملك «أي تعاطف») أن كلمة «قاتل» هي الأنسب لتعريف مهنة الجزار، حسن، فهذا ما ستعنيه هذه الكلمة التي أصبحت مرجعية ذاتية بسبب عدم اتساق تعريفها. لكن مثل هذه الكلمات لم تعد كلمات حقيقية، بل إشارات أحادية ولم يعد معناها قابلاً للتفسير.

ومع ذلك، ومن خلال مفارقة غريبة، تصبح هذه الكلمات-الإشارات التي تسعى إلى فرض نفسها بشكل موثوق في المحادثة، حيث لم يعد من الممكن مناقشتها، غير قابلة للجدل في الواقع. ولذلك لا يمكننا إلا أن نعتمدها من دون مناقشة، أو... أن نعارضها، ولكن بعد ذلك على مسؤوليتنا الخاصة.

كلمات شعارات: صرخات حرب المجموعة

لأن هذه الكلمات-الإشارات تشكّل أيضًا -بالمعنى الاشتقاقي للمصطلح- شعارات (الكلمة تأتي من اللغة الجيلية الاسكتلندية وهي

Cf R. Zazzo, qui fait de l'incapacité du sujet a «se décentrer» de lui-même et (١) «4 se voir avec les yeux d'autrui» une des sources principales de la connerie («Quest-ce que la connerie, madame?», dans Ou en est la psychologie de l'enfant ?, Denoël, 1983, p. 52).

تعني صرخة الحرب التي ينطق بها أفراد نفس العشيرة في انسجام تام)، لا تستخدم كثيراً لقول شيء ما، يمكن قوله عموماً بشكل أفضل بخلاف ذلك، بل لتسليط الضوء على الشخص الذي يستخدمها ضمن مجموعة رسمية إلى حد ما (على العكس من ذلك، فإن أي شخص لا يستخدم هذه المصطلحات، أو ما هو أسوأ من ذلك، يرفضها، يستبعد نفسه من المجموعة المعنية ويطرح نفسه بشكل ميؤوس منه كعدو للذات المتحدثة). لذا، فإن وصف لاعبي كرة القدم في فريق ألماني منافس لفريق فرنسي بأنهم لوطيون وسيلة لتأكيد الذات كمؤيد للثاني بوصفه فريقاً وطنياً، وكرجل فخور بمغايرته الجنسية، وما إلى ذلك. وبنفس الطريقة، تشير الرسالة التي نشرتها هذه النشطة على فيسبوك إلى الرغبة في التواطؤ الملموس في الأسلوب العامي لمحاوريها الافتراضيين (ماشي إيه / حسناً «Ben quoi»)، والرغبة في التميز الذي يتجلى في الطريقة التي تقف بها أمام العقل القوي في حين أنها تتظاهر بمعارضة رأي الأغلبية، الدوكسا («إنه يصدملك» / «ليس أنا»). هذا العقل النقدي الواضح، المستفز بعض الشيء، الذي لا يتجاوز أبداً المجموعة التي ينتمي^(١) إليها، مشترك هنا مرة أخرى بين الأحمق والأيدولوجي. وعلى الرغم من خطابهما التبسيطي -أو بالأحرى بفضله- فإنهما يستمدان منه الشعور بالتفوق لشخص يفهم كل شيء. مثل هذا الشعور هو مصدر هراء لغوي كثير بالإضافة إلى النجاح

(١) التعليقات المليئة بالهراء والكلمات الوقحة هي قبل كل شيء قطيعية، حتى لو كانت، كما كتب أدورنو، «تبدو كأنها تضمن، حينما نحفظ بها في أفواهنا، أننا لا نفعل ما نفعله»، فهي أي ثغاء «مع الجمهور» (لغة الأصالة، بابو وريفاج، ٢٠٠٩، ص ٦٠).

المبهر، الذي لم ينكر قط، لجميع اللغات المبهمة (الخشبية). تتمتع هذه الأخيرة، كما هي الحال في كثير من الأحيان، بجودة ملحوظة تتمثل في السماح لأولئك الذين يستخدمونها بإصدار أحكام على كل شيء تقريباً، وبالتأكيد حادة، لكنها نهائية ومضمونة، وبالتالي، مطمئنة في نهاية المطاف. أما الشك، فهو على العكس من ذلك، هو القلق الفكري، الذي يتعارض مع الهراء، ويحتل مكانة بارزة بين الترياق الثمين لهذين الأيديولوجيا.

فقدان الحس المشترك

إن الانفجار الأيديولوجي الحالي، الذي تفضّله من بين أمور أخرى الخوارزميات والشبكات الاجتماعية التي تولّد ثقافة متخصصة وتربط أعضاء مجموعات متنوعة، يسهّل انتشار التعبيرات العامة التي تفلت بتزايد من الحس المشترك. وفي الوقت نفسه، فإن هذه الشبكات نفسها تجعل حدود مجموعات التقارب المذكورة قابلة للاختراق من خلال إثارة الارتباك بين ما هو خاص أو شبه خاص وما يصبح عاماً، وبالتالي بين ما يمكن أو لا يمكن قوله علناً.

وهكذا، بمجرد استنكار رسالة هذه الشابة، الصادمة لغالبية الناس، من مستخدمي الإنترنت الآخرين، الذين لم يشاركوها مفرداتها ولا تصوّراتها الأيديولوجية السابقة، كان أول رد فعل لهذه الشابة هو الاحتجاج على أن «هذا المنشور موجّه فقط [إلى أصدقائها]»، ثم التوجه بعد ذلك إلى جمعية «L 214»، وهي جمعية حقوق الحيوان التي حدّدتها. لقد شعرت أيضاً بإهانة شديدة، لأن هذه الجمعية نأت بنفسها

على الفور، من خلال بيان صحفي، عن تعليقاتها^(١).

أما الملاحظة الشائنة التي أدلى بها معلقنا الرياضي، فإنها لو لا حقد طرف ثالث، لم تكن لتُنشر على الملأ ولم تكن لتؤدي إلى الفضيحة التي نعرفها.

تكشف هاتان الحكايتان عن خطاب عام في أزمة، وهو محاط الآن من جميع الجوانب بشككين من أشكال إساءة استخدام اللغة، اللذين، على الرغم من اختلافهما، يتقاربان في الجوهر؛ أي فقدان الحس السليم. فمن ناحية، نحن نتعامل مع تعابير اصطلاحية مفاهيمية غالبًا ما تعود أصولها إلى العلوم الإنسانية، لكنها تظل غامضة وصادمة إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى المتحدثين العاديين (ثقافة الاغتصاب، والجنس، وعنصرية الدولة، وما إلى ذلك)؛ ومن ناحية أخرى، إلى الوقاحة الاستفزازية التي تتدخل في المجال العام بشكل لا إرادي (في حالة صحفيينا)، أو طوعًا (وهو ما يتجلى، على سبيل المثال، في تغريدات الرئيس ترامب أو في أيام فافانكولو التي نظمها في إيطاليا حركة ٥ نجوم).

إن الاستخدام العام للعقل يكافح من أجل كبح هذين الشككين

(١) لاحظ أن هذه هي الحال في جميع المجموعات، بمجرد أن يكشف الأحمق عن نفسه بأنه أحمق للغاية ويتجاوز الخط غير المرئي الذي يميز التهريج عن حماقة المحضة، فإن هذه الأخيرة تكشف بشكل عابر عن غموض مؤسسي، حيث تغطي كلمة «أحمق» مجموعة واسعة من المعاني، بدءًا من الازدراء اللاذع للغاية وحتى الإعجاب الأكيد. وينطبق الشيء نفسه، في رواية ١٩٨٤، على كلمة «لغة البطة» (canelangue)، والتي لها أيضًا «معنى مزدوج»، والتي يمكن استخدامها اختياريًا للسخرية من منشق أو لتكريم عضو أرثوذكسي في الحزب (ص ٤٠٥).

من الإساءة لصالح الحس السليم الذي من دونه لا يمكن للكلمات والخطب أن تحقّقًا الإجماع، ولو بالحدّ الأدنى. ثم يتلخّص النقاش العام في صراع الشعارات التي يرفضها المتخاصمون، بدلًا من التعارض معها، من خلال التنديد بطبيعتها الخرقاء. وبما أن الدراسات الميدانية التي أجريت حول موضوع الحماقة، بما في ذلك دراسة رينيه زازو المذكورة أعلاه، أثبتت أننا دائمًا حمقى بالنسبة إلى شخص ما، يمكننا تخمين عقم مثل هذه المواجهات الأيديولوجية.

الأسوأ في كل هذا، أنه بما أن الحماقة مُعدية، فإننا جميعًا نخسر عندما يختفي هذا الحس السليم. أذان القضية الناشطة النباتية لدعوتها للإرهاب، وقد أصيب مستخدمو الإنترنت بالفرع من رهاب المثلية الواضح لدى هذا المعلق الرياضي. يمكننا أن نتساءل عما إذا كانا، بأخذ كلام هذين المثيرين للشغب على محمل الجد، واللذين لم يتطلب تجاوزهما اللغوي كثيرًا، لم يُظهرا أيضًا افتقارًا فريدًا إلى الانفتاح الذهني فيما يتعلق بالملاحظات التي ربما كان ينبغي الإدلاء بها فقط، كما هي عليه. كانت حماقات بسيطة.

لا تجعلنا العواطف (دائمًا) أغبياء

مقابلة مع أنطونيو داماسو

أستاذ علم الأعصاب وعلم النفس

ومدير معهد الدماغ والإبداع بجامعة جنوب كاليفورنيا في لوس أنجلوس

- من الأفكار الشائعة أن العواطف تجعلنا بُلهًا. هل هو أبله ليصدق هذا؟

- وهذا الاعتقاد عام للغاية بحيث لا يصف مدى تعقيد المشكلة. أولاً، العواطف متنوعة للغاية. بعضها يجعلنا أذكاء بشكل لا يُصدق عندما تكون مناسبة للموقف، والبعض الآخر يمكن أن يجعلنا نتصرف بطرق غبية أو خطيرة. ولذلك يجب أن نميّز بين العواطف السلبية مثل الغضب أو الخوف أو الازدراء، وبين المشاعر الإيجابية مثل الفرح أو الرحمة، التي تجعلنا أفضل، وتساعدنا على التعاون، وتجعلنا نتصرف بذكاء أكبر. بالطبع، كل العواطف يمكن أن تكون لها جوانبها السلبية: إذا كنت متعاطفًا جدًا أو لطيفًا للغاية، فمن الممكن أن تُخدع من دون أن تصبح أفضل. لذا، دعونا لا نضع كل العواطف في نفس الحقبة. ودعونا لا ننسى أن الموقف هو الذي يحدّد هل سلوكنا سيكون ذكيًا أم غبيًا.

لا تنشأ العواطف والمشاعر بشكل منعزل، فالعقل ضروري للحكم على أفعالنا. وهذا أمر مهم من منظور تطوري، لأن جنسنا البشري اختبر العواطف لأول مرة من دون أن يكون أسلافنا على علم بها. وفي وقت لاحق جاء الشعور؛ أي جزء من التفكير في عواطفنا. كل هذا كان محكومًا بالعقل، بناء على المعرفة والفهم المناسب للمواقف. فالذكاء عند الإنسان هو معرفة كيفية التفاوض بين ردود الفعل العاطفية من جهة، والمعرفة والعقل من جهة أخرى. المشكلة ليست في العاطفة وحدها، ولا في العقل وحده. العقل وحده جافٌ بعض الشيء؛ قد يكون مناسبًا لمواقف معينة في حياتنا الاجتماعية، ولكن ليس لجميعها، إنه بعيد عن ذلك.

- لقد أثبت أنه عندما يتجرد المرضى من مشاعرهم بسبب إصابة في الدماغ، فمن الصعب عليهم اتخاذ خيارات جيدة؛ ما يعني أنه في الوضع الطبيعي، العقل والعاطفة لا يتعارضان.

- في الواقع، وهنا مرة أخرى، إنها مسألة تفاوض. لا يمكن للإنسان أن يعمل بكامل طاقته بعقله فقط، أو بعواطفه فقط. كلاهما ضروري. بطريقة ما، لقد تطور العقل استنادًا إلى العواطف التي تبقى في الخلفية لإشراكنا في موقف ما أو إبعادنا عنه. فكرة أننا يجب أن نعتمد فقط على عواطفنا أو على عقلنا لنعيش حياتنا، هراء كبير!

- كيف يمكننا أن نفسر أن أشخاصًا أذكى جدًا، وأحيانًا متعلمين جدًا، يمكن أن يؤمنوا بأشياء غيبية تمامًا، وحتى خطيرة؟

- يجب علينا أن نقبل حقيقة أنه في ظل التعقيد الهائل للإنسان، لدينا قدر هائل من المعرفة وكذلك مجموعة واسعة بشكل لا يصدق من ردود الفعل المحتملة، بحجة أن علم النفس وعلم الأعصاب يطوران نماذج عامة للأداء البشري، ولا ينبغي لنا أن نستنتج من ذلك أننا جميعاً نعمل بنفس الطريقة. وهذا سيكون خطأ كبيراً جداً، وخطراً كبيراً للغاية. بالطبع، نحن جميعاً بشر، وبالتالي نستحق الاحترام والحرية والرعاية. ولكن مع كل ذلك، فنحن جميعاً مختلفون تماماً، ولكل منا مرجعيته الخاصة من السلوكيات، وأسلوبه الفكري، وأسلوبه العاطفي، والحالة المزاجية.

البعض منا مرح للغاية، وحيوي، ويستيقظ في الصباح وهو يغني، في حين يفضل البعض الآخر البقاء نائماً. يجب علينا أن ندرك هذا التنوع اللا متناهي تقريباً. والأكثر من ذلك، أننا لا نعيش بمفردنا، بل بين البشر الآخرين، ضمن ثقافة معينة ألهمتنا تطوُّرنا. وبفضل هذا التنوع، يمكننا بالتالي أن نصدّق أشياء بلهاء تماماً، نعرف أنها خاطئة على المستوى العلمي والإحصائي. نحن جميعنا مختلفون لدرجة أنه حتى الحديث عن ثقافة غربية أمر قابل للنقاش. بل إننا نعيش في ثقافات صغيرة. الثقافة الفرنسية والثقافة الأمريكية هما بالفعل عامتان للغاية. بالطبع، يمكننا التعرف بسهولة إلى سمات معينة مثل سمات فرنسية أو أمريكية نموذجية، لكنها ليست مجرد صور نمطية؛ لا يزال يتعين علينا أن نضع في الاعتبار الأقسام الفرعية الخاصة بمجموعاتنا التي ننتمي إليها والتقاليد والأعراف فيما يتعلق بالسلوكيات. يبدو الأمر معقداً،

لكن الحقيقة وبكل بساطة أننا لا نختزل أنفسنا في الصور النمطية، وعلى أي حال، فإن هذا ينبغي ألا يكون.

- يتناول آخر أعمالك، نظام الأشياء الغريب l'Ordre étrange des choses، الجذور البيولوجية للثقافة. هل تعتقد أننا نعيش اليوم، في ظل ثقافتنا المعولمة، في العصر الذهبي للحماقة؟

- من الصعب القول! من وجهة نظري نعم ولا. في عصرنا هذا، نحن لا نعرف كل شيء، ولكننا نعرف أكثر بكثير مما عرفناه من قبل. إن تراكم المعرفة العلمية حول علم الأحياء، على سبيل المثال، المناخ، والفيزياء، والأمراض البشرية مثل السرطان، لم يصل إلى مثل هذه المستويات من قبل. لقد أحرزنا تقدماً هائلاً. ومع ذلك، نظرًا للطريقة التي تصل إلينا المعلومات بها، لا سيما من خلال الاتصالات الرقمية والشبكات الاجتماعية، فإننا نعيش أيضًا في زمن يمكن أن نُخدع فيه بسهولة، ونسمح لأنفسنا بالتأثر بالأخطاء أو الأكاذيب. مرة أخرى، لا يمكن أن تكون الإجابة ثنائية. ذلك يعتمد على من أنت، وأين أنت. إن معرفتنا أكبر بكثير مما كانت عليه قبل عشر سنوات، وهذا أمر لا جدال فيه، لكننا نتعرض لفيضانات من المعلومات المضللة المستخدمة بإصرار. إنه متناقض تمامًا. هذا العصر هو الأفضل والأسوأ، بالنسبة إلى الحماقة، في نفس الوقت.

- هل علم الأعصاب المنتصر غبي وخطير في بعض الأحيان؟

- على أي حال، فهو يهمني كثيرًا. نريد أن نعرف كيف نحن، وكيف يعمل دماغنا وعقولنا وبيولوجيتنا، ولهذا السبب يحظى علم الأعصاب

بشعبية كبيرة. عندما يحظى أحد التخصصات بشعبية كبيرة، فإننا نخاطر
برؤية إساءة استخدامه من الممارسين السيئين. من الواضح أن هناك
علمًا جيدًا وعلماً سيئًا، لكن الأمر لا يتعلق بالحماسة. ولا أعتقد أن علم
الأعصاب بشكل عام أسوأ من الفيزياء أو علم المناخ أو أي علم آخر.
أجرى الحوار جان فرانسوا مارميون

الحماقة والنرجسية

چان كوترو

طبيب نفسي فخري في المستشفيات،

عضو مؤسس في أكاديمية فيلادلفيا للعلاج الإدراكي

«يسير مثقفان جالسان مسافة أقل بُعدًا من حيوان يمشي»

ميشيل أوديار، تاكسي إلى طبرق (١٩٦١)

من الصعب تعريف الحماقة، وغالبًا ما يكون من الصعب إدراكها في النفس وفي الآخرين أيضًا. ومع ذلك، أجرى عالم النفس الإدراكي البارز، رينيه زازو، عملاً تجريبيًا^(١) حول هذا الموضوع. كان زازو رجلًا لامعًا، متخصصًا في دراسة الذكاء والصورة الذاتية للذين أسهم فيهما مساهمة كبيرة. ولم يتردد في نشر نتائج هذه الدراسة، مخاطراً بصدمة عالمه الأكاديمي.

لقد كانت دراسة استقصائية لمائة من الأطباء وأطباء نفسيين وعلماء نفس في مستشفى باريس كبير، وكذلك لنحو عشرين شخصية

(١). Ot en est la psychologie de l'enfant?, Denoël, 1983.

من الطب النفسي الباريسي. أرسل إليهم قائمة تضم ١٢٠ اسمًا، بما في ذلك أسماءهم، وطلب منهم وضع علامة على الأسماء التي تستحق لقب «الأحمق». كما وضع زازو اسمه في القائمة. لكنه لم يذكر درجاته. وظهرت قائمة مختصرة مكونة من خمسة أسماء أيدها أكثر من ٨٥٪ من المصوتين، لكن اسمًا واحدًا فقط حصل على جميع الأصوات. لقد كان رئيسًا عظيمًا، وطبيبًا جيدًا، وكان معدل ذكائه لا يقل عن ١٢٠، لكنه كان يفتقر إلى أي حس دعابة. كان واسع الاطلاع للغاية، لكنه كان يعاني صعوبة في التواصل مع الآخرين، ونقصًا كبيرًا في الحساسية، وكان قليل التعاطف؛ ما جعله مؤلمًا ومهينًا، من دون أن يشعر بذلك. كان ذكاؤه المنطقي مثاليًا، لكنه ارتكب أخطاء فادحة بسبب عدم مراعاة الآخرين. في الواقع، كان يعيش محبوسًا في فقاعته النرجسية.

وفقًا لهذا الاستطلاع، فإن الأحمق هو شخص يفتقر إلى الذكاء العاطفي ويظل يسيء إلى نفسه وإلى الآخرين بسبب أنانيته. وهذا الوصف قريب من وصف اضطراب الشخصية النرجسية، الذي سأتابع الخيط الفاصل بينهما من خلال علاقات العمل، والعلاقات الرومانتيكية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

اضطراب الشخصية النرجسية

يتميّز بنمط عام من التخيُّلات وسلوكيات العظمة التي تكون مصحوبة بالحاجة إلى الإعجاب والافتقار إلى التعاطف^(١).

وفقاً للدراسات يصاب به من ٨, ٠ إلى ٦٪ من عموم^(٢) السكان، وسيكون أكثر شيوعاً في الأجيال الشابة المولودة بعد تعميم الإنترنت^(٣).

أظهرت دراسة أجريت إجراء جيداً أن هناك ثلاثة أنواع رئيسية من اضطراب الشخصية النرجسية^(٤):

١ - اضطراب نرجسي خبيث وعظيم، وهو مناور، واستغلالي، ومخادع، ومستبد، وعدواني، وهجومي، وبلا تعاطف دافئ. فعظمته لا تُعوّض، لأنه مقتنع أن له الحقوق كافة. وبالتالي فإن الاضطراب

DSM-5, Manuel Diagnostique et Statistique des Troubles Mentaux, Masson, (١) 2015.

Kay, «Toward a clinically more useful model for diagnosing narcissistic (٢) personality disorder». in Am J Psychiatry, 2008, 165, 11, 1379-1382.

ES. Stinson, D.A. Dawson, R.B. Goldstein et al, «Prevalence, correlates, (٣) disability, and comorbidity of DSM-IV narcissistic personality disorder: results from the wave 2 National Epidemiologic Survey on Alcohol and Related Conditions». in J Clin Psychiatry, 2008; 69:1033-1045.

* J. M. Twenge et W.K. Campbell, The Narcissism Epidemic, Atria Paperback, 2009.

E. Russ, J. Shedler, R. Bradley, D. Westen, «Refining the construct of narcissistic (٤) personality disorder: diagnostic criteria and subtypes». in Am J Psychiatry, 2008, 165, 11, 1473-81.

المركزي لهذا النوع من الأشخاص هو المبالغة الدائمة في تقدير أنفسهم. اضطراب النرجسي الخبيث قريبٌ من اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، إلا أنه ليس مندفعاً، لا يجازف وغير مسؤول. غالباً ما يكون متكيّفاً ويعرف كيفية التراجع بمجرد مقاومته. ويزداد الأمر خطورة مع الضحايا الذين يختارهم.

٢- اضطراب الشخصية النرجسية غير المستقرة، الهشة، الاكتئابية، القلقة، الانتقادية الحسودة، يتسم بالأهداف العالية وقد ينشد الكمال. يخفي شعوره بالنقص بالعظمة التي تظهر عندما يشعر بالتهديد.

٣- اضطراب الشخصية النرجسية عالية الأداء، التي تتسم بالعظمة، والتنافس، والاستعراض، والإغراء، والكاريزما، وهي في سعي دائم إلى السلطة. لكن على الجانب الإيجابي فهي نشيطة وذكية ومريحة في العلاقات وموجّهة نحو تحقيق الذات. وهذه هي نرجسية عديد من القادة والفنانين والعلماء.

ويجب علينا أيضاً أن نميز هذه الاضطرابات الثلاثة الكبرى من النرجسية الثقافية المبتذلة والمعاصرة، التي تجد أصولها في المجتمع الاستهلاكي منذ ستينيات القرن العشرين والتطور الحديث لتقنيات الاتصال الجماهيري، الذي جعلنا نعيش في ثقافة النرجسية لمدة ثلاثة أجيال^(١).

C. Lasch, The Culture of Narcissism, Norton, 1979. Traduction française : La (١) Culture du narcissisme. La vie américaine à un âge de déclin des espérances, éditions Climats, 2000.

الحماقة النرجسية في عالم العمل

لا شك في أن الحماقة تتجلى في علاقات العمل أكثر من غيرها، من خلال محادثة أو تعبير دارج أو لفظة أو نظرة تعني: «إنه أنا الذي أرى من خلالك». هناك بعض المتعة في لعب دور الأحق للحصول على فوائد اجتماعية، لأنه لا يوجد شيء أفضل من ترك وضعية الذكاء لمن يعتقد أنه يسيطر عليك. إن لعب دور الأحق وسيلة للوصول إلى مكانة عالية، من خلال استراتيجية الوضع المنخفض التي تستند إلى تضخيم إيجو الأقوياء الذين نعتد عليهم. بيت القصيد هو ألا تنخرط في اللعبة لتصبح ملك الحمقى. وكما قال بلزاك في رواية «كاهن تور» (Le Curé de Tours): «سيدي، نحن نكدر أنفسنا حتى عندما نكدر الآخرين».

أتذكر أنه في بداية مسيرتي المهنية، قال لي أحد رؤسائي: «كنت أرغب دائماً في العمل مع الحمقى، لكن في النهاية، كنت مخطئاً معك». لقد قبلت بابتسامة هذا التكريم للرديلة النخبوية؛ تقديرًا لفضيلة مبتدئ عرف كيف يلعب دور الأحق للحصول على وظيفة. أخيراً، مع مرور الوقت، ومع تقلبات البرامج الدراسية، انتهى بي الأمر بلا شك إلى وضع نفسي، أحياناً، في مصاف الحمقى.

إلى جانب لحظات الحماقة هذه، يمكننا التمييز بنوياً بين نوعين رئيسيين من الحمقى.

الأول هو الأخوة الواسعة من «الحمقى المجيدين». يقدم هذا التنوع

المتضخم والمتنفخ أنا متضخمة دائماً. نواجههم كثيراً في الشركات، ويزدهرون في المكاتب الإدارية والمراكز الاستشفائية الجامعية. إنهم غير ضارّين عموماً، ما دمت تعرف كيفية تملّقهم للحصول على ما تريد. إنهم يعانون من اضطراب الشخصية النرجسية المبتذل والخفيف، حيث يمكن بسهولة أن يسد ثغرات العيوب الأساسية بها المرؤوسون الماهرون.

الفئة الثانية أكثر سُمية بكثير.

إنه «أحمق قذر»، ذلك الذي يستمتع بخضوع الآخرين ومعاناتهم، والذي يجعل حياته المهنية تُشبع شغفه بالإذلال. إنه اضطراب شخصية نرجسية خبيث، يمكن أن يمثّل في بعض الأحيان الثالث المظلم الذي يجمع بين النرجسية والميكافيلية والاعتلال النفسي^(١). يمكن أن يعيثُ فساداً في الشركات كما أظهرت دراسة ميتا-تحليلية^(٢).

وقد خُصّص له كتاب كامل يستحق القراءة المتأنية، لأنه على الرغم من عنوانه الفكاهي، جدي للغاية، فهو عمل عالم النفس الأمريكي روبرت ساتون، نُشر عام ٢٠٠٧: قاعدة عدم وجود الحمقى The No Asshole Rule، وترجم إلى اللغة الفرنسية الهدف الصفري-القذر-الأحمق Objectif Zéro-sale-con (٢٠١٢).

(١) D.N. Jones, D.L. Paulhus, «Introducing the short Dark Triad (SD3): a brief measure of dark personality traits», Assessment, 2014, 21, 1, 28-41.

(٢) E.H. O'Boyle, D.R. Forsyth, G.C. Banks, M.A. McDaniel, «A meta-analysis of the Dark Triad and work behavior: a social exchange perspective». in J Appl Psychol, 2012;97(3):557-79.

القاعدة الأساسية «لا حمقى في العمل»، تنصُّ على ما يلي: قبل تعيين شخص ما في شركة، أو إدارة، أو جامعة، بصرف النظر عن مدى تألقه في سيرته الذاتية، يجب عليك أولاً التأكد من أنه ليس أحمقٌ قذراً. ومن طرق اكتشاف ذلك، بالإضافة إلى سمعته والاتصال المباشر به، تقييم سلوكه من خلال استبيان يطلب منه إكماله، على أمل أن يفعله بصدق. من خلال قراءة هذا الاستبيان بعناية، يمكن للجميع أن يدركوا أنه يقيم السلوكيات والأفكار المعتادة لاضطراب الشخصية النرجسية. فيما يلي الأسئلة الستة الأولى:

– وضح أي العبارات التالية صحيحة (ص) وأيها خاطئة (خ)^(١).

أ. رأيك في الناس على نحو حقيقي.

١ – أنت محاط ببُلّه غير أكفء، ولا يمكنك إلا أن تجعلهم يعرفون هذه الحقيقة المحزنة قدر الإمكان.

٢ – لقد كنت شخصاً جيداً جداً قبل أن تبدأ العمل مع هذه المجموعة من البلداء crétins.

٣ – لا تثق بالأشخاص الذين يحيطون بك، وهم لا يثقون بك.

٤ – زملاؤك هم بالضرورة منافسون.

٥ – تعتقد أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى القمة هي إبعاد الآخرين عن طريقك.

Extrait de Péchelle: «Etes vous un sale con certifié?», Sutton, 2007, version (١) française, 2012.

٦- تستمتع سرًا بمعاناة الآخرين.

ومن بينهم يجنّد «الحمقى القذرون المفيدون» لتمزيق الشركات من دون أي وازع.

وفي هذه الفئة يوجد المتحرّشون والمتحرّشات جنسيًا والمهنيون. في مواجهة هؤلاء الأشخاص، فإن النصر الوحيد هو الهروب، في غياب إجراءات قانونية لكشف انحرافهم بالدليل.

ونادرًا ما يطلبون معالجًا، إلا في حالات الفشل أو التهديدات التي تهدّد حياتهم المهنية. بشكل عام، عندما يذهبون لرؤية طبيب نفسي، فإنهم يطلبون منه إعادتهم إلى الدرب لتكرار نفس السلوكيات. غالبًا ما يطلبون منه أن يعلمهم تقنيات لمناورة الآخرين بشكل أفضل.

الترجسية والحقاقة وتكرار سيناريوهات الحياة

نادرًا ما يرى الأطباء النفسيون اضطرابات الشخصية الترجسية، لكنهم كثيرًا ما يرون ضحاياها عالقين في سيناريوهات حياتهم. سيناريو الحياة هو وضع فخ يكافح فيه الشخص من دون نجاح، ويتكرّر في مناسبات عديدة طوال حياته. فالفرد يفعل الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا، على أمل الحصول على نتائج مختلفة.

وهذه هي الحال مع النساء والرجال الذين يتزوجون (ويتزوجون مرة أخرى) شركاء نرجسيين. غالبًا ما يكونون مكتئبين وغير حازمين وقلقين على أنفسهم، ويشعرون أنه لا يمكنهم إلا أن يحبوا هذا الشخص الرائع، الذي يشعرون بالذنب تجاه أدنى رغباته.

كيف نتعامل مع هذا النوع من سيناريو الحياة الذي يكون فيه الشخص النرجسي وضحيته شخصين ذكيين، ويتصرفان بطريقة سيُحكم عليها من الخارج بأنها غبية تمامًا؟ غالبًا ما تكون مساعدة العلاج النفسي الإدراكي ضرورية، ومن شأنها تعديل الأنماط غير القادرة على التكيف لدى الضحايا للسماح لهم بالتصرف كبالغين أصحاء في مواجهة ملك صغير.

في مواجهة شخص نرجسي عالي الأداء، سيكون الشخص البالغ الصحيح قادرًا على قبول دور الحامي أو المؤيد ويجد مبتغاه في نجاح كليهما. النرجسي هو القوة الدافعة للزوجين، لكنه يعرف كيف يتقاسم المنافع ويضع نفسه في وضعية المغوي الأبدى أو المغوية.

لقد واجه الشخص النرجسي المرأة المتملقة والمتاحة دائمًا التي تسمح لإبداعه بالازدهار. قد تكون مشكلات الزوجين هي الضجر أو اختيار نجم آخر ليتبعه الشريك أو الشريكة.

في مواجهة شخص نرجسي خبيث، سيكون لدى الشخص البالغ السليم مهمة صعبة تتمثل في وضع حدود، سيكون من الصعب جدًا وضعها عندما لا يكون هناك ندم أو شعور بالذنب. عادة ما ينفصل الزوجان. أحيانًا يحدث هذا الانفصال مع عنف وزوبعة عاطفية. ليس من غير المألوف أن ننصح شخصًا تحت السيطرة بالمغادرة من دون ترك عنوان لتجنب العنف أو الابتزاز العاطفي. في مواجهة شخص نرجسي غير مستقر، سيتعين على البالغ السليم أن يضع حدودًا مع الطفل الغاضب والمندفع، ويتعاطف مع الطفل الضعيف الذي يختبئ

وراء الغطرسة. لكن البالغين الأصحاء يمكن أن يملوا أيضًا من دور الوالد الطيب-المعالج النفسي الذي يُصلح الجروح المبكرة.

الترجسية والحماقة (الهراء) ووسائل التواصل الاجتماعي
دُرست العلاقات بين شبكات التواصل الاجتماعي والشخصية
الترجسية بطريقة علمية في السنوات الأخيرة، وإليك بعض الدراسات
البارزة.

قيّم كريستوفر كاربنتر الترجسية لدى ٢٩٢ شخصًا يُظهرون سلوكيات
تعزيز الذات^(١). أظهرت هذه الدراسة أن درجة «الاستعراضية» في قائمة
الشخصية الترجسية ترتبط بسلوكيات تعزيز الذات، في حين أن النتائج
الخاصة بنود «الحقوق المبالغ فيها» و«المناورة» تتنبأ بالسلوك المعادي
للمجتمع على الإنترنت: التعليقات الانتقادية المبالغ فيها، والردود
العدوانية على التعليقات السلبية من أجل الحفاظ على الصورة الاجتماعية
للشخص، أو التعبير غير المناسب عن الغضب. بمعنى آخر، الشخصيات
الترجسية الخبيثة هي التي تهين الآخرين أكثر من غيرها على الإنترنت.

قيّم «لي جا» و«سونج إ» العلاقات بين درجة الترجسية وسلوكيات
تعزيز الذات في الشبكات الاجتماعية عند نشر صور السيلفي^(٢). يلتقط

C.J. Carpenter: «Narcissism on Facebook: Self-promotional and anti-social (١)
behavior». in Personality and Individual Differences, 52, 2012, 482-486.

J.A. Lee et Y. Sung, «Hide-And-Seek: Narcissism And «Selfie»-Related (٢)
Behavior» in Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking, DOI:
10.1089/Cyber.2015.0486.

الأشخاص الأكثر نرجسية صور السيلفي، ويعلقون أهمية كبرى على الإعجابات التي يمنحها لهم الآخرون، ويتابعون صور سيلفي الآخرين باهتمام أكبر. ومع ذلك، فإنهم لا يعطون مزيداً من الإعجابات لصور سيلفي الآخرين مقارنةً بأولئك الذين لديهم درجات أقل في النرجسية. بمعنى آخر، يحب الأشخاص النرجسيون أن يقدّر ذواتهم الآخرون، لكنهم يترددون في الردّ بالمثل. جمعت سيلفيا كاسال ومعاونوها عينة مكونة من ٥٣٥ طالباً، قبل مقارنة الأشخاص غير النرجسيين والأشخاص الذين يعانون من نرجسية ضعيفة، وغيرهم من الأشخاص الذين يعانون من نرجسية متضخّمة^(١). فقط ذوو النرجسية الضعيفة، مع فرط حساسية نرجسية، عرضوا استخداماً إشكالياً للإنترنت وتفضيلاً للتفاعلات عبر الإنترنت. ولم يختلف متضخمو النرجسية عن الأشخاص غير النرجسيين في هذا الصدد. وبعبارة أخرى، كلما كانت النرجسية ضعيفة لدى الشخص، انغمس في الاستخدام الإشكالي للإنترنت.

أصبحت المضايقات على فيسبوك ظاهرة متكررة. تشير إحصائية^(٢) إلى أن ٤٠٪ من الأشخاص الذين يستخدمون الإنترنت يتعرّضون للتحرش، ولكن قبل كل شيء، تُظهر أن الفئة الأكثر تعرّضاً للتحرش هي الفئة العمرية من ١٨ إلى ٢٤ عاماً، حيث تبلغ النسبة ٧٠٪.

Casale, G. Fioravanti, L. Rugai, «Grandiose and Vulnerable Narcissists: Who (١) Is at Higher Risk for Social Networking Addiction?» in Cyberpsychology, Behavior, and Social Networking, 2016, 19, 8, 510-515.

Pew Research center, October, 22, 2014, (٢)
http://www.pewinternet.org/files/2014/10/P1_OnlineHarassment_102214_pdf1pdf

في هذه الفئة العمرية، اضطرت ٢٦٪ من الشابات إلى تحمّل ملاحظات المتابعين المهووسين (الملاحقين) عبر الإنترنت.

أظهرت دراسة^(١) وجود صلة بين «التصيد» والرعاية المظلمة للشخصية التي تجمع بين النرجسية والميكافيلية والاعتلال النفسي والسادية.

عبادة الباطل

في ١٧ سبتمبر ٢٠١٦، أُعلن عن هجوم واحتجاز رهائن في كنيسة في منطقة هال. وأثبت التحقيق أن الأمر كان مزحة هاتفية قام بها مرافق يخضع بالفعل للعلاج مع وجوب الرعاية في الوقائع المماثلة.

وقد أدى هذا الهجوم الكاذب إلى تعبئة الشرطة على حساب حالات الطوارئ الحقيقية. تم تحقيق الهدف المنشود بالسخرية والسادية الهادئة؛ إثارة الضجة. إذا واجه الآخرون مشكلة أو متاعب: ف«هذه مشكلتهم». كان الهدف الرئيسي هو تحريك الشرطة للتمكّن من التباهي بذلك أمام الصحفيين، مع عدم وضع معاناة الآخرين في الاعتبار. وفي الحالة الأخيرة، فإن تقوية الأنا على المدى القصير قد تُستبدل بها على المدى الطويل عواقب عقابية. ولكن بصرف النظر عن ذلك، كان الأمر في المقام الأول مسألة الهروب من جحيم عدم الكشف عن الهوية والوجود، أخيراً، كشخص تحت النظرة الوحيدة التي تهم؛ وهي نظرة وسائل الإعلام.

E.E. Buckels, PD. Trapnell, D.L. Paulhus: «Trolls just want to have fun, (١) Personality and Individual Differences», 2014, 67, 97-102.

مَن أسوأ المتلاعبين بالإعلام؟ وسائل الإعلام!

مقابلة مع رايان هوليداي

كاتب، ومدير تسويق سابق، وكاتب عمود في صحيفة نيويورك أوبزرفر

- بحسب كتابك «صدّقني، أنا أكذب عليك» Croyez-moi, je vous mens، اعترف أحد المتلاعبين بوسائل الإعلام: لكي تنجح في التلاعب بمواقع المعلومات الكبرى، فإن إحدى قواعدك الأساسية، والمفارقة، هي أنه يجب عليك أولاً استهداف الأطفال الصغار.

- في الحقيقة، يتعيّن علينا المضي قدماً بتأثير كرة الثلج من خلال استهداف المدوّنات الصغيرة، التي سوف تتناول المدونات الأكبر حجم «معلوماتها» المتطرفة وغير الدقيقة والمثيرة للجدل، وما إلى ذلك. في الولايات المتحدة، يستخدم ما يقرب من ١٠٠٪ من الصحفيين المدوّنات للعثور على معلوماتهم، لكن غالبية هذه المواقع لا تهدف إلى توليد الثقة مع القارئ وتستمر ١٠٠ عام مثل صحيفة نيويورك تايمز، بل تهدف إلى الانتشار في أسرع وقت ممكن بأي وسيلة. ويجب عليهم بأي ثمن توليد حركة مرور وعائدات إعلانات لإعادة بيعها. هناك

بالطبع طرق أخرى لاستخدام الإنترنت لإنشاء معلومات كاذبة؛ تزيف ويكيبيديا أو الدفع للمغردين ليغرّدوا بما يناسبك، مثلاً. لقد فعلت ذلك في كثير من الأحيان.

- تكتب أنه لجذب القراء، يجب أن يتلخّص العنوان في سؤال قد يكون كذبة من دون علامة استفهام. سيُتذكّر من دون علامات الترقيم، على أي حال.

- إذا رأيت سؤالاً في عنوان رئيسي، فالإجابة دائماً هي «لا». وإلا فلن نضعه في العنوان. يتعمّد المؤلفون تضليل الجمهور، لأنهم يعلمون أنه يجب عليهم جذبهم بصرف النظر عن جودة المقال. إذا دفع القراء المال لقراءته، فسيغضبون ويطالبون باستعادة أموالهم. لكن بالنسبة إلى مقال مجاني، ما الملاذ؟ لا يمكنك التراجع عن النقرة. لذا فإن المشكلة هي: كيفية تجميع أكبر عدد من النقرات لطمأنة المُعلنين وزيادة القيمة السوقية للموقع!

- في رأيك، ما التلاعب الأكثر روعة الذي أحدثته شبكة الإنترنت؟

- والأمر الأكثر لفتاً للنظر، أنه ليس حدثاً في حدّ ذاته أو حتى نظريات المؤامرة حول اغتيال كينيدي أو أحداث ١١ سبتمبر، ولكن هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور كل يوم، مع الملايين من التلاعبات الصغيرة والأكاذيب الصغيرة الدائمة التي لا يمكن تعقبها. يثق الناس بمؤلفين غير مؤهلين لتزويدهم بالمعلومات، ولا يفاجأ أحد بأن أفراداً من أمثالي يوقعون وسائل الإعلام في فخهم الخاص. لا يوجد شيء أكثر شيوعاً من محاولة التلاعب بهم. ولكن ما يثير الدهشة، من

ناحية أخرى، هو أن وسائل الإعلام لا تفعل شيئاً تقريباً لمنع ذلك، وأن هذا لا يصدّم أحداً! إذا حصل شخص ما في هذه الحالة على مائة ألف دولار من خلال إحداث ضجة زائفة على شبكة الإنترنت، فسوف يميل كثيرون إلى الاعتقاد: «عمل رائع!»، نحن سعداء تقريباً من أجله. ووسائل الإعلام الرئيسية، التي لديها معرفة كاملة بالحقائق، ستكون قد شاركت.

- أربما يكون الناس على استعداد للتلاعب بهم بشرط أن يقضوا وقتاً ممتعاً وأن يُحافظوا على المظاهر، وألا يشعروا بالإهانة من هذه العملية؟

- من المؤكد أن الجمهور يتذوّق ما هو مثير، وفي أعماقنا، غالباً ما نكون راضين عن خداعنا. إلا إذا كان التلاعب ذا طبيعة سياسية. لكن المثير للاهتمام هو أن بعض الأفعال الأكثر استهجاناً التي ترتكبها الحكومة يصاحبها صمتٌ وسائل الإعلام.

- في فيلم رجال النفوذ *Des hommes d'influence*، يخترع روبرت دو نيرو وداستن هوفمان حرباً أمريكية ألبانية، ليست سوى ستار من الدخان الإعلامي. نسمعك تقول: لا يوجد شيء مستحيل في هذا الأمر...

- وهذا بالضبط ما فعلته الولايات المتحدة بالعراق عام ٢٠٠٣! يسرّب ديك تشيني معلومات لصحفي في صحيفة نيويورك تايمز، ثم ينفيها على شاشة التلفزيون. وهكذا يلفت نائب الرئيس الانتباه إلى المعلومات الزائفة. كل الأحاديث تدور حولها، وبخاصة، جميع المقالات الافتتاحية. هذا كل شيء! إذا كان بإمكانني اختراع قصة

مختلفة لحملة إعلانية بنفسى، فلماذا لا يختلق السباسبى قصة عن منافس أو عن حكومة أخرى؟!

- مثل نبوءات تتحقق ذاتياً، أو القصص التى تخترعها وسائل الإعلام لتصبح حقيقة؟

- نعم، والمخيف هو مقدار القرارات المهمة المؤسسة على معلومات غير صحيحة أو متلاعب بها. إذا انتشرت قصة عن المشكلات التى تواجهها شركة آبل، فسوف تنخفض أسهم الشركة لأن الناس سوف يصدقونها. فالعالم الزائف يؤثر على العالم الحقيقى. وهذا فظيع. على سبيل المثال، على الرغم من التغطية الإعلامية فليس لدى أي فكرة عما يحدث بالفعل بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية. يبهزنا حدث لمدة أسبوعين، ثم ننساه تماماً لنتقل إلى شيء آخر. ربما نتذكر العناوين الرئيسية، لكن الطبيعة الحقيقية للحدث، وعواقبه الواقعية، والاستنتاجات التى يمكن استخلاصها منه، تغيب عنا. لا يمكن لأحد أن يتفق على الموضوع، فى حين أن الجميع قد تحدث عنه.

- ألا شيء يمنعك من استخدام هذه التقنيات أيضاً من أجل قضية نبيلة؟

- قد يتساءل المرء بالفعل عن كيفية إظهار مزيد من الأشياء الإيجابية للناس. لكن العالم معقد جداً، به مشكلات كثيرة، لدرجة أنني لست متأكداً من أنه من المفيد المبالغة فى الأمور الإيجابية بدلاً من المبالغة فى الأمور السلبية. لن يساعد هذا فى إيجاد الحلول. على أي حال، يجب ألا يقدم المقال الموجود على الإنترنت شيئاً صحيحاً أو خاطئاً، إيجابياً أو سلبياً، لكنه يشجع الأشخاص على النقر فوق رابط أو مشاهدة برنامج.

- إذن، لا يمكن للأمور إلا أن تسوء؟

- كنت أود أن أنهى كتابي بالحلول، لكن لا أعتقد أن هناك أي حلول. علينا أن نرى الإيجابي والسلبي، وهنا مرة أخرى: سوف يزداد الوضع سوءًا بالنسبة إلى أولئك الذين يستمرون في استشارة المواقع السيئة فحسب، ولكن سيكون من الممكن دائمًا العثور على مقالات عالية الجودة على المواقع الكبرى مدفوعة الأجر، مثل موقع صحيفة نيويورك تايمز. وبدأت عيون بعض الناس تتفتّح.

- في النهاية، وجهة نظرك فلسفية تمامًا؛ نحكي لأنفسنا قصصًا عن العالم، تصبح أحيانًا حقيقة. ولكن أين الحقيقة، إضافةً إلى، من يهتمُّ بها؟

- لا أخشى أحدًا! لقد كتبت هذا الكتاب على وجه التحديد لأن لديَّ وجهة نظر لا يمكن الاستغناء عنها بشأن عمل وسائل الإعلام، وأردت أن أدقِّ ناقوس الخطر بقلب الصفحة. في البداية، كنت مجرد رجل مسكين أجلس خلف لوحة المفاتيح، لكن بمجرد أن ترى الملك عاريًا، وكيف يعمل النظام، فأنت تريد أن تضع ختمك الخاص عليه. وسرعان ما وصلت إلى ذلك، لدرجة أنني تمكنت من الاستيقاظ يومًا ما وحدّثت نفسي أن هذا ليس ما أردت أن أفعله في حياتي.

- ولكن هل ينبغي أن نراك منقذًا أم محتالًا؟

- وعندما صدر الكتاب، قال لي كثير من الناس: «أوه، لكن ماذا فعلت!»، بممكنني الرد عليهم؟ «وأنتم ماذا تفعلون حيال هذه المشكلة؟». من يحاول تحذير الجمهور؟ لقد حاولت، على الأقل، أن

أفعل ذلك مع كتابي. إنه من أكثر الكتب مبيعاً وتُرجم إلى لغات عدة، ويقدّره الجمهور. لكن وسائل الإعلام، لا، على الإطلاق! كنت أتوقّع منهم أن يكرهوا الرسالة، وبالتالي يطلقون النار على الرسول. لكنهم يفضّلون عدم التحدّث عن الأمر، أو التظاهر بعدم وجود مشكلة. عندما كشفت عن مثل هذه العمليات، قيل لي: «وماذا في ذلك؟ أين الضرر إذا نقلنا هذه القصص الكاذبة؟». السيئ هو أنهم يحوّلون الإشاعات أو حملات الترويج الذاتي إلى معلومات. أعظم المتلاعبين بالإعلام، هي وسائل الإعلام نفسها!

- هناك عديد من وسائل الإعلام التي تنجز عملها بجدية؟

- نعم، ولكن كيف يمكنهم الوقوف في وجه الإثارة والمبالغة التي تمارسها وسائل الإعلام عديمة الضمير، التي أصبح عددها أكبر بكثير مما كانت عليه قبل عشر سنوات، والمستعدّة لشطب الواقع؟ لجذب انتباه الناس، يجب أن تحارب المعلومات الجادة ضد كل المعلومات الأخرى، وتفضيلها على المواد الإباحية التي يمكن الوصول إليها بنقرة على هواتفهم. حتى إن هناك خوارزميات تكتب المقالات بدلاً من الصحفيين.

- ما الذي يجب عليّ فعله للتأكّد من أن مقابلتك تولّد أقصى قدر من الضجة من دون أن تجعلني أخرق أخلاق المهنة؟

- أنت في حاجةٍ إلى عنوان يذهب إلى أقصى الحدود، ما من شأنه أن يجبر مستخدمي الإنترنت على النقر لمعرفة ذلك بالتأكيد، بالإضافة

إلى صورة صادمة. يجب أن يكون النص موجزًا، لأن الناس لن يكون لديهم الوقت لقراءته بالكامل. لخص كل شيء في بضع نقاط، لا توجد جمل أو فقرات طويلة. لا تخف من إزعاج القراء أو تليينهم بالحلوى.

- لذلك، حتى بالنسبة إلى النص عالي الجودة، فأنت في حاجة إلى تغليف فج.

- هذا صحيح تمامًا. أولئك الذين يكتبون للويب يستيقظون في الصباح لا يفكرون في الأخلاق أو الجودة، بل في عدد النقرات.

أجرى الحوار جان فرانسوا مارميون

التلاعب عبر الإنترنت: طفولة الفن

فيما يلي اثنان من الأساليب العديدة التي يستخدمها رايان هوليدياي لإنشاء حدث من الصفر. التظاهر بأنه خبير. سهل! سجل على موقع مثل (Help A Reporter Out HARO)، أو فلتساعد صحفيًا)، متخصص في ربط المختصين من مختلف المجالات مع الصحفيين؛ ما يُجنّب هؤلاء الآخرين إجراء أبحاثهم الخاصة. تستخدم وسائل الإعلام الأمريكية الموقع على نطاق واسع. خلال أشهر عدة، رايان هوليدياي، المسجل باسمه الحقيقي، يتظاهر بأنه، من بين آخرين، جامع أسطوانات الفينيل لصحيفة نيويورك تايمز، وهو مصاب بالأرق غير القابل للشفاء لقناة ABC News، وضحية هجوم بكتريولوجي على قناة الأخبار المستمرة MSNBC. لا يوجد صحفي يتحقق من كلامه، ولا يكلف نفسه عناء النظر إلى ما يكشفه جوجل عنه، في حين أنه يعرض نفسه علانية على

أنه مُناوِر إعلامي. من خلال الكشف عن الأسرار المخجلة، سيجذب انتباه ٧٥ وسيلة إعلام وسيحصل على أكثر من ١,٥ مليون نقرة من مستخدمي الإنترنت.

خلق فضيحة وهمية: في لوس أنجلوس، للإعلان عن إطلاق فيلم gaudriolesque لصديقه العظيم تاكر ماكس (تاكر ماكس: قصص قاتل متسلسل histoires d'un serial fucker)، يلصق رايان هوليداي إعلانات الفيلم، ثم يضع ملصقات مقابلة من نوع «يستحق تاكر ماكس أن يُقيّد قضيبه في فخ مشدود الفكين» (هكذا). وبعد ذلك أرسل صورًا إلى مدونات محلية مختلفة، يرحب فيها، تحت هوية مزوّرة، بردود الفعل العدائية هذه. وفي أثناء قيامه بذلك، دعا أيضًا جمعيات الميم LGBT الجامعية والنسوية إلى تشويه سمعة تاكر ماكس. وفي أقل من أسبوعين، انتشر الجدل إلى درجة أنه أفضى إلى مقالات في أعمدة موقع فوكس نيوز، أو في واشنطن بوست أو شيكاغو تريبيون. النتائج: دعاية كبيرة للفيلم، ووصول الكتاب الذي استلهمه إلى المركز الأول في المبيعات. «يشرح رايان هوليداي أن الخدع تنجح لأمر بسيط؛ إذا كانت دقيقة تمامًا، فهي معلومات. إذا لم تكن صحيحة، يمكن للصحفيين كتابة مقال للرجوع إلى السابق؛ ما يوفّر نصين بفضل نفس القضية. وها هم ينشغلون بكتابة تفسيرات حول هذه المعلومات الزائفة التي جعلوها هم أنفسهم منتشرة، وهكذا».

لاحقًا، من أجل كتاب تاكر ماكس الجديد، يقترح رايان هوليداي التبرّع بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دولار لجمعية تنظيم الأسرة في دالاس. في

المقابل، يجب أن تحمل العيادة اسم تاكر ماكس. رفض، وفضيحة: سحبت جمعية مهمة تكافح ضد سرطان الثدي دعمها، لأن التخطيط الأسري ينفق مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دولار. ثم تغيّر الرأي. أعلنت جمعية «نحو أخلاقية معاملة الحيوانات» (PETA) أنها ستقبل تبرع تاكر ماكس لرعاية الحيوانات. في النهاية تُشكّل ٢٠٠ وسيلة إعلامية جدلاً، وتحقق أكثر من ٣ ملايين مشاهدة للصفحة وترفع تاكر ماكس الجديد إلى المركز الثاني في قائمة الأكثر مبيعاً. الاستثمار الأولي: \$ 0,00. دولار. يعترف رايان هوليداي بلطف: «كان هدفنا واضحاً جداً وهو خداع وسائل الإعلام وإثارة ردود الفعل والمناقشات؛ ما أنقذنا من دفع تكاليف حملة إعلانية».

جان فرانسوا مارميون

إنها الأغنية نفسها...

بالنسبة إلى بعض الوسائط الإعلامية، فإن الخيوط التي ترشد القارئ هي نفسها تقريباً التي كانت قبل ١٠٠ عام، أو حتى ٥٠ عامًا. كل شيء جيد لتشجيع الناس على شراء صحيفة، أو لزيادة عدد النقرات على المقالة من أجل إثارة إعجاب المعلنين أو المشتريين المحتملين للموقع. لكن، بحسب رايان هوليداي، المستوى أدنى من ذلك، وتتسارع الحركة فقط. احكم بنفسك من خلال هذه العناوين الجذابة بقدر ما هي أصلية.

عناوين الأمس، بين عامي ١٨٩٨ و١٩٠٣، في الصحافة المكتوبة:

- ستعلن الحرب خلال خمس عشرة دقيقة.
- طقوس عربدة لرجال في منتصف العمر وشباب مراهقين، من المقامرين والبلطجية ونساء مكياجهن شنيع.
- جلسة شراب جماعية - مشاجرات متواصلة - كانت كرنفالاً للرديلة.
- رجل عجوز يطلق النار على نفسه: لم يستطع بيع أذنيه.
- وفاة امرأة من الخوف في المستشفى بسبب بومة.
- يحاول كلب بلدوج قتل فتاة صغيرة يكرهها.
- في منتصف الليل، قطة ترعب المستأجرين.

عناوين اليوم على المواقع الإخبارية:

- ليدي جاجا عارية تتحدث عن المخدرات والعزوبة.
- هيو هيفنر: «لست مغتصب رقيق للمتعة الجنسية يعيش في قصر مليء بالخراء».
- أفضل تسعة مقاطع فيديو لأطفال يطلقون ضراطاً و/أو يضحكون مع القطط الصغيرة.
- من أين جاءت إشاعة أن جاستن بيبير أصيب بالزهري؟
- فيديو: على حافة الهاوية، يعرض باف داداي على تشيلسي هاندلر أن يخلع ملابسه أمامها.
- فتاة صغيرة تصنع أمها بقطعة بيتزا وتنقذ حياتها.
- فضلات بطريق في قاعة مجلس الشيوخ.
- جان فرانسوا مارميون

الشبكات الاجتماعية غبية وشريرة

فرانسوا جوست

أستاذ فخري في علوم المعلومات والاتصالات

جامعة السوربون الجديدة - باريس ٣

الشبكات الاجتماعية ليست بداية مطلقة، أو قطعة جذرية مع الماضي. في كتاب حديث بعنوان «الشر في أفعال العصر الرقمي»^(١)، سلط الضوء على ما أسميته، بالإشارة إلى كانط، «الشروط المتعالية للشر»؛ أي شروط إمكانية التعبير عنه على الويب ٢, ٠^(٢)(*) .

(١). CNRS Editions, 2018.

(٢)(*) الويب ٢, ٠ (Web 2.0) : الجيل الثاني من المجتمعات الافتراضية والخدمات المستضافة عبر الإنترنت، وهو يتحدث عن ثورة معرفية جديدة. فالإنترنت «القديم» بُني على البنية العلائقية (واحد - متعدد) أو ما يسمى بـ One to many relationship، وذلك يعني «موقع إنترنت واحدًا لعدد كبير من المستخدمين»، وحول هذا المفهوم بُنيت أغلب مواقع الإنترنت منذ تأسيسها. أما الويب ٢, ٠ فهو يسعى إلى خلق مفهوم جديد، مبني على علاقة (متعدد - متعدد) أو Many to many relationship، وترتكز بنيته على خلق إنترنت جديد أكثر «إنسانية» وأكثر «تفاعلاً» من الإنترنت السابق.

مجتمع الفرجة، مجتمع الحكم

ينشأ الشرط الأول من مجتمع الفرجة هذا الذي وصفه جي دييور، الذي تتحول فيه التجربة إلى مرئية، أو، إذا شئت، تختزل الحياة البشرية إلى مظهر. وهو ما يقود الموقفيون إلى هذا التعريف: «إن العرض ليس مجموعة من الصور، بل هو علاقة اجتماعية بين الناس، بوساطة الصور» (أطروحة ٤^(١)). ولا داعي لتغيير أي شيء في هذه الصياغة لتطبيقها على فيسبوك، حيث تبني الصور شخصية مستخدم الإنترنت وعلاقاته مع «أصدقائه». إنها الصورة التي تقع في مركز أي وساطة اجتماعية. أما توتير، فقد أثبتت الدراسات أن وجود صورة في الرسالة يزيد بشكل كبير من عدد إعادة التغريد^(٢).

الشرط الثاني: اتساع نطاق الحكم. في عام ١٩٨٠، قدم ميشيل فوكو بالفعل هذه الملاحظة: «من الجنون أن الناس تحب الحكم. إنه الحكم في كل مكان وفي كل وقت. ولا شك في أن هذا من أبسط الأشياء التي أوكلت للبشرية للقيام بها»^(٣). إن انتشار المنتديات ومواقع مشاركة الفيديو وإمكانية ترك التعليقات قد منحت المجال الأقصى لهذا الحب للحكم. خاصة وأن إمكانية المضي قدمًا مخفية بفضل اسم

(١) La Société du spectacle, Folio, 1996.

(٢) <https://www.blogdumoderateur.com/twitter-images-engagement/>

(٣) «Le philosophe masqué» (entretien avec C. Delacampagne, février 1980).

Le Monde, n° 10945, 6 avril 1980. Diss et Eeriss, tome IV, coll. «Quarto»,

Gallimard, texte n° 285.

مستعار يتيح لمستخدم الإنترنت الانغماس في التجاوزات كافة من دون التعرّض لأي مخاطر كبيرة. من يستطيع تحمل ترف البحث عمن يختبئ خلف عنوان بروتوكول الإنترنت IP لمعرفة المسؤول عن الإهانة؟

إذا لم تكن الفردانية ولا الأنانية جديدة - فقد منحهما التلفزيون أيضًا فرصًا عديدة للتعبير عن نفسيهما في ثمانينيات القرن العشرين وتسعيناته - فإن شبكة الإنترنت ٢,٠ عملت على تضخيمهما من خلال منح الجميع الفرصة كي يدور العالم حوله. إن البثّ المباشر على فيسبوك، الذي يسمح لأي شخص بأن يصبح وسيلة إعلامية من خلال تصوير العالم كما يراه من خلال هاتفه الذكي، هو مجرد أحد أحدث الأعراس. لذلك، إذا كان كل فرد يستطيع أن يكون المركز الذي يبدأ منه كل شيء، فليس من السهل أن يميز نفسه. ومن هنا جاءت الاستراتيجيات العديدة التي يستخدمها مستخدمو الإنترنت للتميز عن الآخرين وتحقيق الشهرة.

إبراز العرض، وتوسيع نطاق الحكم على كل شيء وأي شيء، والحاجة إلى وجود الشهرة... كيف تعمل هذه المكونات الثلاثة لعمل الشبكات الاجتماعية مباشرة، ليس على أساس الخبث، لكن الحماسة؟ إذا لم تستنفد هذه المكونات الثلاثة الموضوع بالتأكيد، فستكون بوصلة لتوجيه نفسي في هذا المجال الذي ليس محيطه في أي مكان ومركزه في كل مكان.

لقد أتاح إنشاء مواقع المشاركة، مثل يوتيوب، للجميع فرصة أن ينشئ «قناة» لا يتمتع فيها فحسب بالحرية في تجميع التسلسلات التي

يحبها، لكن يتمتع أيضًا بالحرية خاصة في نشر مقاطع الفيديو الخاصة به.

أعطت هذه الإمكانية انطلاقة جديدة للعروض الذاتية. ومن بين هذه، ظهرت سلسلة كاملة من المتواليات التي تهدف إلى أن تثبت للآخرين أننا قادرون على القيام بهذا الفعل أو ذاك. بدأ الأمر في عام ٢٠١٤ مع لعبة ترشيح الرقبة Necknominations، التي تضمّنت شرب عدة أكواب من الكحول دفعة واحدة، وتصوير اللاعبين أنفسهم وتحدي ثلاثة أشخاص، عبر منصات التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك، للقيام بنفس الشيء في غضون ٢٤ ساعة.

وتولى بعد ذلك تحدي «في الماء أو مطعم» المهمة، وكان قد أخذ من الولايات المتحدة باسم «تحدي الماء البارد»، الذي - كما يوحى اسمه - يتمثل في الغوص في الماء البارد، تحت بند دفع ثمن وجبة لأصدقائك، دائمًا وفق نفس مبدأ سلسلة التعيينات. وغني عن القول أن عديداً من الأشخاص الشجعان ألقوا بأنفسهم في الماء؛ هناك ما لا يقل عن ١٩٦٠٠ مقطع فيديو على موقع يوتيوب. وبطبيعة الحال، تسبب التمرين في حوادث عديدة، منها السقوط والانزلاق، وصولاً إلى غرق شاب في بريتاني بعد أن غطس ودراجته ملتصقة بساقه، وآخر في بادو كاليه ضحية كسور في الجمجمة وإصابات عنقية. وعلى الرغم من ذلك، رشّح مشاركون عديدون زوجتهم أو أخاهم أو أختهم.

نستطيع تأكيد، من دون المخاطرة بالتناقض، أن الموت من أجل مواجهة مثل هذا التحدي وتعرض حياة أحبائنا للخطر هما حماقة،

وتجدر الإشارة إلى أنها تستعير السمات التي أشرت إليها والتي تنحدر مباشرة من تلفزيون الواقع. السمة الأولى هي بوضوح وساطة استعراض الذات، التي من دونها يفقد الرهان كثيرًا من فائدته. والواقع أن ما يهم فاعل هذه الحركة، في هذه الحالة، هو أن يُرى، كأن الصيغة الشهيرة للفيلسوف الأيرلندي جورج بيركلي «أن تكون، هو أن تُدرك» (Esse est percipi)، هي شعار الفرد في العصر الرقمي. السمة الثانية، التي هي أساس تلفزيون الواقع، هي الفصل الجذري بين الممثل / الفاعل والمتفرج؛ الأول يعاني والآخر يشاهد. وكلما صرخ الأول وأقسم، كان الثاني أكثر سعادة. إنها سادية المتفرج الشهيرة التي شعر لوكريتيوس بجذورها بالفعل في كتاب «في طبيعة الأشياء» (De rerum natura): «من الجميل، عندما ترفع الرياح الأمواج في البحر الواسع، أن نشهد من الأرض تجارب الآخرين القاسية؛ لا يعني ذلك أن معاناة الآخرين هي لذة كبيرة لنا، لكن رؤية الشرور التي نهرب منها بأنفسنا هي الأمر الجميل».

يصبح الواقع صورةً ليس لها أي مضمون أكثر من حماقة تلفزيونية أو فيديو مزحة. ليس من المستغرب أن الفيديو الأكثر مشاهدة لهذا التحدي هو مقطع فيديو لامرأة شابة تنزلق وتضطدم ساقاها بوحشية بالرصيف الذي تلقى سقوطها؛ لقد شاهد هذه اللقطات ١٦٤, ٣٠٢ شخصًا، وأعجب بها ١٧, ٠٠٠، مقابل ١٨٢ فقط لم تعجبهم! ويضيف ٣٧٧ تعليقات سيئة، تزايدت نتيجة أنها أكدت قبل القفز أن «النساء

لديهن الشجاعة الكافية للقفز في الماء»^(١). لقياس محتواه، إليك
مختارات صغيرة^(٢):

شيشونيه، منذ سنة واحدة:

لقد انتحرت ساقاك لأنهما سئمتا من تحمل حماقتك.

B14091990، منذ ٣ سنوات:

المرأة الفرنسية العصرية بكل بهائها، مثيرة للسخرية!

كريستال، منذ سنة واحدة:

النساء جيدات لممارسة الجنس لا القفز.

السيد بوبتار، منذ ٣ سنوات:

المجنونة الهستيرية السمينة.

sjdhsjd23، منذ ٣ سنوات:

النسويات ذكيات أكثر من أي وقت مضى!

فايدورشايجو، منذ سنة واحدة:

آه، شخصياً أنا فتاة، والقفز في الماء ليس عملاً «ذكورياً» بالنسبة
إليّ. إنها تفكك نظريتها فحسب بتحديثها:‘

(١) https://www.youtube.com/watch?v=Twlu_TLBmEkE, consulté le 24 mars 2018.

2018.

J'ai conservé l'orthographe des commentaires. (٢)

AWSMcube، منذ سنة واحدة:

بالضبط... هي... ما الكلمة... غبية. غبية جدًا.

سيريل بينوا، منذ عامين:

في الواقع، أرادت فقط أن تحكي ذلك لنفسها أمام الكاميرا. الدوافع الضعيفة تؤدي إلى نتائج سيئة.

كيفن برودوم، منذ عامين:

هههههه، لا بد أن السقوط كان مؤلمًا (:

كما نرى في هذه العينة الصغيرة التي ليست هناك فائدة من تضخيمها، فإن التحدي، مثل الشخص الذي قبله، يحكم عليه بأنه غبيّ مستخدمو الإنترنت الذين يُظهرون هم أنفسهم شرًا خالصًا أو تمييزًا جنسيًا أو حتى كليهما في الوقت نفسه، مع ميل واضح إلى الإهانات، وفي نهاية المطاف، التشكيك في المساواة بين الرجل والمرأة. يمنح عرض البعض المتفرج لذة تتناسب مع الغباء الذي يراه فيه، مع الإمكانية التي يمنحه إياها للتعبير عن اشمئزازه (في هذه الحالة امرأة أو نساء أو نسوية)، وأن يكون غبيًا... وشريرًا في الوقت نفسه.

تعريف داخلي المنشأ للحماقة

مثال آخر تقدّمه إلينا التعليقات على البرنامج الذي حللته عن الشر في الأفعال La Méchanceté en acts: «عشاء شبه مثالي». مبدأ هذا البرنامج كما يأتي: يستقبل الناس بعضهم بعضًا على التوالي، ويجب عليهم الحكم على خبرة مضيفيهم ونوعية الترحيب بهم من خلال

ملاحظة عدة معايير، بما في ذلك المطبخ وتزيين المائدة. في إحدى الحلقات، شعر أحد المدعويين بالغضب عندما علم أن مضيفه يستخدم الكرز في شراب سلطة الفواكه. احتدمت المحادثة وأخيرًا ألقت ربة المنزل، ساندرا، كوبًا من الماء على وجهه. هذا المشهد، الذي نُشر على موقع يوتيوب في ١٧ يناير ٢٠١٥، شوهد ٦٧٨,٨٠٥, ٣ مرات حتى ٢٠ مارس ٢٠١٨، وعلق عليه ١٦,٠٠٠ مستخدم عبر الإنترنت^(١).

كان من المستحيل بالنسبة إليّ تحليل التعليقات البالغ عددها ٧٨٧٦ تعليقًا. ومع ذلك، فإن قراءة أول ٧٠٠ تعليق تخبرنا بما يكفي عما تعنيه الحماسة/الهراء لمستخدمي الإنترنت الذين يناقشون هذه اللقطات على مر السنين.

بالنسبة إلى كثيرين، فإن حقيقة استخدام الكرز في الشراب في وجبة «طهو»، كما يعرفها أحد مستخدمي الإنترنت، يتيح لنا تقديم تعريف «موضوعي» للحماسة:

لعبة العروش، منذ عامين:

إنها حمقاء من الناحية الموضوعية، حتى إنني لا أتناول الفاكهة المعلبة كتحلية مجهزة في المنزل، إنها تستخف به حقًا. يقدم لها الرجل ملحوظة، والشيء الوحيد الذي يمكنها فعله هو إهانتته ورمي الماء في وجهه، وهي فخورة بذلك، هذه البقرة الغبية. على نحو جاد، أليس هناك اختيار للمرشحين لهذا البث؟ هل تم عشوائيًا أم لا؟

<https://www.youtube.com/watch?v=M7trhwL.Q3QQ>. (١)

وقد حظي هذا التعليق بإعجاب ١٦١ مشاركًا في المناقشة ولم يرفضه أحد؛ ما يوحي بأنه يعكس شعورًا مشتركًا. ومع ذلك، فإن غالبية العناصر لا تتعلق بسلوك ساندرا بقدر ما تتعلق بمظهرها الجسدي. فيما يلي بعضها وهي تمثيلية للغاية:

فريدريك ٥٧٢، منذ ٥ أشهر:

أنت بفروة على ٤ أرجل وبوجه خنزير وهكذا الهذيان مضمون.

Tib Ln، منذ ٦ أشهر:

اللعة، يا لها من كومة كبيرة من الروث!

جيسيكا مارتن، منذ ٧ أشهر:

امرأة غبية متصابية مع صغار السن.

John do، منذ ٧ أشهر:

نادرًا ما رأيت امرأة قبيحة إلى هذه الدرجة.

لوليلول، منذ عام واحد:

إنها تذكّرني بالبزاقة التي قتلتها هذا الصباح. آسف، إنه أمر مستفز!

ByWeapz، منذ ٨ أشهر (تم التعديل):

ساندرا ١٩ سنة: لُغد، مكياج بشع، قبيحة، حمقاء، من دون أي احترام، سمينة، شتائم مباشرة. هذا النوع من الأشخاص يجب إحراقهم أحياء ٢٠:٠٠ «لقد بذلت قصارى جهدي طوال اليوم» آسف لأنك لم تبذلي جهدًا حتى تحصلي على بعض الفاكهة، لكن اللعة، افعلي

شيئاً، لو كنتُ مكان الرجل، كنتُ سأضربك، أيتها العاهرة الكبيرة. من ناحية أخرى، أحترم تمامًا الرجل الذي حافظ على هدوئه في المساء أمام عاهرة أخرى، «فقط أخبرك، إنك ستألم» بسبب بطنها الكبير ولن تتمكن حتى من النهوض، وماذا ستفعل بمؤخرتها الكبيرة؟

من الصعب أن نتخيل أن كثيرًا من العنف لا يُستفز بالإيماءة، بل بمظهر الشخص. إن تكاثر التعليقات المهينة يؤدي إلى جعل ساندرا كبش فداء، بالاعتماد على ما يسميه رينيه جيرار «السمات العالمية لاختيار الضحية»، ونميز من بينها «المرض، والجنون، والتشوّهات الجينية، والتشوّهات العرضية، وحتى العجز بشكل عمومًا»^(١). إن وحشية بعض التعليقات - «هذا النوع من الناس يجب أن يحرقوا أحياء» - تُظهر بوضوح كيف تتحوّل الإدانة اللفظية بسرعة إلى تحريض على الكراهية، والقتل الذي لم يعد رمزيًا بل واقعيًا.

بالنسبة إلى عدد قليل من المشاركين المعزولين، فإن اختزال الذكاء في النشاط الجسدي هو تعريف الحماقة نفسها:

M.A.D، منذ عام واحد:

لماذا نسعى جاهدين لتثقيف من لا يكلف نفسه عناء إضاءة عقله؟! «أنت مثيرة للشفقة جدًا»، بالمناسبة، على الرغم مما تعتقده، فأنا لست «مؤخرة كبيرة» ^^ أنت تعلم أننا يمكن أن نكون «طبيعيين» جسديًا وندافع عن الأشخاص الذين ليسوا كذلك، بدلًا من السخرية منهم. إنه

(١) Le Bouc émissaire, Le Livre de poche, 1982, p. 29.

يسمى الذكاء، كلمة كثيرًا ما تُسمع يسبقها «ينقصك»، وبهذا سأتوقف
عن إضاعة وقتي، قبلاتي!

ليلي بييري، منذ سنة واحدة:

M.A.D لقد تأخرت قليلًا لكنني أتفق معك تمامًا، فالتعليقات
متدنية جدًا لدرجة أنني مستاءة من هؤلاء الأشخاص الذين لا يستطيعون
وصف السلوك لكن فقط الوزن الزائد. أناس بؤساء وأغبياء جدًا بمثل
هذا الشر.

سيفيرا روج، منذ سنة واحدة:

M.A.D بصراحة، أنت محقة جدًا في العادة، يجب أن تتحدث
التعليقات فقط عما حدث على العشاء وليس أي شيء آخر، خاصة
فيما يتعلق بالوزن، وهؤلاء وأولئك الذين علقوا على الوزن هم حقًا
أشخاص يفتقرون إلى «الذكاء».

حتى لو كان ذلك بلغتهم، وهي ليست لغتي، فإن هؤلاء المعلقين
المعزولين يفهمون تمامًا ما هي الحماقة/الهراء في عصر الشبكات
الاجتماعية؛ صياغة الأحكام النهائية التي تختزل الحياة في المظهر؛ ما
يؤسس كمعايير للتواصل «العلاقة بين الناس، بوساطة الصور»، كما
رأها جي ديور.

أحد العناصر التي طرحتها لوصف شبكات التواصل الاجتماعي
مفقود؛ ضرورة وجود الشهرة. إذا كانت موجودة في حالتها الجينية في
عرض الشجاعة ويكون المرء مستعدًا للقفز في المياه الجليدية، فليس

من غير المؤلف أن تكون أصل الوجود على الشبكات الاجتماعية. كيف نخرج من حشد مستخدمي الإنترنت؟ هذه هي المشكلة التي يجب على جميع الطامحين إلى الشهرة أن يحلوها. الحل دائماً يكون في عمل مدوّ. لقد رأينا أن بعض الأشخاص لم يتردّدوا في تعريض شخص قريب منهم للخطر من أجل خوض التحدي. في بعض الأحيان، يذهب اليوتيوبر إلى أبعد من ذلك بكثير. مثل هذين الوالدين الأمريكيين الشابين اللذين صوّرا مقطع فيديو ليصبحا مشهورين؛ المرأة التي أطلقت النار على صدر زوجها بمسدس، وقد كان محمياً بموسوعة من المفترض أن توقّف الرصاصة... حذرت مطلقة النار المستقبلية: «أنا وبيدرو سنسجل على الأرجح أحد أخطر مقاطع الفيديو التي صوّرت على الإطلاق»، لقد حدث ما كان يجب أن يحدث؛ حُكِمَ عليها أخيراً بالسجن ستة أشهر لأنها أطلقت النار على رفيقها... لقد وصلت إلى ذروة الحماسة، كما تشير إليها الدوكسا. لكن يمكننا أن نراهن على أنه سيكون هناك تصعيد آخر.

إن المكونات الثلاثة للحماية عبر الإنترنت التي أوضحناها، لها عديد من التطبيقات الأخرى غير تلك التي أوضحناها في هذه المقالة. إذا كانت فائدتها هي تقديم تعريف داخلي تقريباً لموضوع بحثنا، لأنه ينبثق من نفس الأرض التي تخصبها، يبقى السؤال من دون إجابة: من أولئك الذين يُظهرون هذه الحماسة؟ الملفات الشخصية لمستخدمي الإنترنت مقتضبة للغاية ويكاد يكون من المستحيل معرفة من هم، وما أصلهم الاجتماعي، وأعمارهم، وأحياناً جنسهم. ومن الصعب في هذه الظروف أن نحدّد ما الحماسة التي نواجهها، إذا اعترفنا أن هذه، مثل

اللذة، تختلف باختلاف العمر. والشيء الوحيد الذي يمكن استنتاجه من الأمثلة التي درستها هو أن التهجنة التي توضّحها تعود بالأحرى إلى شباب لا شك في أن مستواهم التعليمي ليس الأفضل. هل سأخاطر وأقول بأن هذه هي حماقة سن المراهقة؟ لقد تم الأمر.

أنوار شادوك

«من الأفضل أن يحشد المرء ذكاهه حول حماقات بدلاً من أن يحشد حماقاته حول أشياء ذكية».

شعار شادوك

لفترة طويلة بدأت دروسي على شاشة التلفزيون بشعار شادوك هذا. إنه يفهم تمامًا مسألة التحليل الإعلامي: أولاً، إنتاج تفكير حول موضوع لا يزال يحتقره المثقفون، الذين يتباهون بالحديث عنه من دون أن يعرفوه؛ ومن ثم، إثبات أن التفاهة المفترضة للموضوع لا تؤثر بالضرورة في الخطابات التي تحاول فهمه. ومع ذلك، قبل جعل هذا المبدأ تعويذة، ثمة توضيح ضروري. كان ديجول يقول: «إن الاعتراف بأن التلفزيون عامة يرقى إلى مستوى الهراء هو في الواقع اتفاق مع أولئك الذين يعتبرونه قمامة، وفي الوقت نفسه، يفتح مجالاً للبحث واسعاً جداً، وبرنامجاً واسعاً جداً». إذا كانت جميع العروض هراء، يمكننا التحدث عن أيّ واحد منها؛ عندها يصبح لمفهوم الهراء هذا الامتداد بحيث لم يعد له أي فائدة. لذلك دعونا نقبل شعار شادوك ليس كحقيقة عامة، بل كتشجيع لفهم أفضل.

يشجّعنا هذا الشعار على البدء من المعارضة الأولى بين الهراء والحماقة. تمامًا كما يميز الفيلسوف فلاديمير يانكيليفيتش بين «أن تكون شريراً» وأن «تقوم بأفعال شريرة»^(١)، يجب أن نميز بين الحماقة التي تميز فردًا أحمق، وقول الهراء (حماقات). ولكن إذا اتفق الجميع على تعريف الحد الأدنى من الشر، الذي سيكون تقريباً جوهره - «التدنيس، القذارة، التدمير»^(٢) - فالأمر نفسه لا ينطبق على الحماقة. تعريفها يمكن أن يتعلق فقط باستخدامات الاتصالات. يمكن للمتحدث العادي أن يدرك أنه يقول أو قال هراء / حماقات.

وهذه هي حال رئيس حزب الجمهوريين لوران فوكيه، الذي يعترف علناً بأن كل ما يقوله على أجهزة التلفاز هو «هراء» bullshit (ما يعادل «هراء» conneries باللغة الإنجليزية). والوضع المعاكس أكثر شيوعاً؛ وعموماً، المحاور أو القارئ أو المستمع هو من يحكم، في أعماقه أو علناً، على أن ما يقوله الشخص الآخر هو حماقة.

الملاحظة النهائية: يمكن أن تصف الحماقة فعلاً («أي حماقة هي الحرب!»، جاك بريفير) وكذلك «كلام أبله/ هراء» (قاموس روبير الثقافي). في حين أن الأولى - كفعل - يُحكّم عليها على هذا النحو بالإشارة إلى الأخلاق المهنية، وإلى التناقضات التي تثيرها أو عواقبها، والثانية - المرتبطة بفعل (déconner، تَلَفَّظَ بحماقات) - تستند إلى

(١) L'Innocence et la Méchanceté, Flammarion, coll. Champs, 1986.

(٢) A. Van Reth et Michaël Fossel, La Méchanceté, Plon-France culture, 2014, p. 95.

فكرة معينة عن المعرفة والحقيقة، كما في هذا التعريف الذي طرحه
الفيلسوف هاري فرانكفورت: «يصبح الهراء baratin لا مفر منه عندما
تقود الظروف الفرد إلى تناول موضوع لا يعرفه»^(١).

فرانسوا جوست

De l'art de dire des conneries, 10/18, 2006, p. 32. (١)

الإنترنت - هزيمة الذكاء

مقابلة مع هوارد جاردنر

أستاذ الإدراك والعلوم التربوية في كلية الدراسات العليا للتربية بجامعة
هارفارد، ومنظر الذكاءات المتعددة

- ما «الفضائل الثلاث» التي تفترض أن الإنترنت يهددها؟

- في عام ١٩٩٩، أصدرتُ كتابًا بعنوان «العقل المنضبط» The Disciplined Mind. وأوضحته فيه أن الهدف الرئيسي للتعليم، بالإضافة إلى محو الأمية، هو توفير الأدوات - وخاصة في التخصصات العلمية - للتمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح، للحكم على ما هو جميل في الفن والطبيعة والمجالات الأخرى، والقدرة على تبرير التفضيلات؛ وأخيرًا توجيه حكم الفرد وعمله في المجالات المعنوية والأخلاقية. عندما كتبتُ هذا الكتاب، كنت ساذجًا بعض الشيء؛ كنت أعتقد أن هذه الفضائل التقليدية لا تطرح أي مشكلات. وسرعان ما اكتشفتُ أنني كنت مخطئًا. وفي العقد التالي، أعدتُ التفكير في استدلالي سواء من حيث التحليل الفلسفي (ما بعد الحداثة، النسبية) والتقدم التكنولوجي (ظهور الوسائط الرقمية الجديدة).

- في كتابك « الأشكال الجديدة للحقيقة والجمال والخير »^(١)، تصف الإنترنت بأنه «فوضى عامة» «تخلق ارتباكاً» في «غياب التأمل الفعلي». فهل تكمن المشكلة في نوعية المعلومات المتوفرة الآن أم كمّيتها؟

- الاثنان. نعلم أن الأفراد الذين تثقلهم أو تغمرهم وفرة المعلومات، وكثير من الخيارات، يصابون بالشلل وصعوبة اتخاذ القرارات الحكيمة. ويزداد الأمر سوءاً عندما تكون نوعية كثير من المعلومات مشكوكاً فيها -وهذه هي الحال بالتأكيد بالنسبة إلى عديد من المدوّّات ومواقع التواصل الاجتماعي وما إلى ذلك. ومع ذلك، في كتابي، استنتاجاتي حول الحقيقة ليست قاتمة.

في الواقع، نحن نعيش في زمنٍ أصبح فيه من الممكن أن نفهم أكثر من أي وقت مضى ما يجري بالضبط -إذا كنا على استعداد لأخذ الوقت الكافي لإصدار حكم صائب.

لنأخذ مثلاً حديثاً. في أبريل ٢٠١٣، وقع هجوم إرهابي كبير بعد ماراثون بوسطن. كنا نعلم كل يوم مزيداً عما حدث ولماذا، وذلك بفضل الآثار التي تركها الشقيقان على فيسبوك، وتويتر، ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى. كان من غير الممكن تصور هذا قبل عصر الوسائط الرقمية. وبطبيعة الحال، لا يزال هناك من يعتقد أن الشقيقين لم يرتكبا الجريمة. لكن هؤلاء «الإنكاريين» يعملون في دائرة مغلقة، تماماً مثل أولئك الذين يستمرون في زعم أن باراك أوباما هو في الواقع مسلم وُلد في إفريقيا.

Odile Jacob, 2013. (١)

- إن تعدُّ وجهات النظر الموثوقة إلى حد ما ، التي يقدمها الإنترنت تُعزز النسبية المفروطة التي تنتقدها ، لكن ألا يشجع ذلك أيضًا الشك المنهجي ، وهو صيد ثمين للنهج العلمي؟

- بلى ، أوافق على أن الإنترنت يتحدى فكرة وجود حقيقة واحدة معتمدة. عندما كنت صغيرًا ، كان هناك عدد قليل جدًا من وسائل الإعلام السمعية والبصرية ، وعندما كانوا جميعًا يروون نفس القصة ، افترضنا أنهم كانوا يقولون الحقيقة. أما اليوم فقد أصبحنا أكثر تشكُّكًا ، انظر ، على سبيل المثال ، إلى حقيقة أنه لم تكن هناك أسلحة دمار شامل في العراق على الإطلاق ، على الرغم من إصرار «وسائل الإعلام التقليدية» على جعلنا نعتقد أنه كانت هناك أسلحة دمار شامل . لذا ، نعم ، الشك له مزاياه.

لكن ليس من الجيد أن يؤدي الشك إلى الشكوكية العامة. وكما قلت أعلاه ، إذا كنا على استعداد لبذل العناية الواجبة ، فمن المرجح أن نكشف الحقيقة أكثر من أي وقت مضى - سواء كانت في التاريخ أو السياسة أو العلم. على سبيل المثال ، يُكشف الآن عن عمليات الاحتيال العلمي بانتظام ، في حين كان اكتشافها أصعب قبل العصر الرقمي .

- أنت مشهور بنظريتك حول الذكاءات المتعددة. هل تعتقد أن الإنترنت يؤثر على أي منها ، بشكل جيد أو سيئ؟ وهل تعتقد أن الإنترنت يمكن أن يُشكل ناقلاً لنوع جديد من الذكاء ، ليس المتعدد بل الجماعي؟

- عامةً ، أعتقد أن الوسائط الرقمية الجديدة رائعة للذكاءات المتعددة. يوجد اليوم تطبيقات وألعاب وبرامج تعليمية يمكن أن تحشد

مجموعة من الذكاءات التي تعمل معًا بطرق غير مسبقة وقوية. لا أرى أي عائق في هذه الرؤية التعددية للذكاء. إلا أن الذكاء انعكاسٌ للدماغ البشري، وبالطبع فإن الدماغ البشري يتطور ببطء شديد، على مدى آلاف السنين، ليس بسبب تقنيات عمرها بضع سنوات أو عقود قليلة فقط. ولذلك فإنني لا أنضم إلى فكرة «الذكاء الرقمي». ومن ناحية أخرى، ليس هناك شك في أن التكنولوجيات الجديدة تنطوي على «نسبة ذكاء» مختلفة، كما قال مارشال ماكلوهان. لذلك، على سبيل المثال، ليس لدينا نفس «المعلومات البيئية» عبر الإنترنت كما هي الحال عند التحدث أو التفاعل مع شخص ما وجهًا لوجه.

لقد أثرت المجموعات دائمًا في المناقشات والخلافات. يعود تاريخ «الجوقة اليونانية» إلى آلاف السنين. لكنني أود أن أؤكد حقيقة أن المجموعات يمكنها أن تقدّم ذكاءً جماعيًا، بل غباءً جماعيًا أيضًا. وكما فهمنا قبل قرن من الزمان مع نقاد مثل جورج سوريل أو إلياس كانيتي، فإن الحشود يمكن أن تكون مدمرة بقدر ما هي بناءة. بالإضافة إلى ذلك، نعلم الآن أن الشركات والمؤسسات يمكنها التلاعب بالتقييمات والتصنيفات عبر الإنترنت - لذلك ليس «الأشخاص» فقط هم الذين يعبرون عن أنفسهم، لكن أيضًا أولئك الذين يحصلون على أموال مقابل الترويج لآراء وتجارب معينة. من المثير للاهتمام والمفيد معرفة عدد «الإعجابات» - لكنني شخصيًا مهتمٌ أكثر بجودة الحكم وحكمة الفرد الذي يصدره. الكمية لا تعني الجودة!

- عندما تأسف لوضع الحقيقة والجمال والخير موضع تساؤل مفرض، أليس همك الرئيسي هو تخفيف أو اختفاء السلطة؟

- ليس لدي صبر على السلطة التي تُؤكِّد ببساطة. لا يهمني شهادتك أو عمرك. لكنني أهتمُّ كثيرًا بمعرفتك، وحكمك، وما إذا كنتَ قد فكرت قبل الدفاع عن وجهة نظرك، وما إذا كنتَ على استعداد للاعتراف بخطئك في مواجهة الحُجج المضادة. تذكرني بتلك النكتة القديمة: «على الإنترنت، لا أحد يعرف أنك كلب». إذا كان بإمكاننا استبدال السلطة المنظمة بمرسوم بالسلطة المستحقة أو المثبتة، فأنا أؤيد السلطة تمامًا.

- تشرح أنه من الضروري أن تتعلَّم طوال حياتك. ولكن لماذا يؤدي هذا إلى إجماع حول ما هو حقيقي، وما هو خير، وما هو جيد، بدلًا من الوعي الشخصي أكثر من أي وقت مضى، وبالتالي نسبي؟ وإلى الشك أكثر وأكثر؟

- هذا سؤال مثير للاهتمام. كما نقول بالفرنسية «على حسب» (بالفرنسية في النص، ملاحظة المحرر). وفي بعض المجالات، قد يؤدي مزيد من المعرفة إلى قدر أقل من اليقين. من المؤكد أن معرفتي الخاصة بالشخصية الإنسانية أصبحت أكثر تعقيدًا على مر السنين. عندما أُقيم عمل طلابي في موضوع أعرفه جيدًا، أكون أكثر ثقة بأحكامي. إننا نستمتع إلى خبراء الأرصاد الجوية اليوم أكثر بكثير مما كنا نستمتع إليهم قبل ٥٠ عامًا. وفي مجالات أخرى، تؤدي المعرفة الأكبر إلى قدر أكبر من اليقين. لذلك من المهم أن تفكر في المجال الذي تحكم عليه، وعلى أي أساس. في كتابي، أستمع بالضبط الحجة التي طرحتها أنت،

عندما أكتب عن الجمال. لا يوجد سبب يجعل أحكامنا حول الجمال ثابتة، ولا ينبغي أن تتطابق بالضرورة مع تلك الخاصة بالآخرين.

ليس هناك خلاف حول الأذواق^(١). لكن عندما يتعلّق الأمر بفضائل أخرى، الوضع مختلف. إذا لم يكن هناك بعض التقارب حول ما هو صحيح وما هو خطأ وما هو غير مؤكّد، وإذا لم يكن هناك تقارب، داخل الثقافات وبينها، حول ما هو أخلاقي وعلم الأخلاق وما هو ليس كذلك، لا، لا يمكننا أن نحظى بمجتمع مستدام.

في الواقع، في الممارسة العملية، يتصرّف الجميع كأنهم يعتقدون أنه من الممكن التوصل إلى إجماع أفضل في الآراء بشأن الحقيقة والأخلاق. إن الفلاسفة والمؤلفين في العلوم الإنسانية عامة هم وحدهم، لأسباب مختلفة، الذين يريدون أن تنفجر هذه المفاهيم. لكنهم ما زالوا ينتظرون من أطفالهم أن يقولوا الحقيقة ويتصرفوا بطريقة معينة دون أخرى.

أجرى المقابلة جان فرانسوا مارميون

(١) لا يمكن مناقشة الأذواق De gustibus non est disputandum.
Les goûts ne se discutent pas

الحماقة وما بعد الحقيقة

سيباستيان ديجيز

عالم نفسي وباحث في مختبر العلوم الإدراكية والعصبية في جامعة فريبور

هل نغرق أكثر فأكثر في الحماقة؟ بالنظر إلى بعض التطورات المعاصرة، يمكننا أن نطرح هذا السؤال بشكل مشروع. يبدو أن الأشخاص المتعلمين القادرين على تثقيف أنفسهم بحرية اليوم يرفضون التوصيات العلمية بشأن التطعيم والمناخ، وينغمسون في «نظريات المؤامرة» المجنونة، ويصوّتون بسعادة للمعتوهين ويشاركون في مشاريع غبية، وهم ساخطون على الحماقات التي لا فائدة منها، متحمّسون للبدع التي لا مستقبل لها، بل إن البعض قرّر أن الأرض، من الآن فصاعدًا، ستكون مسطّحة بالنسبة إليهم مهما قال أي شخص. على خلفية التوترات الدبلوماسية والإرهاب والحروب التي لا نهاية لها، والتدمير المنهجي لبيئتنا والاقتصاد الذي لا يفيد سوى حفنة من الأفراد -الذين لا يوجد ما يشير إلى أنهم أذكىء بشكل خاص- يبدو أن عصرنا محكوم عليه بالكامل بانتصار الحماقة^(١). أحد المشاركين في

(١) A. Farrachi, Le Triomphe de la bêtise, Actes Sud, 2018.

غرق السفينة هذا، من العقول التي تعتقد أنها مستنيرة وتأتي بتفسيراتها الجاهزة: إنه خطأ الأمريكيين، والمجتمع، والمبيدات الحشرية، والكربوهيدرات، والجلوتين، واختلالات الغدد الصماء، واليسار، واليمين، والنخب، وعامة الناس، والأجانب وجيناتهم المعيبة، والمعلمين الكسالى والتربويين الأيديولوجيين، والأجهزة اللوحية والشاشات والذبذبات التي تفسد الدماغ...

ماذا لو، في أعماقي، كان كلُّ هذا هراءً فحسب؟

الهراء وما بعد الحقيقة

لا يعني ذلك أن الهراء غير موجود وأن الوضع لا ينذر بالخطر. بل إنني أزعم أن ما يبدو كأنه تراجع عالمي في الذكاء يمكن فهمه بشكل أفضل إذا فسّرناه على أنه زيادة في الهراء^(١). في الواقع، الحماقة ليست، أو ليست فقط، عكس الذكاء. يمكنك أن تكون ذكيًا جدًا وأحمق جدًا، وللاقتناع بهذا، ما عليك سوى وضع أي مثقف في منصب سياسي، أو تشجيع مثل هذا الخبير على التعبير عن نفسه في موضوع لا يعرفه. وما سينتجه بعد ذلك يسمّى هراء.

وبحسب التحليل الشهير الذي قدّمه الفيلسوف هاري فرانكفورت^(٢)، فإن جوهر الهراء هو اللامبالاة بالحقيقة. على عكس الكاذب، الذي يجب أن يكون حريصًا دائمًا على إخفائها، فإن الهراء

(١) Dieguez, Total Bullshit! Au cœur de la post-vérité, Puf, 2018.

(٢) H. Frankfurt, On Bullshit, Princeton UP, 2005.

لا يهتم. يتحدث بكل ما يخطر بباله، ما دام أنه يناسبه، من دون أدنى اهتمام بصدق أو ما يزعمه كذبه. يتلفظ بحماقات بسعادة، وللقيام بذلك لديه استراتيجيات متعددة؛ خلق المشكلات، التهريب، تغيير الموضوع، التعقيم، الغنائية، الجدية المتأثرة، الكلام الملتبس، الخطب الجوفاء، الاحتيال... مهما كانت الطريقة أو السياق، فإن الهراء - كما يقول فرانكفورت - يسعى إلى «الخروج من الورطة» من خلال التصرف كما لو كان يقول شيئاً ما، في حين أنه لا يقول شيئاً، بمعنى أنه لا ينقل أي معلومات ذات أهمية. لذلك فإن الهراء هو شكل من أشكال التمويه الإبيستمولوجي، فهو يبدو أنه يسهم في المناقشة، حينما يعوق تقدّمها. إنه، باختصار، عكس التقدّم الخطابي.

لماذا نتسامح مع مثل هذا الطفيلي الفكري؟ على أي حال، الكاذب، عندما ينكشف قناعه، يتعرّض عمومًا للتوبيخ والاحتقار والتبرؤ منه؛ يبدو أن الهراء يعمل مع الإفلات التام من العقاب. ترك فرانكفورت هذا السؤال مفتوحًا، «كتمرين للقارئ»، ولكن يبدو أن بعض الاستعدادات النفسية، إلى جانب بعض العوامل الاجتماعية والثقافية، تجعل من الممكن تفسير هذه الظاهرة الغريبة. فمن ناحية، يبدو أننا نتعاطف بإفراط مع الهراء؛ إذا قال شخصٌ ما أي شيء، فإن ردّ فعلنا الأول هو محاولة العثور على معنى في خطابه، واستنتاج مدى ارتباطه بموقف معين، وإذا لزم الأمر تقديم تفسير يلبي هذه الحاجة، ففي كثير من الأحيان، يقوم المتعرّضون للهراء بجزء كبير من عمل الهرائين. من ناحية أخرى، يمكن أن يستفيد الهراء أيضًا من ثقافة محيطية معينة،

فإذا ما قُدر الاتزان والثقة بالنفس والحجبة والصدق، أكثر من الحقيقة البسيطة المتمثلة في قول شيء واضح وصحيح، فلن يمرّ الهراء من دون أن يلاحظه أحد فحسب، بل يمكنه الازدهار. واختتم فرانكفورت تحليله بهذه الكلمات:

«الصدق في حد ذاته هراء». التحدّث «من القلب»، والتعبير عن نفسك «بحماس وعاطفة»، وقول «أفكارك العميقة»، والتحدّث «من رجل إلى آخر»، وأن تكون «صريحًا» و«مباشرًا»، في هذا الصدد، ستكون القيم المعاصرة، وستكون أكبر قيمة بكثير من الصرامة والحصافة والدقة والانضباط، بل وستحل محلها. مع متحدثين «صادقين وموثوقين» ومتلقّين «متسامحين»، حيث يمكن تبادل أدوار كلّ منهم بسهولة وبانتظام، ومع كل عبارة يعزّزون وينشرون البنية المحيطة التي تفسح المجال لهذا النوع من التفاعل، يبدو أن الظروف مهيأة للوصول إلى كتلة حرجة من الهراء في الخطاب العام. إذا كان هذا التحليل صحيحًا، فإن لدينا، كما يبدو، تفسيرًا لظهور عبارة «ما بعد الحقيقة»، التي عرفتها قواميس أكسفورد، والتي جعلت منها «كلمة العام» لعام ٢٠١٦، باعتبارها صفة تشير إلى «الظروف التي يكون فيها تأثير الحقائق الموضوعية في تشكيل الرأي العام أقل من مناشدة المشاعر والمعتقدات الشخصية»^(١). والنتيجة الطبيعية المباشرة لمثل هذا الموقف هي أن أي شخص لا يشاركنا رأيًا مخطئًا بحكم الأمر

(١) <https://en.oxforddictionaries.com/word-of-the-year/word-of-the-year-2016>.

الواقع، ويسعى إلى التلاعب بنا، وهو غير أخلاقي إلى حد كبير، ولا يحترم معتقداتنا، التي هي حقيقتنا. ومن هنا ينشأ استقطاب في المناقشة، حيث يسعى كل شخص إلى الدفاع عن وجهة نظره وفرضها؛ ما يؤدي تدريجيًا إلى تشويه آراء الآخرين، وذلك لتسليط الضوء بشكل أفضل على قراره وفضائله الأخلاقية، حتى داخل «معسكره» الخاص. في هذه العملية الجهنمية، بطبيعة الحال، تصبح الحقيقة، والوقائع، وما هي الأشياء حقًا، وما هي الحال بالفعل، مفاهيم فرعية تمامًا، بل حتى مشكوكًا فيها صراحة.

إن المراقب المحايد، الذي يرى مثل هذه الديناميكية في العمل، لن يكون أمامه خيار سوى أن يتساءل عما إذا كان كل هذا، في نهاية المطاف، ليس غيبًا بعض الشيء. فهل الهراء، وما بعد الحقيقة، والوقائع البديلة، والأخبار المزيفة، وغيرها من نظريات المؤامرة، هي ببساطة الأسماء الجديدة التي نطلقها على خفة العقل؟

مبادئ الحماقة / الهراء المعاصر

في الواقع، اختارت الترجمة الفرنسية لهراء (bullshit) الفيلسوف فرانكفورت مصطلح «حماقة/هراء» (connerie)؛ الهراء (bullshitter) سيكون «فن أن تقول حماقات (conneries)». ومن المؤسف أن مصطلح «connerie» هنا يعاني غموضًا لا ينصف مفهوم الهراء (bullshit) بالمعنى الفلسفي المعطى له الآن. ومن دون الخوض في الاعتبارات الدلالية، يبدو أن «الهراء» يشمل -حسب

السياق- الكذب والحماقة والتفه والجهل وعدم الكفاءة. ولذلك فإن المجال واسع جدًا بحيث لا يمكننا أن نأمل في الحصول على فهم تفصيلي للإشكاليات المطروحة في مرحلة ما بعد الحقيقة. ومن ناحية أخرى، فإن مصطلح «connerie» له أيضًا ميزة لفت الانتباه إلى دور الحماقة في علاقتنا الحالية بمسألة الحقيقة. وما يهمنا هنا، أنه يمكننا اعتبار مصطلحات الغباء (stupidité) وقلة العقل (bêtise) والعباطة (sottise) والبلادة والحماقة (connerie) متكافئة إلى حد كبير، ولكن كما ذكرنا أعلاه، سنحرص على تمييزها من نقص الذكاء البسيط. ويبدو بالفعل أن درجة معينة من الذكاء ضرورية لإنتاج ذلك النوع من الحماقة/الهراء (connerie) الذي يميّز ما بعد الحقيقة، فاختراع الهراء والدفاع عنه ونشره يتطلب في الواقع موارد إدراكية كبيرة، بل حتى أجهزة عقلية تستهلك قدرًا كبيرًا من الطاقة الدماغية.

ربما تكون ذكيًا جدًا، وتمتلك قدرًا كبيرًا من المعرفة، وبينما تحارب بشراسة الخطأ والباطل (في الآخرين بالطبع)، تظل أحق جدًا. لماذا؟ لأن مثل هذا الفرد يمكن أن يتصرّف من دون هدف محدّد، ومن دون أن يعرف بالضبط ما قيمة الحقيقة والمعرفة، ومن دون أن يفهم حقًا معنى معرفة شيء ما، ومن دون أن يعرف كيفية استخدام معرفته بحكمة، ومن دون أن يهتم بالمعايير والأساليب التي تتيح له أن يكون على حق، ومن دون الانشغال بشأن الأسباب التي تجعل هذه المعايير والأساليب هي الصحيحة، ومن دون معرفة كيفية نقل معرفته بشكل صحيح، أو

حتى لماذا يجب أن تُنقل بشكل صحيح^(١). ونوع المعتقد هذا، يوضح ما أسماه روبرت موزيل «الغباء الذكي»، الذي اعتبره كانط عيباً في الحكم، وهو عيب -في نظره للأسف- غير قابل للشفاء. من الناحية البنوية، ليس لهذا الشكل من الحمافة الذكية أي نتيجة أخرى سوى إنتاج هراء، لأن مفهوم الحقيقة والمعرفة الذي يحفز معيب جوهرياً. بطريقة ما، يبدو الأمر كما لو أن ما بعد الحقيقة يتألف من تجنيد الذكاء البشري واستغلاله لجعله ينتج ويقبل أشكالاً مثلى من الحمافة. فيما يلي، أقترح ثلاثة عوامل محدّدة للحمافة المعاصرة، التي من المرجح أن تفسّر معاً ظهور الهراء على نطاق واسع؛ ما يؤدي في نهاية المطاف إلى استقرار نظام الأفن (imbécillité) المعمّم الذي نسميه «ما بعد الحقيقة». لننطلق بسرعة، يمكننا تحديد هذه العوامل تحت مصطلحات النرجسية وخداع الذات والادعاء، التي يمكننا أن نرى بالفعل كيف يمكن لتفاعلاتها أن تعززها بالتبادل. وبعد ذلك سأقول بضع كلمات عن العواقب الأخلاقية المترتبة على هذه الحمافة الناتجة، قبل أن أختتم كلامي، ولسوء الحظ، بإيجاز شديد، عن التطور المحتمل لما بعد الحقيقة ووسائل التعامل معه.

P. Engel, «The epistemology of stupidity», 72 M. A. Fernández Vargas (ed.), (١) Performance Epistemology: Foundations and Applications, Oxford UB pp.

196-223, 2016.

الشغف للشيء نفسه

في تحليله الثاقب للحماقة، توصّل ألان روجر إلى نتيجة مفادها أن الأمر لا يتعلّق بنقصٍ في العقلانية، بل على العكس، بإفراط في المنطق^(١). ستكون الحماقة هي الشغف الحشوي من أجل الشيء نفسه: «الفلس هو فلس»، «مهما قلنا، الدين هو الدين»، «أنا لست أغبي من أي شخص آخر»... هنا تتجلّى الحماقة عارية، من خلال مبدأ الهوية البشع «أ = أ» الذي لا يقول سوى ما قيل بالفعل وما فُكّر فيه بالفعل. الكفاية الذاتية المحضة، باختصار: أقول ما أفكّر فيه وأفكر فيما أقوله، لسبب وحيد هو أنني أقول ذلك وأفكّر فيه. وإذا كنت لا أتفق مع شيء ما، فهذا دليل على أنه خطأ، أو أنه لا يعنيني. فقط من «يتحدث معي» يمكن فهمه، من يتعلّق بالفعل بأذواق وميولي. ووضعها موضع التساؤل إهانة فعلية، لأن العدو وحده هو الذي لا يستطيع أن يتفق معي. «هذا رأيي وأنا أشاركه»، براداييم سخيف من قلة العقل، الذي سيكون مسلياً إلى حدٍّ ما لولا أن مصطلح «المشاركة» اليوم يأخذ دلالة حرفية ويائسة، إلى حدٍّ أن، بالفعل، «مشاركة» الحماقة و«متابعتها» أصبحتا الآن أسهل وأسرع من أي وقت مضى.

في قلة العقل الحشوية، يبدو العقل كأنه محاصر ولم يعد أكثر من

A. Roger, Bréviaire de la bêtise, Gallimard, 2008; voir aussi M. Adam, Essai (١) sur la bêtise, La Table Ronde, 2004.

تكرار ورضا ذاتي، وهي ذاتية منتصرة ومنتجة للأشياء الشائعة والأفكار المستقرة والكلشيهات. دعونا نذهب أبعد من ذلك؛ إن ملفوظ حشوي، مستند إلى مبدأ الهوية «أ = أ»، بالتأكيد هو فارغ من أي مادة جوهرية، لكنه يتمتع بخاصية أن يصبح أدائيًا على الفور. «مهما قلنا، اليهودي سيظل دائمًا يهوديًا»: إنه ملفوظ أحقق جدًّا، ولا يعتمد على أي حجة، لكن، على وجه التحديد، «هكذا هو الأمر»، «وهذا كل شيء». إن ملفوظ «نحن نستمع إلى عملائنا» هو أيضًا حماقة تنم عن غباء سحيق يعمل على نفس السجل، وبالتالي هو هراء في حالته النقية تقريبًا^(١)، لكنه لا يخلو من تأثير؛ تنتج مثل هذه الجملة وهما بأن مثل هذه الشركة، في الواقع، «تستمع إلى عملائها»، لذا فهي تأخذ رفاهيتهم على محمل الجد وتلتزم بضمان رضاهم التام. يكفي أن نقول ذلك حرفيًا، وبالتالي يصبح الهراء فعالًا بالقوة الوحيدة لطابعه الحازم. وبطبيعة الحال، لم يُنَجَز أي شيء فعليًا، لكن هذا هو بالضبط ما كان من المفترض تحقيقه. الهراء إذن هو اختزال مستمر لذاته وفي ذاته^(٢)، ومن هنا لجوءه الدائم إلى الأمثلة الشخصية، «الشهادة»، «الميدان»، «التجربة»، «الشعور». إن الأصالة والذاتية والإخلاص لا تكفي فحسب، بل تسمح للتافه (crétin) بأن ينتفخ بالفخر والرضا، فهو يعتقد أنه يعرف ما يتحدث عنه، في حين أن هذا الاعتقاد وحده في الواقع هو الذي يحمل رسالته كاملة، من دون أن يكون قادرًا حتى على تصوُّر أن الدعم

L. Penny, Your Call is Important to Us: the Truth About Bullshit, Three Rivers Press, 2005.

B. Cannone, La Bêtise saméiore, Pocket, 2016. (٢)

الخارجي يمكن أن يرشد أو يصحّح قناعاته الوحيدة أو، دعونا نحلم قليلاً، يجعله يغيّر رأيه. لا يعني ذلك أن الأحمق غير قادر على تقديم حججه إذا كان ذلك ضروريًا؛ من أجل ذلك، فإنه يستفيد من الانحياز التأكيدي - هذه القوة المغناطيسية التي تسمح له بتعزيز آرائه في جميع الظروف - والتي سوف تساعد في العثور على المستندات التي تناسب حالته، مع إهمال أو إعادة تفسير كل ما يتعارض معها^(١).

وهكذا يبدو أن الهراء والكسل الفكري والرضا الذاتي والنرجسية، كلها جوهرية، وتتقارب لانتصار الحدس. رأيي ورد فعلي هما الصحيحان، لأنهما لي. أي شخص لا يُظهر بشكل كافٍ «الصدق» و«الأصالة» والثقة والافتناع سوف تشوّه سمعته على الفور. قد يكون مهتمًا بالحقيقة، ويسعى إلى الدقة، ويُظهر الصرامة، فنحن ببساطة لا نستطيع أن نثق بشخص لا يبدو أنه يتحدّث «من أعماق قلبه»، لكنه يجتهد في عرض الحقائق ويشكّك في تسلسلها المنطقي. وهذا بالطبع أحد المصادر الرئيسية للشعبوية، وهو ما يفسّر لماذا يمكننا أن ندعم وننتخب كاذبًا واضحًا، ما دام أنه «واحد منا»، وهذا هو مبدأ الهوية الغبي الدائم، لكنه يُطبّق على نطاق عالمي^(٢).

R. Nickerson, «Confirmation bias: a ubiquitous phenomenon in many guises» (١)

in Review of General Psychology, 2, 175-220, 1998.

O. Hahl, M. Kim et E.W.Z. Sivan, «The authentic appeal of the lying (٢) demagogue: proclaiming the deeper truth about political illegitimacy». in American Sociological Review, 83, 1-33, 2018.

ومرة أخرى، لا علاقة لآليات الحماية هذه بالذكاء^(١). من الممكن تمامًا أن يصبح الناس حمقى بشكل جماعي أكثر فأكثر، من دون أن ينخفض مستوى الذكاء العام بمقدار ذرة واحدة. على العكس من ذلك، فإن الذكاء مطلوب إلى حد كبير لدعم مثل هذا النظام الغبي، وخاصةً من خلال إنشاء نظرية إستمولوجية شخصية^(٢) لا تزيد ولا تقل عن الاعتقاد، الذي يحافظ عليه بمهارة، بأن المعرفة هي مسألة حدس، وأن شيئاً ما صحيح، وأننا نعرف أنه صحيح منذ اللحظة التي أصدرنا فيها الأمر ببساطة على هذا النحو، وأننا «مقتنعون به بشكل وثيق»، بل الأفضل من ذلك أن نجعل منه «قيمة» تحدّد هويتنا.

لكن أنا غبي!

ومع ذلك، فإن الحماية لن تكون حماقة إذا كان بإمكانها تصنيف نفسها على هذا النحو. للأسف، المعتوه، لأنه معتوه، لا يملك الموارد العقلية التي تسمح له بإدراك أنه معتوه. هذه نقطة إستمية عمياء تقترب من المساوية: الحماية أبعد من أن تكون حمقاء، لأنها تعرف مصالحها وتعرف كيف تحمي نفسها من هجمات العقلانية.

الأحمق، المنغلق على مبدأ هويته، يحرم نفسه بحكم الأمر الواقع من القدرة على رؤية الأشياء بشكل مختلف؛ أي من وجهة نظر فرد

K. Stanovitch, «Rationality, intelligence, and levels of analysis in cognitive science: is dysrationalia possible?» in R. Sternberg (Ed.), Why smart people can be so stupid, Yale UP, pp. 124-158, 2002.

B. Hofer et P. Pintrich, (Eds.), Personal Epistemology: the Psychology of Beliefs about Knowledge and Knowing, Lawrence Erlbaum Associates, 2002.

لن يكون هو، بمن في ذلك، وعلى وجه الخصوص، شخص سيعرف أكثر منه^(١). وهذا ما يسميه علماء النفس تأثير دانينج- كروجر، والذي سمّي على اسم المؤلفين اللذين وثّقاه^(٢)؛ من الواضح أن الشخص غير الكفاء في مجال معين سيؤدي أداءً كارثيًا في هذا المجال، لكن الأهم من ذلك، أنه إذا تُرك لتقديره الخاص، فإنه لن يدرك عدم كفاءته، وسوف يبالغ في تقدير أدائه. إن الخبرة، في كل شيء، تكون مصحوبة بمعرفة تفصيلية لما يُكوّن هذه الخبرة، والتي تُكتسب من خلال النضال الشاق، وتحت نير العمل الدؤوب المؤلم والتساؤل المستمر. الخبير الحقيقي يدرك أنه خبير، ويعرف موضوعه جيدًا، وسيكون أيضًا على دراية بما لا يعرفه وما لا يزال يتعيّن عليه تعلّمه، لذا فهو يعرف حدوده، بل إن البحث يُظهر أن الأشخاص الأكفاء حقًا يقلّلون إلى حدٍّ ما من مهاراتهم. من ناحية أخرى، ليس لدى الأحمق أدنى فكرة عما قد يسمح له بأن يكون أقلّ حمقًا. إنه لا يعرف أنه أحمق، لأنه من الواضح لا يوجد شيء يمكن أن يُعرّفه أنه الأحمق. ونود أن نقول إن هذه هي مشكلته بالفعل، لكن هذه المشكلة في الواقع تصبح مشكلة الآخرين بحكم

Notons qu'il est également très difficile pour quelqu'un d'intelligent et (١) de rationnel de s'imaginer ce que peut être [un univers mental d'un con, un phénomène parfois appelé «malédiction de la connaissance», S. Birchett P. Bloom, «The curse of knowledge in reasoning about false beliefs» in Psychological Science, 18, 382-386, 2007.

D. Dunning, «The Dunning-Kruger effect: on being ignorant of one's own (٢) ignorance» in Advances in Experimental Social Psychology, 44, 247- 296, 2011.

الأمر الواقع، إلى حدّ أن الأحق، الذي لا يدرك أنه أحق، لا ينزعج من حماقته، وبالتالي فهو بالتأكيد لا يتردّد في فرضها على من حوله، بل أحياناً على من هم أبعد من ذلك.

وبالتالي، ليس (فقط) من باب الشر الخالص نختر نظرية إبستمولوجية تُعير على أساس الذاتية، والحدس، و«الأصالة» و«الإخلاص». إنها أيضاً طريقة مؤكدة جدّاً حتى لا نقع أبداً في الخطأ، وحتى لإخفاء حماقة المرء عن نفسه. المعنوية محاصر بغباء في أنه المصنونة، محصّن ضد أدنى اكتشاف من شأنه أن يغير حماقته، ولا يقتصر أمره على ألا يصل بسرعة كبيرة إلى عدم القدرة على اكتشاف حماقته والتعرّف إليها وتحديدها، ولكن ما هو أسوأ من ذلك، أنه سيضع كل ذكائه فيها، لم يعد هذا يساعد في تقييم جودة المعلومات وصحة معتقداته، لكن فقط لتحديد ما إذا كانت هذه تتماشى مع تفضيلاته السابقة أم لا وتشويه كل ما لا يناسبه. إن روح الحماقة تعمل بلا كلل دفاعاً عن نفسها، ولا شيء غير ذلك.

ثمة عواقب لهذه الخاصية الخبيثة للحماقة. كما رأينا، لا يقتصر الأمر على أن الحماقة تجعل نفسها غير مرئية، لأن المعنوية غير قادر على إدراك أنه معنوية، وبذلك يبالغ في تقدير مهاراته، لكنه يؤدي بالضرورة إلى الحطّ من قدر الذكاء الحقيقي (وهو ما سيكون من الصعب التعرّف إليه على هذا النحو)، وبالتالي تعزيز حماقته باستمرار. أي شخص لديه معتقدات حقيقية ومعلومات صحيحة بشكل أساسي ليس لديه سوى شيء واحد ليقوله، وهو الحقيقة. من ناحية أخرى، لدى المعنوية مخزون

لا حصر له من الهراء، لأنه لا توجد طريقة واحدة فقط للخطأ. وبما أن البُلّه يشعرون بالقدرة على التعبير عن آرائهم بشأن أي شيء وكل شيء، وأن لديهم وسائل اقتصادية وفعّالة للقيام بذلك، فمن الواضح أن الوقت المتاح لتصحيح كل هذا الهراء سوف يكون ضيقاً للغاية بالنسبة إلى أولئك الذين لديهم طرق موثوقة للوصول إلى الحقيقة. وهذا ما نسميه «مبدأ عدم التماثل في الهراء»^(١)؛ يمكن لأي شخص إنتاج الهراء على نطاق واسع وبتكلفة قليلة، في حين أن الأشخاص القادرين والعازمين على فضحه قليلو العدد وعليهم بذل كثير من الجهد من أجل ذلك.

الهراء يتنكر

ولذلك تتسم الحماسة بأشكال من النرجسية وخداع الذات التي يعزّز بعضها بعضاً، ولذا تسهم في تسهيل انتشارها بين الناس. إنها تستفيد دائماً من رباطة الجأش التي تشير إلى الثقة الزائدة بالنفس لدى المعتوه، والتي ستتغلب بالضرورة على أي مظهر من مظاهر الحكمة والصرامة في بيئة حيث من المقبول على نطاق واسع أن المعرفة مسألة حدس و«إخلاص»، قبل كل شيء. باختصار، الشخص الذي يتحدث بصوت أعلى وبأكبر قدر من «الاقتناع» و«العاطفة» سوف يُنظر إليه على أنه الشخص الذي لديه كثير من الأشياء ليقولها، وسوف يُستمع إليه بشكل أكبر. ومع ذلك، ليس كل الهراء متساوياً. المنافسة صعبة في هذا المجال، حتى المغفلون عليهم أن يجدوا طريقة للتميّز عن

<http://ordrespontane.blogspot.ch/2014/07/brandolinis-law.html>

(١)

المغفلين الآخرين. وهكذا تظهر الظاهرة الأكثر إثارة للقلق المتعلقة بالحماقة، فهي تسعى إلى تصوير نفسها على أنها ذكاء. من المؤكد أن الأحق يقدر هراءه على أنه لؤلؤة من الحكمة، وملاحظات غير مسبقة ذات عمق لا يصدق، وثمره تفكير مكثف، ومن الواضح أنه يريد أن يؤخذ بأكبر قدر من الجدية. أحد اكتشافاته هو الاستدلال الوهمي، فبدلاً من الاستدلال الحقيقي للوصول إلى نتيجة، يتعلّق الأمر بالبداية من النتيجة إلى الوراء من أجل التلاعب بـ«الاستدلال» الذي سيؤدي حتماً إلى هذه النتيجة. قال فلووير: «الحماقة هي الرغبة في الاستنتاج». بالتأكيد، لكنها تتألف أيضاً، كما هي الحال مع زميله بوفار وبيكوشيه، من تخيل الوصول إلى النتيجة بالوسائل المناسبة^(١). ومن الغريب أن هذا ينجح في كثير من الأحيان، وبالتالي يمكن لآخر المحتالين أن يقدم نفسه على أنه عبقرى صغير، أو عملاق فلسفي، أو اسم كبير في علم الأعصاب.

وكما ترتدي العلوم الزائفة ثوب العلم وهي تحتقره، وكما تقدّم الأخبار الكاذبة نفسها كمعلومات موثوقة وموثقة في حين تهين الصحافة «الرسمية»، وكما تسعى «نظريات المؤامرة» إلى تصوير نفسها على أنها تحقيقات صارمة وحريصة على إظهار الحقيقة لكن من دون بذل أدنى جهد في هذا الاتجاه، لا يمكن للحماقة أن تبقى وتزدهر إلا إذا اتخذت مظهر ألد أعدائها؛ أي العقل والمعرفة والحقيقة^(٢). وهذا

S. Dieguez, «Qu'est-ce que la bêtise?» in Cerveau & Psycho, 70, 84-90, 2015. (١)

S. Blancke, M. Boudry, M. Pigliucci, «Why do irrational beliefs mimic science?» (٢)

The cultural evolution of pseudoscience» in Theoria, 83, 78-97,

يتطلب موهبةً معينة في المحاكاة؛ أي أن «الاستدلال» الذي ينتجه الأحمق يجب أن يظل يشبه تمريناً حقيقياً للفكر، وخاصةً أن هذا هو الهدف، وهو ما يسمح للمرء بالحفاظ على الفكرة التي لديه عن نفسه وإبرازها، سواء كانت فكرة شخص يتمتع بأخلاق لا تشوبها شائبة، أو فكرة محرّض لا يخشى أن يقول ما يفكر فيه، أو تلك الخاصة بالمتقف الذي «لا يفعل مثله أحد»، أو في أغلب الأحيان الثلاثة في الوقت نفسه. إذا ما نظرنا إلى هذا السلوك، فهو ليس أكثر من ادعاء وغطرسة. لذلك فإن الحماقة تعمل من خلال الطفيلية المحاكية، فهي تستغل الفضائل والتوقعات المرتبطة بالمنتجات الأصلية للعقل البشري، وتجري من خلال عقلانية زائفة^(١). وهذا يتطلب شكلاً معيناً من الذكاء، كما لاحظ روبير موزيل، الذي كانت الحماقة بالنسبة إليه «ليست افتقاراً إلى الذكاء بقدر ما كانت تنازلاً عنه في مواجهة المهام التي تدعي إنجازها»، و«عدم الانسجام بين تحيزات المشاعر وفهم غير قادر على كسر حدتها»^(٢). عندما لا يكون لديك شيء مثير للاهتمام يمكن قوله، لسوء الحظ، لا تزال هناك إمكانية لتقليد المظهر السطحي لشيء مثير للاهتمام يمكن قوله. وإذا أصبح هذا النهج هو القاعدة في مجتمع معين، يمكننا بالفعل أن نتحدث عن «ما بعد الحقيقة».

A. Piper, «Pseudorationality», in B. McLaughlin et A. Rorty (Eds.), Perspectives (١) on Self-Deception, University of California Press, pp. 173-197, 1988.

R. Musil, De la bêtise, Allia, 1937. (٢)

غبي وخبيث (ومتصل)

ولذلك فإن ما بعد الحقيقة يتغذى على الفاعلين الأفراد الذين تكون معتقداتهم وسلوكهم مدفوعين إلى حد كبير بالعلاقة مع المعرفة التي تقوم على استخدام الحدس والشعور، وهو شكل من أشكال الحماقة التي تتميز بخداع الذات؛ ما يجعل استجوابها مستحيلًا، لكنها تسعى جاهدة لتشبه الاهتمام العقلاني والصادق وذات الصلة بالحقيقة. من وجهة النظر العامة جدًا هذه، يبدو أن الهراء والأخبار الكاذبة ونظريات المؤامرة و«الحقائق البديلة»، إضافة إلى «مشاركتها» في غير أوانها، هي مظاهر معاصرة ومتفاقمة للغباء الأبدي القديم. وهذه ليست مفاجأة كبيرة، فمن المؤكد أن الجميع سيكون قادرًا - باستثناء البله - على رؤية أن «ما بعد الحقيقة» يغطي في نهاية المطاف قدرًا هائلًا من الهراء.

ويبقى لنا أن نتناول بعض مظاهره وعواقبه. لقد رأينا أن الهراء ينطوي على اغتصاب المجال الفكري، لكن هذا لن يكون مشكلة كبيرة إذا لم يمتد الهراء أيضًا إلى المجال الأخلاقي. يقول الفيلسوف باسكال إنجل: «قليل العقل (sot) مذنب لعدم احترام الحقيقة». ويترجم افتقاره إلى الفضائل الفكرية إلى رذيلة أخلاقية. والأسوأ من ذلك أن «العقل الجميل»؛ أي الهراء باختصار، هو من يدعي احترام قيم العقل، والذي يبدو أنه يهتم بالحقيقة ويدل على العقل، لكنه في الواقع لا يقلد هذه الصفات إلا للانصهار في بيئة ما، أو لبدو مثقفًا، أو ببساطة يتألق في المجتمع بتكلفة قليلة. قد يحترم الشخص قليل الذكاء، إذا جاز التعبير،

الحقيقة ونوع الذكاء الذي يؤدي إليها. فالهَرَاء والمتكبر والمغرور والأحمق يحقرونها ويستغلونها، ليس من باب الحرص على الحقيقة في حد ذاتها، بل من باب الحرص على أنفسهم. إن المضار التي تنتجها الحماقة لا حصر لها، بدءاً من الحماقة المدهشة البسيطة التي تتمثل في التصرف كما لو كنا نعبّر عن شيء جديد ومثير للاهتمام، أو حتى عن فكرة جذرية وجريئة للغاية، وحتى الرياء، هذه الطريقة لممارسة الفضيلة بهدف وحيد هو أن يكون فاضلاً، خاصةً جعل ذلك معروفاً، والنتيجة الطبيعية لذلك هي السخط الواضح، الذي يرقى إلى السخط على شيء ما بهدف وحيد هو السخط وإظهار أن المرء ساخط، وهي ظاهرة معاصرة للغاية وُصِفَتْ بأنها تعالٍ أخلاقي^(١).

نظراً لطبيعة هذا التأكيد أو ذاك الحدث، يتمكن الأحمق على الفور من الشعور والتعبير عن عدم موافقته، ورفضه، وسخطه، وغضبه... ببساطة لأنه قرر أن هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله، وأنه من المفيد القيام بذلك وجعله معروفاً لأكبر عدد ممكن من الناس، إلى الحد الذي يساعده على تعريف نفسه كفرد. يؤدي هذا الموقف إلى آلية الاستقطاب الذاتي، حيث إن كمية هذا السخط وأسبابه تتطلبان يقظة مستمرة وتشجعاً على التصعيد القطيع الذي يهدف إلى تمييز نفسه في بيئة تنافسية بشكل متزايد في الحماقة. ومن هنا جاء المتصيّدون، والتعسّفات، والشائعات، و«الاشتباكات»، والحمقى «الطنانون» الذين

J. Tosi et B. Warmke, «Moral grandstanding» in Philosophy and Public Affairs, (١) 44, 197-217, 2016; Crockett, M., «Moral outrage in the digital age» in Nature Human Behaviour, 1,769-771, 2017.

يجب عليهم الآن أن يتقاتل بعضهم ضد بعض من أجل الحصول على دعم (نقرة) الجمهور المندفع في سباق دائم أكثر سخافة يهدف ببساطة إلى ترويع الغباوة اليوم.

بالإضافة إلى الضرر المحدّد الذي من المحتمل أن تلحقه كل حلقة من الهراء بأهدافها، تجدر الإشارة قبل كل شيء إلى أن التأثير العام للهراء والأخبار المزيفة و«الحقائق البديلة» وما بعد الحقيقة التي تؤطرها لا تستند، بالمعنى الدقيق للكلمة، إلى الحثّ على معتقدات كاذبة. وكانت هذه نتيجة، سواء أكانت متوقعة أم لا، الشائعات والدعاية «قديمة الطراز». واليوم، يتعلّق الأمر بالأحرى بزعزعة استقرار علاقتنا بالحقيقة تمامًا وإفساد علاقات الثقة الضرورية للمشروع الديمقراطي. إن التوقف عن الإيمان بأي شيء، والتوقف حتى عن التفكير في أنه من الممكن التوصل إلى معرفة قريبة على الأقل من الحقيقة المشتركة بين الجميع، ربما يكون أكثر ضررًا من مجرد الاعتقاد بأشياء كاذبة، التي على الأقل تحافظ على الأمل في تصحيحها يومًا ما.

كل هذا هراء مذهل ولا يقدّم أيّ سببٍ للتفاؤل تقريبًا. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن وجود ما بعد الحقيقة في حد ذاته يفترض وجود خلفية للحقيقة يمكنها أن تزدهر ضمنها، ولو من خلال السعي إلى تقليدها. لا يمكن للنقود المزيفة أن تسبّب ضررًا إلا إلى حدّ معين، ولكن بعد عتبة معينة، إذا لم يكن هناك سوى نقود مزيفة متداولة تقريبًا، فلن تعود ذات فائدة لأي شخص. لذا فإن السؤال المطروح أمامنا هو أن نعرف إلى أي مدى يمكن أن تصل حماقتنا، وإلى أي مدى يمكن أن تصل وتتكاثر تحت

زخم المنصات التكنولوجية التي يبدو أنها صُممت لاستغلالها وزيادتها وجعلها تتألق إلى أبعد مدى وفي أسرع وقتٍ ممكن.

فهل يكفي تشجيع الأجيال الشابة على تطوير «تفكيرهم النقدي» أو تعليمهم «فك شفرات المعلومات»، مع العلم أن المشكلات التي ستواجههم بعد سنوات قليلة لن تعود كما هي اليوم، وهذه حماقة، كما رأينا، تحورت بالفعل لتشبه «التفكير النقدي» ولا تحرم نفسها من طرح «حلول» للمشكلات التي تسببها، من دون أن تعلم بالطبع أنها هي التي تسببها! هل تستطيع السلطات الإستمية، المتمثلة في العلم والصحافة والعدالة، أن تلعب دورها في هذه المعركة، على سبيل المثال من خلال اقتراح بيانات أكثر شفافية، وتواصل أكثر وضوحًا، و«تدقيق الحقائق» بجدية، وقوانين رادعة ومقيدة ضد مروجي الحماقات المتلاعبة والشريرة؟ ربما، ولكن مع الوضع في الاعتبار أن ما بعد الحقيقة سوف يختصر كل هذه التطورات، ويعيد تدويرها على الفور في نظامه المعنوي القائم على تآكل الثقة، والشكوك المنتشرة على نطاق واسع، واللامبالاة بالحقائق.

ويبقى هناك نهج ثالث، يتمثل في تناول الهراء، والحماقة التي تكمن وراءه، في لعبته الخاصة؛ أي التدليل على الاختراع بالكذب والغباء. هذا هو عمل الهجاء والخيال، لأن ما بعد الحقيقة يعني ضمناً ما بعد الخيال. عدم الاهتمام بالحقيقة يعني أيضاً عدم تقدير الباطل. ربما نحتاج ببساطة، كي نكون أقل حماقة، إلى أن نستعيد تذوق إبداعات العقل البشري، وأن نُظهر مزيداً من التواضع الفكري، كما هي الحال عندما يضع الذكاء نفسه في خدمة الذكاء، وليس الحماقة.

تحولات العباطات القومية

بيير دي سيناركُلنس

أستاذ فخري للعلاقات الدولية في جامعة لوزان،

ومسؤول كبير سابق في منظمة اليونسكو، والاتحاد الدولي للصليب الأحمر

المجتمعات بحاجة إلى الأساطير. وعزا الفيلسوف إرنست كاسيرر سخافة وتناقضات هذه البناءات الخيالية إلى «الغباء البدائي» للبشر. وقد أيدَ فرضية علماء الأنثروبولوجيا، وعلى وجه الخصوص برونيسلاف مالينوفسكي، الذين فسَّروا هذه المعتقدات بأنها محاولات للإجابة عن سؤال الموت غير القابل للحل. كما رآها تعبيراً عن الرغبات الجماعية، ولم يكن يرى أن المجتمعات تستطيع التخلص منها. ومع ذلك، كان يشعر بالقلق، فقد كتب في عام ١٩٤٥، قرب نهاية حياته في الولايات المتحدة^(١): «من المحتمل أن الجانب الأكثر أهمية والأكثر إثارة للقلق في الفكر السياسي الحديث هو ظهور قوة جديدة؛ قوة الفكر الأسطوري». وكانت القومية جزءاً من هذا الفكر الأسطوري، خاصة

The Myth of the State, Yale UP, 1966, p. 3. (١)

أنها شهدت تحولات كارثية مع ظهور الأنظمة الفاشية، وكانت هذه الأيديولوجية تشبه في كثير من جوانبها تلك القصص المشبعة بالسحر التي شبَّها اليونانيون بالحكايات الخرافية، التي ترويها المربيات لإلهاء الأطفال أو تخويفهم^(١).

الديمقراطية : من العقل إلى العواطف

كان تراث عصر الأنوار المثل الديمقراطي الذي يعني ضمناً تقدُّم العقل. ومن هذا المنظور، كان من المفترض أن تختفي الخرافات وخبث الأرواحية بفضل تطوُّر التعليم وتقدُّم العلوم. وسوف يتعلَّم المواطنون في نهاية المطاف من هذه التجربة. ومن ثم فإن مداولات هيئاتها سوف تستند إلى نهج تجريبية وتتيح الاختيار بين أفضل الخيارات السياسية. ولتحقيق هذه الغاية، سينتخبون قادةً مستنيرين. وبسبب تحسُّن ظروفهم المادية ومعرفتهم، سيكونون قادرين على انتزاع حريتهم وبناء مسار تاريخهم بذكاء كامل.

تبين أن هذا الاعتقاد وهمي جزئياً، فالمجتمعات تحتاج إلى المقدس. لقد أثبت العقل أنه لا يساعد كثيراً في وقف تضارب المصالح، وفي التحكم في تباين القيم، وتخفيف علاقات القوة التي تشكِّل نسيج الحياة السياسية. ينخرط الأفراد في الحياة العامة بعقلهم، لكن أيضاً بكل ما يتعلَّق بواقعهم النفسي: خيالاتهم، ورغباتهم، ودوافعهم اللا واعية، وغرائزهم. ويعود تأثير الأيديولوجيات إلى الأهداف التاريخية

J.-P. Vernant, *Mythe & Société en Grèce ancienne*, La Découverte, p. 201. (١)

التي تعلنها، بقدر ما يرجع إلى المشاعر التي تحشدها وتجاوزات العنف التي تبررها.

كما فرضت المطالبة بالسيادة الوطنية في الأصل كمشروع عقلاني مرتبط بتطلعات المواطنين إلى الحكم الذاتي والكرامة والمساواة. ومع ذلك، كان هذا المثل الأعلى مشحوناً خصوصاً من وجهة نظر عاطفية، فقد نُظِمَ في إطار شعائر مقدسة مماثلة لتلك التي تقيمها الطوائف الدينية. ويمكننا أن نذكر في هذا السياق عيد الحرية الذي نُظِمَت اتفاقية ١٠ نوفمبر ١٧٩٣ في الساحة أمام نوتردام ولاحقاً التظاهرات الكبرى التي نظمها موسوليني وهتلر وُخِصت لعبادة هؤلاء القادة. مع تقدم الديمقراطية في نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت السياسة شأن كل الناس، والمسرح الكبير للمشاعر الفردية والجماعية، تلك الخاصة بالمتقنين والناشطين السياسيين والجماهير التي تغزو الفضاء العام بمطالبها المادية ورغباتها وأوهامها.

فالأفراد الذين يستثمرون خيال مجتمع ما - سواء كان عرقياً أو دينياً أو قومياً- يختبرون جميع أنواع العواطف، ولكن في المقام الأول، تلك التي تحشد مشاعر الارتباط بالهوية. ومن خلال تبني قناعات قومية، فإنهم يأخذون بزمام المثل الجماعية التنويرية. ولا يشكّل هذا الميل مشكلة في حدّ ذاته، لكن النرجسية التي تحرّكه يمكن أن تصبح مصدراً للأوهام الضارة. إنه يتفهّم فكرة أن أمته تأتي من تاريخ عظيم، ووعده بمصير استثنائي. وهذا الادعاء بالتفوق يسير جنباً إلى جنب مع التقليل من شأن ما هو أجنبي. وهو أكثر عدوانية لأنه يؤكّد نفسه دائماً في

مجموعات، منظّمة إلى حدٍّ ما، تلك المكونة من الحشود أو الجيوش أو الحركات السياسية التي تتقدّم تحت رعاية قادة لا يقبلون الجدل. في الواقع، توفرّ القومية تفسيراً عقلائياً ومقبولاً لاحتياجات الكرامة الفردية، ولكن أيضاً لكل ما يتعلق بالاحتياجات والرغبات المقبولة إلى حدٍّ ما: الحسد الاجتماعي، والكبرياء، والعدوانية، والرغبة في السيطرة. ومن خلال تمجيد الحاجة إلى المجد والشرف والقوة البدنية والرجولة، استولت القومية على مفاهيم النبلاء في النظام القديم. لقد قدمت للأفراد، وخاصة الأضعف من بينهم، الموارد اللازمة لتهدئة مشاعرهم بالنقص والعجز^(١).

مثالية المجموعة وسلبيتها

كل ما يتعلّق بالترجسية هُشّ بطبيعته. ولهذا السبب فإن الإفراط في تثمين الأمة يعتمد على انعدام الأمن، سواء كان ذلك بسبب الضعف الاجتماعي والاقتصادي أو لأسباب ذات طبيعة نفسية أكثر. ينطوي هذا التثمين على دفاع غامض عن الحدود الثقافية والسياسية. وتُعقّد القومية علاقة وثيقة مع كراهية الأجانب والعنصرية. إن استيهام الانسجام الاندماجي هو في قلب ادعاءاتها، والأجنبي يرمز إلى ما يعوق هذه الرغبة. فالقوميون يعطون أنفسهم حق التحدث باسم الجماعة الوطنية، ويريدون أن يستبعدوا منها من يشتهبه في إفشال تماسكها. إنهم يستخدمون المثال الوطني لتشويه سمعة كل من يعارض آراءهم

P de Senarclens, Nations et nationalismes, Sciences Humaines, 2018. (١)

السياسية. إنهم يُسقطون على قادة أرسلتهم العناية الإلهية، أو على صور صوفية ذات طبيعة أمومية ومهدئة، احتياجاتهم ورغباتهم في الحماية. ورغم أن الصورة المثالية للأمة تشير من دون وعي إلى عالم الأمومة في مرحلة الطفولة المبكرة، فيتعيّن علينا أن نستبعد أولئك الذين ينظر إليهم على أنهم مثيرون للفتنة. وكانت هذه هي الحال على وجه الخصوص بالنسبة إلى اليهودي في ذروة القومية. ومع تمجيد النزعة القومية في فرنسا وألمانيا، كان ينظر إليه على أنه «دخيل» يقوّض الانسجام في المجتمع الوطني. يتذكّر جورج ديفرو أن «كل مجتمع يخلق مثلاً لمجموعة» يقتضي سلبيتها. لقد سمح اليهودي للمجتمع الوطني بأن يرسم حدوده بشكل خيالي. لقد كان «المثال المضاد للمجموعة»، الذي كانت وظيفته الأساسية هي «أن يكون بمثابة إحباط لفكرة المجموعة من خلال تجسيد - كمثال يجب تجنّبه - كل ما لا تمثّله فكرة المجموعة، ويجب أن تتجنّبه بأي ثمن^(١)».

بعد الحرب العالمية الثانية، استمرت القومية في الولايات المتحدة. لقد ألهمت خاصةً مطالب سيادة الدولة التي قدّمتها الحركات المناهضة للإمبريالية الاستعمارية. ومن ناحية أخرى، فقدت نفوذها في معظم الدول الأوروبية. لقد أدت المآسي التي تسببت فيها الأنظمة الفاشية إلى تشويه سمعتها جزئياً، في حين سيطرت الأنظمة الأيديولوجية للقوى العظمى على المناقشات السياسية. إضافة إلى ذلك، فإن سبل حماية

G. Devereux, «La psychanalyse appliquée a histoire de Sparte», in Annales. (١)

Histoire, Sciences Sociales, 20^e Année, N°1 (Jan.-Févr., 1965), p. 31-32.

دولة الرفاهية والمجتمع الاستهلاكي قدّمت مصادر أخرى للإشباعات النرجسية غير تلك المرتبطة بعظمة الأمة وشرفها، والدفاع المسلح عن مصالحها.

عودة السحرة

إن النزعة «السيادية» المبالغة التي تقابلها الحركات الشعبية اليوم بالعولمة، تحافظ مرة أخرى على أوهام قومية معينة، وخاصة أوهام المجتمع الوطني المتجانس. كما أنها تعيد الاتصال بطقوسها التغريبية، لا سيما احتجاجاتها الجماهيرية وأناشيدها ومعاييرها. تشير هذه القومية أيضًا مشاعر الهوية والحاجة إلى كبار السحرة. وفي هذا السياق، يتهم المهاجر بالتسبب في خفض الأجور، وارتفاع معدلات البطالة والهشاشة الاجتماعية، ولكن أيضًا لأنه مرتبط بتدفق الناس من «أعراق» مختلفة، حاملين مفاهيم ثقافية أجنبية، إضافة إلى تفكك علاقات التضامن التقليدية، بل هو أيضًا رمز الزمن المتغير، وربما يكون رفضه أقوى لأنه أيضًا مصدرٌ للانزعاج والشعور بالذنب. إضافة إلى ذلك، فإن الطائفية الدينية المولودة من فشل عمليات التكامل الوطني تُديم في كل مكان تقريبًا رؤى وآليات وهمية وإقصائية أو بغیضة وآليات إسقاط يُعبر عنها من خلال القومية.

إن تطلع المواطنين إلى إعادة الارتباط بالعقد الاجتماعي للسيادة الوطنية ينبع من مطلب عقلائي. إنها ضرورة كاستجابة للتحديات والقيود التي تفرضها العولمة ضعيفة التنظيم والتي تسبب كثيرًا من انعدام الأمن، وحركات الهجرة واسعة النطاق، والاستقطابات الاجتماعية

الجديدة والبطالة. وفي مواجهة هذه الحقائق الاقتصادية والاجتماعية، وظهر أنماط إنتاج جديدة وما يترتب على ذلك من روابط تكافلية، سوف تعجز الحكومات عن أداء وظائفها في مجال التكامل السياسي، وتكافح من أجل الابتعاد عن المسارات التي رسمتها الإصلاحية والحلول التكنوقراطية. إن هذه الإخفاقات، التي تسير جنباً إلى جنب مع تآكل الأنظمة الأيديولوجية الكبرى والمدينة الفاضلة التي تقودها، وكذلك تسير إلى جنب إضعاف النماذج التقليدية للتنشئة الاجتماعية، تسهم في إفقار المداومات الديمقراطية. إنها تحث بعض الأفراد على مواصلة بحثهم عن المجتمعات الخيالية، تلك التي يمكن أن ترتبط بتمثيلات غير عادية للأمة أو العرق والدين، وهي أوهام تشكّل مصادرَ للاغتراب السياسي والاجتماعي. إنها تحثهم على طلب المساعدة من سلطة وصاية، من سلطة ذات قوى خارقة، قادرة على توفير الحماية التي يتطلعون إليها.

الشعبوية تجند في جميع الدوائر

لا تُفسّر الضائقة الاقتصادية الشعبوية تفسيراً كاملاً، لأن ليس كل أولئك الذين يدعمونها يأتون من خلفيات محرومة مادياً، وخاصة في الولايات المتحدة. يمكن أن تكون نقاط ضعفهم نفسية أيضاً. ومن خلال دعم الزعماء الشعبويين، الذين يتغذى خطابهم على العنف والتعاويد، يختار الناخبون هوياتي. دعونا نذكر حالة دونالد ترامب. خلال حملته الانتخابية، كان افتقاره إلى الكياسة جانباً مهماً من نجاحه السياسي. لم يُخفِ أي شيء من عيوبه الحميمة. لقد أظهر عدم نضجه،

وهشاشته النرجسية، ففرض نفسه كأنه لم يكبر قط، وكأنه لم يتمكن من اكتساب الضمير الأخلاقي الحقيقي. كانت أكاذيبه واستثارته وتناقضاته وجانبه البلطجي مغرية. لقد أدرك عدد كبير من الأمريكيين -مهما كانت حالتهم الاجتماعية- أنفسهم في فظاظته، وأحقاده، وسلوكه المبالغ فيه، وأفكاره التبسيطية، ومواقفه المانوية، ونظريات المؤامرة، وعنصريته، وتمجيده لعظمة الولايات المتحدة.

تجنّد الأحزاب الشعبوية في المقام الأول الأفراد الذين يفتقرون إلى الخلفية الأكاديمية والتدريب المهني، وهي الأصول التي يمكن أن تسمح لهم بتقييم العواقب المترتبة على الخيارات التي يتخذونها بشكل كامل. وتحافظ خطابات هذه الأحزاب على لغة جدلية، قليلة الكلمات، وغالبًا ما تكون فظة. إنها تتملق الأشخاص الذين يجدون صعوبة في الترميز، والتعرف إلى جوانب الواقع الغامضة، ومواجهة القضايا المعقدة المليئة بالتناقضات. وهؤلاء الناحبون لا يتمتعون إلا بقدر ضئيل من الصبر في التعامل مع القضايا الاقتصادية المعقدة في كثير من الأحيان، وليس لديهم ميل إلى المداولات السياسية. ويدافع من غضبهم ضد النخب الحاكمة الفاشلة، فإنهم يدعمون البرامج التي تتعارض مع مصالحهم الخاصة، ونحن نرى هذا في موقفهم من تحرير التجارة والتوظيف والديون والعمل. ومن خلال إساءة استخدام إجراءات المداولات الديمقراطية، فإنهم، على نحو لا يخلو من المفارقة، يقوّضون شرعية المشروع الوطني. فهل هم أغبياء إذن؟ لا ينتمي هذا المفهوم إلى لغة العلوم الاجتماعية. لو كانت البلاهة السياسية مجرد مسألة تعليم، لكنا

علمناها... إن الشعبية تعمل على تعبئة الأفراد الذين تخيّم العواطف على أحكامهم وتحجب أهواءهم، وأحياناً عيوبهم الحميمة، وقدراتهم الإدراكية. وصفاتها السحرية مغوية، وهذه الحالة الذهنية تلوث جميع الدوائر. في الواقع، وجهات نظر المثقفين (الإنتلجنسيا) السياسية ليست معصومة من الخطأ. في فرنسا، كما هي الحال في أي مكان آخر في أوروبا، كان التعصّب السياسي، مثل القومية والفاشية والستالينية والماوية والتروتسكية وغيرها من المسارات الغريبة، يدعمه أشخاص لا يمكن إنكار^(١) ثقافتهم الرفيعة. إضافة إلى ذلك، فإن آراء الخبراء، تلك التي تعتمد عليها الحكومات الأوروبية والمؤسسات الدولية اليوم لإضفاء الشرعية على السياسات الاجتماعية غالباً ما تكون ضارة، لا تنجم دائماً عن عقلانية ديمقراطية لا جدال بشأنها. فنحن نلقي اللوم بسهولة على تطور المجتمعات الليبرالية، وسلب ملكية الأفراد تحت تأثير السوق و«ثقافة النرجسية» التي يروج لازدهارها. وإذا لم يستفد منها الجميع، لأنه أبعد ما يكون عن ذلك، فمن الصعب أن نحتمي من الأوهام التي تولّدها النزعة الاستهلاكية.

وليس من قبيل المصادفة أن دونالد ترامب وسيلفيو برلسكوني وببي ريللو لعبوا دوراً مهماً في تلفزيون الواقع وعالم الفرجة، وهو حساء ثقافي من الأساطير والصيغ السحرية. يُقدّم عالمهم الاصطناعي نفسه على أنه حقيقي، في حين أنه يحشد مجال الأوهام الفردية

FE Hourmant, Le Désenchantement des clercs, PUR, 1997 ; T. Wolton, Histoire (١) mondiale du communisme, vol. 3 Les complices, Grasset, 2017.

والجماعية. كما أنه يشير جميع أنواع الدوافع الاجتماعية، لكنه يشير أيضاً للإحباط في مواجهة رغبات المتعة التي يشير بها. ربما لا يكون عدم التجانس المتزايد في عمليات التنشئة الاجتماعية، المرتبط خاصةً بالتعقيد المتزايد للبنى الأسرية، وتفكُّك الأطر المؤسسية والمعارية التقليدية، فضلاً عن التضامن المدني الذي دعمته، مرتبطاً بصعود قوة الفظاظة التي تشجع الشعبوية... وأمام هذه التجاوزات، فإن حماية الديمقراطية، مثلها مثل مكافحة تعديات المواطنين، تتطلب الدفاع عن المبادئ والأطر والتوازنات المؤسسية الضرورية لحماية سيادة القانون. كما تتطلب اتباع سياسات تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية.

كيف نحارب الأخطاء الجماعية؟

كلودي بير

صحفي علمي متخصص في العلوم الإنسانية

في كتابه الأول الذي نُشر عام ٢٠٠٢^(١)، يقدّم كريستيان موريل، المدير التنفيذي السابق للموارد البشرية الذي تحول إلى عالم اجتماع، عدة أمثلة لما وصفه بـ«القرارات السخيفة»: تسير ناقلتنا نفط في طريقين متوازيين تقريباً، لكن إحدهما تغيّر اتجاهها وتسد مسار الأخرى، التي لا تستطيع بعد ذلك تجنّب الاصطدام بها؛ أو، طائرة تستعد للهبوط في حين يستمر الطيار، الذي لديه انطباع بأن جهاز الهبوط لم يُنزل بعد، في الدوران حول المدرج لإعطاء الموظفين الوقت لإعداد الركاب للهبوط الصعب -وتتحطم الطائرة على الأرض بسبب نقص الوقود.

(١) Les Décisions absurdes, Gallimard, 2002. Ont suivi, Les Décisions absurdes II. Comment les éviter, Gallimard, 2012, et Les Décisions absurdes III. Lenfer des règles, les pièges relationnels, Gallimard, 2018.

التسلسل الهرمي المفرط يقتل...

ويحدّد المؤلف أيضًا «المعايير»، التي تهدف إلى زيادة موثوقية القرارات، والتي أصبحت راسخة تدريجيًا، أو في طور الإنشاء، في بيئات المخاطر المختلفة هذه.

الجانب الأكثر إثارة للاهتمام في هذه المعايير هو أنها غالبًا ما تكون مضادة للبديهية. وبالتالي، لدينا جميعًا رؤية للقائد -أو الطيار- «السيد الوحيد على متن الطائرة»؛ وإذا سُئِلنا: «وفي حالة الخطر؟»، فسنرد بلا شك بعفوية: «ومن باب أولى في حالة الخطر يجب طاعته من دون نقاش!». حسنًا، لا! يعد الاحترام الصارم للتسلسل الهرمي عامل خطر، كما هو موضح في حالة الخطوط الجوية الكورية. لقد كانت ضحية، خلال تسعينيات القرن الماضي، لسلسلة من الحوادث المميتة، التي أرجعتها جميع التحقيقات بشكل رئيسي إلى عامل واحد، وهو التسلسل الهرمي المفرط في قمرة القيادة؛ لقد سحق الطيار مرؤوسيه بازدرائه، ولم يجرؤ مساعد الطيار ولا الميكانيكي على تصحيح خطأ الطيار، وما إلى ذلك.

في فجر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تعلم الدرس مدير الشركة الجديد من هذه التحقيقات، من خلال فرض سلسلة من الممارسات التي تتعارض تمامًا مع الممارسات السابقة وكذلك مع التقاليد الثقافية للبلاد؛ يجب أن يسود التواصل على التسلسل الهرمي.

يقوم على الجدارة وليس الأقدمية، ويتلقَّى الجميع التدريب على العوامل البشرية، ويُعتمد مبدأ عدم العقاب على الأخطاء. النتيجة: تعد الشركة الآن من بين الشركات الأكثر أمانًا في العالم. إن مبدأ عدم المعاقبة على الأخطاء يتعارض أيضًا مع الرأي العام. بمجرد وقوع حادث، تنطلق نفس الصرخة من كل مكان: «من المذنب؟». ومع ذلك، فإن إدارة الطيران الفيدرالية، التي تسيطر على الطيران في الولايات المتحدة، مثل الخطوط الجوية الكورية والخطوط الجوية الفرنسية، تشجّع طاقم الطائرة على الإبلاغ عن أي أخطاء بالتفصيل، ومن ودون الكشف عن هويتهم. وقد اعتمدت الأنظمة الصحية المختلفة نفس الحكم فيما يتعلق بالأخطاء التي تحدث في المستشفيات. لذا فهي معروفة بشكل أفضل ويمكن تجنبها بسهولة أكبر.

هل الإجماع هو الصحيح؟ عدم الثقة!

ملاحظة أخرى تتعارض مع المنطق السليم تتعلق بالقرارات داخل المجموعة. وإذا اتخذ القرار بالإجماع، فهل هو الصحيح بالتأكيد؟ كلا، في البيئات المحفوفة بالمخاطر، علمتنا التجربة أن نخشى «الإجماع الزائف»، فقد التزم أعضاء المجموعة الصمت لأنهم يخشون معارضة زعيمهم، ولأنهم اعتقدوا أنهم يشكّلون أقلية، وما إلى ذلك.

ومن هنا جاء اعتماد إجراءات اختبار ما يسمى بالإجماع: وجوب دعوة كل عضو في المجموعة للتعبير عن رأيه الشخصي، والإدراج المنهجي لـ «محامي الشيطان» الذي سيكون مسؤولاً عن الدفاع عن رأي الأقلية... تتعلق المعايير المذكورة أعلاه بجميع السلوكيات

البشرية. لذلك ليس من المستغرب أن نلاحظ الاتجاه إلى إنشاء تدريب على العوامل البشرية، بالإضافة إلى الدروس الفنية، في التدريب المهني للطيارين أو الجراحين أو مرشدي الجبال العالية؛ دراسة نظرية وعملية، للتفاعلات داخل مجموعة، والعوامل التي تؤثر في اتخاذ القرار. وتوضح دراسة حديثة، استشهد بها كريستيان موريل مرة أخرى، فائدة مثل هذا التدريب، ففي مراكز الجراحة الأربعة والسبعين التابعة لإدارة صحة المحاربين القدامى في الولايات المتحدة، التي اتبعت هذا التدريب، انخفضت الوفيات الجراحية بنسبة ١٨٪ على مدى السنوات التالية، مقارنة بـ ٧٪ في مراكز المراقبة الـ ٣٤ التي لم تتبعه بعد.

بين قوسين للقراء الذين لا يشعرون بالقلق، ولا يعيشون في بيئة محفوفة بالمخاطر: إليكم مثالاً مأخوذاً من الحياة اليومية، رواه المؤلف في كتابه الأول. يستقبل زوجان أولادهما المتزوجين في مقر إقامتهما في تكساس. درجة الحرارة في الظل ٤٠ درجة مئوية. كان الجميع يرتشفون مشروباً بارداً في الشرفة، عندما صرخ المضيف: «ما رأيك أن نذهب ونأكل شيئاً ما في أبيلين؟» (المدينة «المجاورة» حسب المعايير الأمريكية: ١٧٠ كيلومتراً ذهاباً وإياباً). يقبل الجميع. بعد أربع ساعات، يعودون للانتهاء في الشرفة، مرهقين من الحرارة ومكتئين بسبب وجبة غداء سيئة - ويكتشفون أن لا أحد منهم كان يريد الذهاب إلى أبيلين، لكن كل منهم كان يعتقد أن الثلاثة الآخرين يريدون ذلك! ولو أنهم طبقوا مقياس عدم الثقة فيما يتعلق بالإجماع الظاهر...

لماذا نستهلك كحمقى؟

دان أرييلي

يشغل كرسي الاقتصاد السلوكي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا

- كيف يمكنك تعريف الاقتصاد السلوكي؟

- قبل الإجابة عن هذا السؤال، من الضروري توضيح ما هو «الاقتصاد القياسي» الذي يُعرف الاقتصاد السلوكي من خلاله. لقد بُني الاقتصاد القياسي حول أسئلة بسيطة. على سبيل المثال، كيف يجب أن يتصرّف الناس عندما يتعلّق الأمر بخيارات الاستهلاك أو الاستثمار من أجل تعظيم قراراتهم على أفضل وجه. وقد أدّى هذا المنهج إلى صياغة نظرية الفاعل العقلاني، سواء كان مستهلكاً أو منتجاً، ومن ذلك ستخلص إلى استنتاجات سياسية حول الطريقة التي ينبغي أن يدار بها الاقتصاد: ما أفضل المؤسسات وأفضل القرارات من حيث الاقتصاد لتخصيص الموارد؟

لا ينطلق الاقتصاد السلوكي من وجهة النظر هذه. إنه يسعى إلى وصف كيف يتصرف الناس في المواقف الحقيقية. ولا يتمثّل هدفه

في تحديد نموذج للعقلانية، بل في تحليل الكيفية التي يتصرّف بها الناس في الواقع. لهذا السبب، طوّر هذا التخصص تجارب حول كيفية التحكيم بها بين عدة اختيارات عندما تكون في مواجهة قرار اقتصادي. على سبيل المثال، لنبدأ بسؤال بسيط: لماذا هناك أشخاص يعانون السمّة المفرطة؟ يقول منظور الاقتصاد القياسي إن الناس مستهلكون أذكاء؛ يأكلون ما يريدون أن يأكلوه بعد حساب الفوائد والتكاليف. وإذا أكلوا كثيرًا وأصبحوا بُدُنًا، فهذا باختيارهم.

وفقًا للاقتصاد السلوكي، يصاب الناس بالسمّة لأسباب مختلفة تمامًا. يرغب كثيرون في تناول كميات أقل من الطعام، للتحكم في أوزانهم بشكل أفضل، لكن عندما يكونون أمام طبقهم، يجدون صعوبة في المقاومة. يحاول عديد من الأشخاص إنقاص الوزن لكنهم غالبًا ما يفشلون. إنهم عرضة لإغراءات يصعب عليهم السيطرة عليها، فيقومون بتقييمات خاطئة حول التزامهم المستقبلي، مثل اتباع نظام غذائي. وهذا إذن هو الفرق الأساسي بين الاقتصاد القياسي والسياسة الاقتصادية.

- ما أهم أنواع التأثير التي يدرسها الاقتصاد السلوكي؟

- أولاً، تلعب العواطف دورًا أساسيًا في سلوكنا الشرائي، تسترشد معظم أفعالنا بالعاطفة وليس العقل. إذا مررت بتجربة غير سارة وهي أن تجد نفسك وجهًا لوجه مع نمر، فسيكون رد فعلك الأول هو الفرار وعدم التفكير في أفضل موقف يجب اتباعه. في حياتنا اليومية، نقوم بذلك في أغلب الأحيان على هذا النحو.

إن عاطفةً مثل عاطفة الخوف ناصحٌ جيد، فهي تدفعنا إلى الهروب من الخطر. لكن العواطف تدفعنا إلى الاستسلام للمحفّزات التي تُقدّم لنا. صُمِّمت معظم المنتجات الاستهلاكية لإثارة ردود أفعال عاطفية فينا، على سبيل المثال، دانكن دونتس (الكعك الأمريكي الموجود في جميع متاجر المواد الغذائية) تعد وتقدم بطريقة تثير رغبة الذوّاقة الذين يحبون الحلوى والكريمة. تعرض فتارين المتجر المنتجات بطريقة تجعلها جذابة قدر الإمكان وتغري المستهلك. ولهذا السبب، غالبًا ما نشترى من السوبر ماركت أشياء أكثر مما خططنا له في البداية؛ لقد حفّز رغباتنا عرض منتجات جذابة، وُضعت أمام أعيننا في متناول اليد.

في مواجهة هذه الإغراءات، لدينا بالتأكيد القدرة على ضبط النفس. لكن ضبط النفس في حدّ ذاته محدودٌ لأنه يخضع لآليات نفسية درسها الاقتصاد السلوكي جيدًا.

تخيّل أننا وضعنا أحد محبي الشوكولاتة أمام هذا الاختيار: هل تفضّل أن نقدّم لك نصف علبة شوكولاتة الآن أم علبة كاملة الأسبوع المقبل؟ ونظرًا لأنها هدية بلا مقابل، فمن مصلحة الشخص أن ينتظر الأسبوع المقبل. في الواقع، في معظم الأحيان، نتيجة انجذابه للشوكولاتة، سيفضّل التضحية بمصلحته طويلة المدى لصالح رغبته الفورية.

لذا، فإننا نتعرض دائمًا لمعضلات من هذا النوع في الحياة اليومية. مثلاً، الطالب الذي يترك مراجعته ليذهب إلى السينما لأن ثمة فيلمًا يغريه؛ خياره بين البقاء في العمل أو الاستسلام لإغراءاته غير المتوازنة. إذا اختار البقاء في المنزل، فإن التكلفة فورية والفائدة المتوقعة (أفضل

فرصة لاجتياز الامتحانات) افتراضية وعلى المدى الطويل. على العكس من ذلك، بالذهاب إلى السينما، فإن المنفعة فورية وتدفع تكلفة قراره إلى المستقبل البعيد.

وهذا هو السبب وراء اتخاذنا في كثير من الأحيان خيارات فورية تكون عكس ما نود القيام به على المدى الطويل. المماطلون، الذين يؤجّلون دائماً ما يجب أن يفعلوه على الفور، على دراية بهذه المشكلة.

- هل هناك طريقة للسيطرة على العواطف والتحكّم بشكل أفضل في الاستهلاك؟

- لا يوجد حل واحد بسيط لمساعدة الناس على «التحكّم» في استهلاكهم. ولكن قبل كل شيء، يمكننا العثور على نصائح شخصية لاتخاذ خيارات أفضل. منذ عدة سنوات، أصبْتُ بمرض خطير للغاية؛ ما عرّض حياتي للخطر. أعطاني الأطباء علاجاً كان من الصعب جداً تحمّله؛ جعلتني الأدوية أشعر بغثيان لا يُطاق لساعات. كان عديد من المرضى يفضلون تخطّي جرعات معينة أو حتى التخلّي عن العلاج على الرغم من الخطر. لذلك اخترعتُ حيلة لمساعدتي في اجتياز هذه المحنة. في كل مرة اضطررت فيها إلى أخذ حقنتي الربية، كنت أسمح لنفسني بمشاهدة فيلم بالفيديو (وأنا مولع بذلك). بهذه الطريقة، لم يكن الانزعاج أقل عنفاً فحسب، بل على نحو خاص، ربطت الدواء عقلياً بالمكافأة بدلاً من المعاناة. عندما كنت أعلم أنني سأضطر إلى تناول الدواء، بدلاً من التفكير في الآلام القاسية، كنت أفكر في مكافأتي. وقد نجحت! وعندما انتهيت من علاجي، تفاجأ الطبيب؛ كنت الوحيد من مرضاه الذي أكمل العلاج.

هذه طريقة لخداع نفسك ونقاط ضعفك. عندما نسعى إلى السيطرة على سلوكنا الاستهلاكي، فقد يكون من المفيد اختراع تقنيات من هذا النوع. ولكن يمكننا أيضًا استخدام التقنيات التي تشجع المستهلكين على السيطرة على استهلاكهم. وهكذا تبين أن الأمريكيين يخفّضون بشكل ملحوظ استهلاك الكهرباء في منازلهم إذا زوّدتهم شركة الكهرباء بكرة صغيرة ضوئية المحيط تتحول إلى اللون الأحمر عند تشغيل كثير من الأجهزة الكهربائية وتجاوز الاستهلاك حدًا معينًا.

وأخيرًا، هناك أيضًا تدابير تحفيزية سياسية تشجع أو تثني المستهلكين أو المنتجين عن استهلاك أو تصنيع منتجات معينة بدلًا من غيرها، ومعاينة المنتجات الملوثة، لصالح المنتجات المسؤولة أخلاقيًا، لتشجيع الادخار أو الحد من ديون الأسرة. الاختيارات الشخصية الخاضعة للرقابة، والحوافز العامة، هي الوسائل التي يسعى الاقتصاد السلوكي إلى تعزيزها بناءً على ملاحظة سلوك المستهلك.

أجرى الحوار جان فرانسوا دورتييه

مفارقات الوفرة

هذه تجربة تسويقية مذهلة. نقدّم، في فاترينة لعرض السلع، ستة أنواع من المربى للمستهلكين.

وفي المساء نحسب عدد البرطمانات المباعة. في اليوم التالي، هذه المرة وزّعنا أربعة وعشرين نوعًا من المربى. ثم نقارن أرقام المبيعات

و... مفاجأة، المبيعات أعلى مع ستة أنواع من المربى بدلاً من أربعة وعشرين! الهدف من القصة: كثرة الاختيار تكبح فعل الشراء!

نَفَذَت التجربة مع جميع الضوابط المعتادة شينا لينجار، الأستاذة في جامعة كولومبيا، مؤلفة كتاب «فن الاختيار» The Art of Choosing (دار تويلف، ٢٠١٠). يسلّط الكتاب الضوء على مفارقة مجتمعنا الاستهلاكي؛ الانزعاج ينجم عن كثرة الاختيارات.

في مواجهة كثير من الاحتمالات، يشبه المستهلك المشلول. إنها تجربة يمكن أن يشعر بها الجميع. في عصر التلفزيون العام، عندما كان هناك ثلاث قنوات فقط متاحة، كان المشاهد يضع نصب عينيه برنامجاً. اليوم، جهاز التحكم عن بُعد في يده، يمكنه الانطلاق لمدة خمس عشرة دقيقة أمام مئات القنوات التي تقدّم له. يعزّز التنوع المفرط للعرض التردّد وحتى يسبّب استياءً معيناً؛ الاستياء من عدم العثور على البرنامج المثالي.

كثرة الاختيارات تضر بالاختيار

كثيراً ما يُقال إن وفرة المعلومات تقتل المعلومات. ويعلم مستخدمو الإنترنت أيضاً أن ضخامة الموارد المتاحة على الويب تؤدي في بعض الأحيان إلى إرباك المستكشف في أثناء بحثه عن معلومات بسيطة وواضحة. كلّما تعمقنا في سؤال ما، فُتحت آفاقٌ جديدة؛ وأصبحت المفاهيم التي اعتقدنا أننا نفهمها أكثر تعقيداً، وتراكم البيانات ونواجه خطر أن يتلعبنا سيلُ الحقائق. هذه هي مفارقة مجتمع الوفرة.

في الماضي كان الغذاء سلعة نادرة وكان يعاني الجوع كثيرٌ من الناس. اليوم يجب أن نتعلَّم ضبط النفس في مواجهة الوفرة وإغراءات الطعام المتعدّدة المتاحة لنا. وينطبق الشيء نفسه على المعلومات: ملايين المواقع ضمن نطاق النقرات، ومئات القنوات التلفزيونية ضمن نطاق الريموت الكترول، وآلاف الكتب الموجودة في مكتبات القراءة ومكتبات بيع الكتب.

وفي مجال التسويق فإن الوفرة من شأنها أيضًا أن تضر بالقرار. في كتاب «مفارقة الاختيار، كيف تُبعد ثقافة الوفرة الناس عن السعادة؟» (ميشيل لافون، ٢٠٠٦)، كان عالم الاجتماع باري شوارتز قد رصد بالفعل ظاهرة الحمل العقلي الزائد. وفي المجتمعات التي تتسم بوفرة الغذاء والمعلومات والترفيه فإن مشكلتنا لا تتمثّل في العثور على الموارد، بل في التخلص منها.

جان فرانسوا دورتييه

الإنسان : النوع الحيواني الذي يجروء على كل شيء

لورون بيج

عضو المعهد الجامعي بفرنسا، ومدير دار علوم «إنسان - الألب»

«الأبقار التي نجبها، نأكلها على أي حال»

آلان سوشون، «بلا ذيل ولا رأس» Sans queue ni tête (١٩٩٣)

وابل من المدافع الملكية في الساحة الأمامية المزدحمة لقصر فرساي. كانت الساعة الواحدة ظهرًا بالضبط، وفي ١٩ سبتمبر ١٧٨٣، وأمام لويس السادس عشر وعائلته، دخلت بطة وديك وخروف تاريخ الفضاء الجوي بهدوء. بعد أن أخذهم الفريق في سلة الخوص المُلحقة بمنطاد الهواء الساخن الخاص بالأخوين مونتجولفييه، سرعان ما ارتفع الفريق إلى ٦٠٠ متر، ثم سافر عدة كيلومترات، وسط هتافات الجمهور المذهول. على الرغم من سوء الحظ المتمثل في حدوث تمزق في المنطاد الذي سيقطع رحلتهم التاريخية، فقد هبط الأبطال الثلاثة ذوو الصوف والريش في غابات فوكريسون. سيُكافئهم ملكيًا الدولفين

(وريث العرش) الذي سيفتح لهم أبواب حديقة الحيوانات الخاصة به. بعد بضعة أسابيع فقط من استغلال ملاحينا غير التطوعيين، سيحلّق البشر بدورهم في الهواء، مع مخاطر أقل.

منذ هذا التاريخ، دُفع بالحيوانات المائية أو البرية (السّمّان، قنديل البحر، القطط، الكلاب، القروء، السلمندر، إلخ) بالعشرات نحو الطبقة العليا من الغلاف الجوي (الإستراتوسفير)، من دون أن يحظوا دائماً بحظ أسلافهم الثلاثة. حتى في بداية القرن الحادي والعشرين، أهلكت البشرية عدداً لا يُحصى من الحيوانات، من أجل إجراء تجارب علمية، وأيضاً لضمان إنتاجها الصناعي أو تلبية نظامها الغذائي. وفي جميع أنحاء العالم، يُستخدم ما يقرب من ١٠٠ مليون منها سنوياً في المختبرات^(١)، ويُذبح ٧٠ ملياًراً من الطيور والثدييات من أجل الغذاء، ويُصطاد تريليون سمكة. ولجعل مثل هذه الإنتاجية ممكنة، لم نصمّم بروتوكولات علمية وتقنية حيوانية متطوّرة فحسب، بل وضعنا أيضاً آليات نفسية تسمح لنا بتجاهل الضرر الناتج عن هذا الاستغلال أو إضفاء الشرعية عليه.

إذا لم يكن للضرر الذي ألحقه الإنسان العاقل بالأنواع الأخرى عواقب سلبية للغاية على الوجود البشري نفسه، لا يمكننا التحدّث إلا عن عدم الحساسية أو القسوة، وليس عما يشير إليه العنوان الطريف لهذا الكتاب. لسوء الحظ، من خلال استغلال الحيوانات على نطاق واسع، تخاطر البشرية بمواصلة رحلتها مثل منطاد الهواء الساخن

(١) A. Jouglu, Profession: Animal de laboratoire, Autrement, 2015.

التالف، في ظروف محفوفة بالمخاطر. ينشر بعض المؤلفين اليوم أعمالاً تتوجّه إلى عامة الناس تحمل عناوين حادة عن الخراب البيئي وهمجية المزارع الصناعية (المهجنة المبيدة Farmageddon)، أو يدينون الصيد المكثّف (نهاية الكائنات المائية Aquacalypse)، ولكن على الرغم من هذه التحذيرات، فإننا نصمّ آذاننا، لأن النوع الذي ننتمي إليه يتمتّع بامتياز خطير يتمثّل في أنه مزوّد بالينابيع النفسية التي تسمح لغبائه المذهل بالازدهار في علاقته الجنونية مع الحيوانات الأخرى.

هنري الرابع، ملك «دجاجة لكل فلاح في قدره كل يوم أحد»، كان لديه وزير مالية مشهور، سولي، الذي كان يحب أن يعلن أن «الرعي والحرث هما ثديا فرنسا». وبتريد صدى هذه الصورة الريفية، سنقترح هنا أن ضرع غباء الإنسان في علاقته بالحيوانات ثلاثي: التناقض، والجهل، والعقلانية.

ضرع التناقض المنطقي

في كتابه المُفْتَرَس، الدجل الفكري للحيوانات آكلة اللحوم^(١) (Carnassier L'Imposture intellectuelle des carnivores) يشاركنا توماس ليليتيه حيرته الصريحة على نحو زائف في مواجهة تناقضاتنا:

«إذا كنت تستمتع بسحق قطط صغيرة في الخلاط، أو إخفاء كلب من دون تخدير، أو حبس حصان طوال حياته في حظيرة صغيرة لا

Max Milo, 2017. (١)

ينفذ إليها ضوء النهار، فسوف تُحاكم بتهمة سوء معاملة حيوان. أنت تخاطر بالسجن لمدة عامين. لماذا توافق السلطات العامة على سحق الكتاكيت الذكور وهي حية، وحبس الدجاج في أقفاص صغيرة طوال حياته، وقطع أعناق ملايين من الأرانب والحملان والخنازير كل عام؟ (...))، يرث القانون هذا التناقض ويديمه، لأنه يعتبر أن «الحيوانات كائنات حية تتمتع بالحساسية» مع الإشارة إلى أنه «مع مراعاة القوانين التي تحميها، تخضع الحيوانات لنظام الملكية» (المادة ٥١٥ - ١٥ من القانون المدني). لنأخذ حالة الأرنب: يمثل اليوم واحدًا من أكثر الحيوانات الأليفة شيوعًا في فرنسا، لكنه أيضًا أكثر الثدييات استهلاكًا. وإذا لم نفِ بالتزاماتنا تجاهه بإهمال إطعامه ورعايته وضمان ظروف معيشية تلبي احتياجاته، فإننا نجازف بأن نكون خارجين على القانون بسبب «ارتكاب اعتداء خطير أو ارتكاب اعتداء جنسي، سواء علنًا أم لا، أو ارتكاب فعل قاسٍ تجاه حيوان أليف أو داجن أو محبوس، يعاقب عليه بالسجن لمدة عامين وغرامة قدرها ٣٠ ألف يورو» (المادة ١ - ٥٢١ من قانون العقوبات).

ومع ذلك فإن القانون يجيز تربية الأرانب في البطاريات في ظروف حبس لا توصف.

لكن وراء هذا التناقض تكمن عقلانية نظام آخر. في الواقع، تحدّد قيمة الحيوان بناء على الاستخدام الأداتي أو العاطفي له، أو على التمثيلات المبررة التي يعقدها البشر فيما يتعلق بالأنواع المعنية. وهذه هي الحال أيضًا بين نشطاء حقوق الحيوان؛ وفقًا لملاحظات

طبيب بيطري، فإن الناشطين الذين يحاربون التجارب على الحيوانات يتصرّفون ضد المختبرات أو الباحثين الذين يستخدمون الرئيسيات أو الكلاب أكثر من الفئران أو الجرذان. ما يقرب من ثلثي الأشخاص الذين يعتبرون أن إحدى أولويات حركات حقوق الحيوان تكمن في إلغاء استخدام جلودهم في الملابس، يعترفون بارتداء ملابس أو أحذية جلدية. إن هذه المركزية البشرية، التي تنظم القيمة الحيوانية وفقاً لمصالح الإنسان، هي مفتاح التسلسل الهرمي الذي نعمل به بين الحيوانات.

ضرع الجهل

بالنسبة إلى أي شخص يستخدم الحيوانات، فإن الجهل هو أكثر وسائل الراحة مداعبة. ومؤخراً، اعترف فنان السيرك أندريه جوزيف بوجليون، بعد أن قرر استبعاد الحيوانات من عروضه، بأن «التأرجح الطفيف الذي تقوم به الأفيال عندما تكون ثابتة، يعني بالنسبة إليّ أنها مسترخية. (...) ما اعتقدته علامة على الاسترخاء كان في الواقع اضطراباً مرتبطاً بالحجز»^(١). إن الافتقار إلى المعرفة بالقدرات المعرفية والإدراكية والحسية للحيوانات قد سمح بإخضاعها لعدة قرون، كما عبّر عن ذلك ديكرت، ربما لتبرير التشريح الذي مارسه هو نفسه كعالم، في كتاباته عن الحيوانات-آلة في كتابه خطاب حول المنهج Discours de la Méthode، أقسم مالبرانش وهو يضرب كلبه:

A]. Bouglione, Contre [exploitation animale, Tchou, 2018. (١)

«إنه يصرخ، لكنه لا يشعر بالألم». لكن دعونا لا نسخر من فلاسفتنا القدامى، لأن الغباوة ليس لها عصر. في يونيو ٢٠١٧، نشرت صحيفة واشنطن بوست استطلاعًا عبر الإنترنت مع عينة تمثيلية من الأمريكيين: زعم ٧٪ من المشاركين (أكثر من ١٦ مليون شخص) أن حليب الكاكاو يأتي من أبقار بُنية اللون. ومن سيئ إلى أسوأ، كشفت دراسة أجرتها وزارة الزراعة الأمريكية أن واحدًا من كل خمسة بالغين لا يعرف من أي حيوان جاء اللحم المصنع منه البرجر. كما أجرى باحثان من جامعة ديفيس في كاليفورنيا، ألكسندر هيس وكاري تريكسلر، مقابلات مع أطفال تتراوح أعمارهم بين ١١ و ١٢ عامًا، ووجدوا أن ٤٠٪ منهم لم يعرفوا أن اللحوم المصنع منها البرجر جاءت من الأبقار، و ٣٠٪ أن الجبن مصنوع من الحليب... ويتألق الجهل بالطعام أيضًا على هذا الجانب من المحيط الأطلسي، فقد أشارت دراسة استقصائية فرنسية أُجريت على أطفال تتراوح أعمارهم بين ٨ إلى ١٢ عامًا إلى أن ٤٠٪ منهم لا يعرفون من أين تأتي منتجات مثل لحم الخنزير، ولم يتمكن ثلثاهما من التعليق على أصل شرائح اللحم (الاستيك). بالإضافة إلى ذلك، أفادت نسبة عالية من الأطفال أن السمك كان خاليًا من العظم. ما نسبة ذوي الشعر الأشقر (têtes blondes) الذين يعتقدون أن الغدد الثديية للأبقار تفرز الحليب تلقائيًا من دون أن يرضع العجل؟ الرهانات مفتوحة.

لقد أدى جهل البشر منذ قرون فيما يتعلق بالإدراك الحيواني إلى تفضيل علاقات الهيمنة التي لا يزال التقدم في علم السلوك المعرفي

وعلم الأعصاب يجعل من الصعب تصحيحها. ومع ذلك، يرى الخبراء اليوم أن «الحيوانات غير البشرية تمتلك الركائز التشريحية العصبية والكيميائية العصبية والفيسيولوجية العصبية للحالات الواعية، فضلاً عن القدرة على الانخراط في سلوكيات مقصودة» (إعلان كامبريدج، ٢٠١٢)، وليس هناك نقص في الأعمال التي تهدف إلى إثبات أن الحيوانات ليست بهذا الغباء^(١). مجرد نشر المعرفة ليس كافياً على الإطلاق لعلاج إسراف العقل. إضافة إلى ذلك، فإن الاتحادات البشرية التي تتمثل مهنتها في تربية الحيوانات وبيع إنتاجها تسعى جاهدة إلى نشر أيقونة ريفية وشاعرية للأبقار والدجاج المبتسم الذي لا يصبر على تناول الطعام. وكما لاحظت الفيلسوفة فلورنس بورجات^(٣)، فإن طمس الحيوان وروحانية اللحوم يسهمان في تلطيف دقيق لواقع التربية والذبح اللذين ينعكسان في تعليمات الصناعة. يشير الفيلسوف مارتان جيبيير^(٤) إلى أنه في عام ٢٠١٣، أبلغت مجلة Paysan breton hebdo المربين على النحو المناسب: «يجب علينا إزالة الطابع الحيواني» عن المنتج؛ أي كسر الرابطة العاطفية التي قد تكون موجودة مع الحيوان من خلال تسليط الضوء على المنتج النهائي». ومن المنظور المخادع نفسه، أشارت مراجعة لمحترفي اللحوم، استشهد بها سكوت بلوس، من جامعة ويسليان، إلى أن «السماح للمستهلك بمعرفة أن قطعة لحم

(١) M. Bekoff, Les Emotions des animaux, Payot, 2009.

(٢) Christen, L'animal est-il une personne?, Flammarion, 2009.

(٣) E Burtat, L'Animal dans les pratiques de consommation, Puf, 1998.

(٤) M. Gibert, Voir son steak comme un animal mort, Lux, 2015.

الضأن التي اشتراها للتو هي جزء من تشريح أحد تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة التي نراها، ربما يكون أحد تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة التي رأيتموها تمرح في الحقول في الربيع هو الطريقة الأكثر أماناً لتحويله إلى نباتي».

وهناك شكل آخر من أشكال الجهل يستحق الذكر. يتعلق الأمر بالتقليل المنهجي من قبل المستهلكين لكمية اللحوم التي يتناولونها. على سبيل المثال، تشير نتائج عديد من الدراسات الاستقصائية إلى أن ما بين ٦٠٪ و ٩٠٪ من الأشخاص الذين يُعرّفون أنفسهم نباتيون، مع ذلك تناولوا اللحوم في الأيام التي سبقت الاستطلاع. تكشف معظم الدراسات حول النظام النباتي أن ما لا يقل عن ثلثي الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم نباتيين يأكلون أحياناً الدجاج و ٨٠٪ الأسماك! أخيراً، يكفي أن يتم إعلام المشاركين بأنهم سيشاركون تقريراً عن معاناة الحيوانات حتى يتمكنوا من دون وعي من تقليل كمية اللحوم التي أبلغوا عن استهلاكها. في بعض الأحيان، من أجل الحد من معاناة الحيوانات، يتوقف بعض المستهلكين عن شراء منتجات اللحوم الحمراء... لكنهم يزدون من استهلاكهم للدواجن؛ ما يؤدي إلى تضخم عدد الحيوانات المستهلكة وبالتالي عدد الحيوانات التي من المحتمل أن تعاني (للحصول على ما يعادل اللحوم المقدمة، لكل بقرة واحدة تحتاج ٢٢١ دجاجة).

بالنسبة إلى أولئك الذين اختاروا أخيراً نظاماً غذائياً خالياً من اللحوم، فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد! على الرغم من أن ما يسمّى

النقانق «الخالية من اللحم» لا تعدُّ أسوأ من النقانق التي تحتوي على لحم حيواني، فإن الأشخاص الذين تتيح إجاباتهم عن الاستبيان بتشخيص أنهم يقدِّرون القوة، والذين أجبروا على استهلاك النقانق النباتية، يجدونها ألد إذا جعلناهم يعتقدون أنها تحتوي على لحم. وتشير دراسة أخرى إلى أن الأشخاص الذين يُعرض عليهم قالب غذائي يجدونه أقل مذاقًا إذا دُفعوا إلى الاعتقاد بأنه يحتوي على فول الصويا!

ضرع العقلنة

يضاف إلى الجهل العادي ما يمكن أن نطلق عليه الجهل المبرَّر. ولدراء عدم الارتياح المتمثِّل في إدراك التناقض بين سلوكيات الاستهلاك والتمثيلات المتعلقة بالحيوانات المستهلكة (التي من شأنها أن تبرر الامتناع عنها)، فإن الحلَّ المناسب، كما اقترحت نظرية التنافر الإدراكي، يتمثل في تعديل تلك التمثيلات. على سبيل المثال، أظهرت دراسة استقصائية أن القدرات العقلية المنسوبة إلى سلسلة من الحيوانات كانت مرتبطة بكل بساطة بصلاحياتها للأكل، فقد كان يُنظر إلى الأبقار أو الخنازير على أنها تتمتع بحياة عقلية محدودة أكثر من القطط أو الأسود أو الطباء. وفي دراسة أخرى، كان على المشاركين قياس القدرات العقلية للخروف بعد إخبارهم أن الأغنام سيتغيَّر مرعاها، أو على العكس من ذلك، أنه سيكون في قائمة الوجبة القادمة. وفي الحالة الأخيرة، انخفضت قدراته العقلية. في دراسة ثالثة (حيث من الواضح أن البشر يفكِّرون باستخدام براعم التذوق الخاصة بهم)، عُرض على المشاركين لفترة وجيزة حيوان ثديي موجود في غينيا الجديدة، وهو

كنجر شجرة بينيت. ثم قدمنا معلومات مختلفة. على سبيل المثال، أُشير إلى أن لحم الحيوان كان يستهلكه سكان غينيا الجديدة، أو على العكس من ذلك، لم يُذكر استهلاكه. ثم أشار المشاركون إلى أي مدى يعتقدون أن هذا النوع من الكنجر سيعاني إذا أصيب، وما إذا كان يستحق العلاج وفقًا للمعايير الأخلاقية. أشارت النتائج إلى أن مجرد تصنيف هذا الحيوان ضمن فئة اللحوم القابلة للاستهلاك كان كافيًا لتعديل القدرات الحسية المنسوبة إليه. هذه القدرات المتصورة بدورها حدّدت المخاوف الأخلاقية المتعلقة بالحيوان ويحملها المشاركون.

يمكننا أن نتخلّى متى شئنا عن الحيل السحرية الفكرية الأخرى التي تسمح لنا بتبرير استهلاك اللحوم، مثل: المبررات الغائية («النباتات موجودة لصالح الحيوانات، والوحوش البرية لصالح الإنسان» -أرسطو^(١))، والقطيعة التعاطفية («نرى (...) أن الموت مؤلم للحيوانات، لكن يحتقر الإنسان هذا في البهيمة» -القديس أوجسطين)، وهي الأساطير الملطفة لاستحسان الحيوانات (التي من شأنها أن تقدم لنا لحمه مقابل رعايتنا «الصالحة»)، وإنكار معاناة الحيوانات («تعاني الحيوانات أقل عندما تُذبح بوعي، منها عندما تُذبح فجأة»)، واستحضار أهداف عليا (مثل «إطعام الإنسانية» أو «حجة الطفل المصاب بالسرطان» للدفاع عن الأبحاث) أو حتى البقاء على قيد الحياة («إذا حُكم على الإنسان بالنباتية، فلن يبقى على قيد الحياة»)، أو

R. Larue, Le Végétarisme et ses ennemis. Vingt-cing siècles de débats, Puf, (١)

2015.

استدعاء المعضلة الغذائية (حجة «صرخة الجزيرة»)، أو شيطنة النباتية (الاشتباه في كراهية البشر، أو تشبيه النباتية بالنازية)، إلخ.

يقول ميشيل أوديار: لقد تجرأ البشر على كل شيء مع الحيوانات. ويضيف: لهذا السبب نتعرف إليهم. وهناك أحد أفراد جنسنا البشري، بعيداً عن كونه غيبياً، وهو يعمل فيلسوفاً، ادّعى مؤخراً: «إذا فكرتُ، أصبح نباتياً». هذا الاعتراف الذي أدلى به ميشيل أونفراي لا يتعارض مع العلم؛ أولئك الذين يتناولون البقوليات ليس لديهم حمص شام في رؤوسهم. الأفضل، وفقاً لمنشور في المجلة الطبية البريطانية، فإن الأطفال الذين يكون معدل ذكائهم أعلى من المتوسط في سن العاشرة سيختارون في كثير من الأحيان اتباع نظام غذائي خالٍ من اللحوم في مرحلة البلوغ، بصرف النظر عن طبقتهم وحالتهم الاجتماعية ومستوى تعليمهم ودخلهم. ويبدو أيضاً أن الذكاء العاطفي لا ينقص لدى الأشخاص الذين يمتنعون عن غرس شوكتهم في الحيوانات الأخرى، بل على العكس تماماً إذا صدقنا بعض الأبحاث. في الختام، إذا كانت اللحوم قد أسهمت في تطور الدماغ لدى أسلافنا، بالنسبة إلى البعض، فمن المحتمل أن الموقف قد تغير الآن.

في الحجرة المعلقة في الفضاء، والتي نسمّيها الأرض، هناك خطأ ما يجري مع الحيوانات الأخرى. إن المعرفة المتزايدة بنصيبنا المشترك، وحجم المخاطر الصحية، ونذير الانهيار البيئي، كلها أمور تدعونا إلى أن نكون أكثر ذكاءً بعض الشيء.

لحوم أكثر من العقل

في فرنسا، يُربى ٨٩٪ من الأرانب، و٩٥٪ من الخنازير، و٨٢٪ من دجاج التسمين، و٧٠٪ من الدجاج البياض بطريقة صناعية. في كثير من الحالات، الظروف المعيشية والذبح غير مقبولين (على سبيل المثال، وفقًا لأعمال مساعدة حيوانات المسالخ oeuvre d'assistance (OABA) aux bêtes d'abattoirs فإن أكثر من نصف الحيوانات لا تزال واعية عندما تنزف). ومع ذلك، حتى من دون التحدث عن طحن الكتاكيت، والتغذية القسرية للإوز، والختان المنهجي للخنازير والأبقار، تتوفر أسباب التشكيك في التربية المكثفة. وعلى الجانب الصحي، أثبتت منظمة الصحة العالمية آثار اللحوم على أمراض القلب والأوعية الدموية والسمنة، واعتمدت باعتبارها «مادة مسرطنة محتملة للبشر» (على نحو مؤكد اللحوم المصنعة مسببة للسرطان). في منشور للأكاديمية الوطنية للعلوم publication l'académie nationale des sciences (PNAS)، حسب الباحثين في جامعة أكسفورد، أن البشرية إذا اختارت اتباع نظام غذائي نباتي، فسينخفض معدل الوفيات إلى نطاق يتراوح بين ٦٪ و ١٠٪.

أمر لا عقلاني آخر، مفاده أن إنتاج اللحوم هو مصدر هدر الموارد على نطاق واسع: لإنتاج كيلو واحد من لحم البقر، يلزم ٢٥ كجم من النباتات (٤, ٤ كجم من لحم الدجاج و ٩, ٤ كجم من لحم الخنزير). تُقدّر الفاو (منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة) أن إنتاج سعر حراري واحد من اللحوم يتطلب من ٤ إلى ١١ سعرًا حراريًا نباتيًا. هذا الاستخدام غير المستدام للموارد الزراعية في خدمة اللحوم،

وهو «مصنع حقيقي للبروتينات العكسية»، سُلط عليه الضوء مؤخرًا في منشور آخر من تقارير الأكاديمية الوطنية للعلوم (PNAS). وهذا يدل على أن استبدال إنتاج نباتي مخصص للبشر، بالنباتات المستخدمة لإنتاج لحوم البقر ولحم الخنزير ومنتجات الألبان والدواجن والبيض، من شأنه أن يستخلص بروتينًا من مرتين إلى أكثر من عشرين مرة لكل هكتار. واستنادًا إلى البيانات الزراعية الأمريكية وحدها، يقدر المؤلفون أنه سيكون من الممكن إطعام ٣٥٠ مليون شخص إضافي.

إضافة إلى ذلك، تؤثر تربية الماشية تأثيرًا كبيرًا على البيئة، فهي تمثل سببًا رئيسيًا لإزالة الغابات وتسهم أكثر من أي نشاط بشري آخر في انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحراري (٥, ١٤٪ من إجمالي الانبعاثات، مقارنة بـ ١٣٪ بالنسبة إلى وسائل النقل، وفقًا لتقرير منظمة الأغذية والزراعة). وفقًا لديفيد روبنسون، مؤلف كتاب «اقتصاديات اللحوم» Meatonomics، فإن «إنتاج البروتينات الحيوانية يتطلب مياهًا أكثر مائة مرة، و طاقة أحفورية أكثر إحدى عشرة مرة، وخمسة أضعاف الأرض» (انظر أيضًا ف. نيكولينو، بيدوش. صناعة اللحوم تهدد العالم Les L'industrie de la viande menace le monde، الناشر liens qui libèrent، ٢٠٠٩). أخيرًا، تعدُّ التربية في مجموعات كبيرة عاملاً يمكن أن يشجع على تطور الأوبئة وانتقالها، وفي بعض البلدان، يضعف الأمن الصحي للسكان الذين، من خلال استهلاك الحيوانات التي يحتوي نظامها الغذائي على أدوية للوقاية من العدوى بسبب العزل مكثف التربية، يسهم بشكل خاص في انهيار فعالية المضادات الحيوية.

لورون بيج

ماذا نفعل مع الحمقى الأوغاد؟

إيمانويل بيكيه

طبيبة نفسية، مؤسسة مراكز شاجران سكولير

بادئ ذي بدء، يجب تعريف مصطلح «الأحمق الوغد»، لأننا لا نستطيع مقاومة عدو لا يوصف.

نشعر في النداء «أيها الأحمق اللعين! espèce de connard» بغضب وبائي يولده هذا الاسم، على عكس ابن عمه الموجود في «أيها الحثالة! espèce de con» الذي يبدو أكثر ودودية، حتى لو وقع أيضًا في سجل الإهانة. وينطبق الشيء نفسه على «أيها العاهرة» و«الحمقاء»، بصرف النظر عن نوبات الاكتئاب السوداوية الشديدة، على سبيل المثال، من الأرجح أن يطلق عليه اسم «الدب-الدبة/ غبي لعين-غبية لعينة/ البدين الأحمق-البدينة الحمقاء» أمام المرأة بدلًا من أن يطلق عليه أو عليها الأحمق، الساقط، الحمقاء، العاهرة^(١).

لأن الأحمق كثيرًا ما يشير كراهية فورية وعنيفة، وذلك لاعتقاده أنه فوق القواعد والقوانين وغيرها. في كثير من الأحيان بشكل خاطئ

(١) في هذه المقالة، من الواضح أن كلمة الأحمق، المستخدمة عمومًا، تغطي نظيرتها الأنثوية.

وموضوعي، لكن نوع العنف الذي يمارسه عندما يعلن -صراحة أو ضمناً- عن شعوره الهائل بالتفوق في وجه العالم يخلق في محاوريه إما غضباً شديداً لا يمكن السيطرة عليه، وإما ذهولاً مشلولاً. في كلتا الحالتين، الأحمق مرتاح، لأنه يبقى أحمق، في حين أن ضحيته تختنق جزئياً وهو يحاول إشعال النار فيها من دون أن ينجح، لكنه يظل أيضاً أحمق إذا لاحظ أن الضحية صامتة مرعوبة. في مواجهة شخص أكثر حماقة منه، يتلاشى بمكر، لكنه مع ذلك سيواصل أفعاله مع من يعتبرهم أضعف. لذلك لديه كل أسباب العالم للاستمرار في البقاء أحمق. وبما أنه غالباً ما يكون هو الفائز، لا يمكننا الاعتماد عليه في التوقف من تلقاء نفسه.

ولذلك فإن الأمر متروك لمن يعاني من حماقته للقيام بهذا العمل. لأنه لسوء الحظ، يمكن لتصرفات الأحمق أن تترك آثاراً لا تُمحى في نفسية بعض الأكثر حمقاً منه، خاصة إذا لم يتمكن هؤلاء الآخرون من تعديل التفاعلات التي يمرون بها. لكن إذا نجحوا، وهذه هي الأخبار الجيدة، يمكن للأحمق أن يتوقف فجأة عن التصرف بهذه الطريقة، إذا لم يعد هناك أي مزايا؛ أي إذا أصبحت العواقب، خاصة المتعلقة بشعبيته أو سلطته أو شعوره بالقدرة المطلقة، سلبية، على الرغم من أنها كانت أكثر من إيجابية في السابق.

لنأخذ بعض الأمثلة من عالم ما قبل البلوغ، لأنه من الضروري إيقاف الحمقى في سن مبكرة.

الأحمق العنيف

يتمتع بشعبية كبيرة بسبب الخوف الذي يثيره بين أقرانه، ولذلك دائماً ما يكون أكثر حرصاً على هذه القوة المبهجة، فالأحمق في المدرسة أو المرحلة المتوسطة أو الثانوية لا يتردد في اختيار كبش فداء خائف من عنفه والمكانة الرفيعة التي يتمتع بها في كل الظروف. في دوامة تضخيم مذهلة وقاسية إلى حدٍّ ما، سيكون الأحمق قادراً على السخرية من ضحيته (وهي إهانة يحبها^(١) خصوصاً لأنها تؤكد تماماً التفاعل الذي ينوي الحفاظ عليه مع المحاور المؤهل على هذا النحو)، ثم يهينها، ثم يدفعها، ثم يفعل كل ذلك في الوقت نفسه، قبل أن يدفعها، لِمَ لا؟ إلى الانتحار. وهذا دائماً علني (حقيقي أو رقمي) للتأكد من تأسيس هذه الشعبية الشهيرة القائمة على الإرهاب.

سوف تتفاقم حماقته بسبب العواقب السلبية القليلة التي سيتلقاها من محاوره البائس. وكذلك الشعور بالقوة التي سيكتسبها أمام أقرانه، أو الخلط بين الإعجاب والخوف، أو اعتبار أن أحدهما لا يغني عن الآخر.

وهكذا، محمد، يبلغ من العمر ٨ سنوات، في الصف الثالث ويحب كرة القدم. لديه مجموعة من الأصدقاء في فصله، لكنه كثيراً ما

(١) هذا الميل الخاص تجاه هذا الاسم يقوده إلى رفضه حسب الرغبة: «كيف يبلغ في استغلال ضحيته؟» «توقّف عن إيذاء نفسك»؛ حتى بالنسبة إلى الأكثر تفصيلاً: «الإيذاء الخطير».

ينزعج من صبي كبير في الصف الخامس، إيجار (الأحمق الوغد)، وهو قوي جداً، في أثناء مباريات كرة القدم، يحب عرقلة جميع الأطفال في الصف الثالث الذين يلعبون كرة القدم وخاصة محمد، وهو (بحسب كلماته) الأقل قوة من بين أطفال الصف الثالث وربما حتى من هم في الصف الثاني.

لدى إيجار تقنية مجرّبة، فهو يضع نفسه خلف محمد من دون أن يسمع الأخير اقترابه، ويأخذه من تحت الإبطين، ومن خلال حركات معقدة إلى حدّ ما من ساقه، يجعله يسقط بخشونة على أرض فناء المدرسة حيث تقام المباريات. يشير محمد إلى أنه يقع ضحية هذه السقطات تقريباً ثلاث مرات بين الصفوف، أو أكثر من عشر مرات يومياً، وأنه لا يستطيع تحمّل الأمر بعد الآن، لكنّه لا يرى حقاً كيفية جعل إيجار يتوقف... كما أنه لا يريد التخلّي عن كرة القدم، شغفه الكبير، لتجنّب هذا السقوط المؤلم.

وعندما سُئل عما يفعله أو يقوله عندما يجد نفسه على الأرض، أجاب بأنه لا يفعل أو يقول أي شيء. إنه ينهض ويواصل اللعب كأنّ شيئاً لم يحدث. مع العلم أن محنته ستبدأ مرة أخرى بعد بضع دقائق أو بعد ساعات قليلة. يوضّح محمد أنه لم يخبر المعلم بهذا الأمر لأنه كان يخشى أن يؤذيه إيجار أكثر. ولم يخبر والديه بذلك للسبب نفسه؛ إذا فعل ذلك، يعتقد أنهما سيبلغان المعلم على الفور. إنه يأمل ببساطة في ألا يرسب إيجار في صفه الخامس (كان سعيداً عندما علم أن المشرع يحظر ذلك الآن)، وأن محمد عندما يصبح كبيراً بما يكفي للالتحاق

بمرحلة ما قبل الثانوية، فإن معذبه سيكون قد غيّر هواياته أو هدفه.

ولكن، على الرغم من كرة القدم، فإن وقت الفسحة طويل جدًا بالنسبة إلى الصبي محمد، ويسألنا عما إذا كانت لدينا استراتيجية أو أخرى ممكنة نقترحها عليه لإثناء هذا «المعرقل» عن التصرف معه بهذه الطريقة. نصحه بتعديل وضعيته بالطريقة التالية: بمجرد إبلاغ أصدقائه من لاعبي كرة القدم في الصف الثالث سابقًا، يجب عليه، عندما يسقطه إيجار أرضًا، البقاء على الأرض لبضع ثوانٍ، وهي فترة كافية للغناء بصوت عالٍ بدرجة كافية، بإيقاع يشبه موسيقى الراب: «انظروا إيجار الشجاع الذي يهاجم صبيًا في الصف الثالث!»، ثم يصفق بيديه، ويدعو أصدقاءه إلى تكرار العبارة الساحقة معه.

وهكذا تم الأمر. احمرَّ إيجار خجلًا أمام عشرات من الأطفال الذين ردّدوا الترنيمة ولم يلعب كرة القدم في ذلك اليوم. ولم يعد يهاجم محمد.

العاهرة العنصرية

كان والد حكيمة، التي تبلغ من العمر ٧ سنوات، فرعًا. لقد اقترب الكرنفال وبدأ يتحدث مع حكيمة عن زي الأميرة الغانية التنكري الذي يمكن أن ترتديه لهذه المناسبة. بدأت عمتها، وهي خياطة، في صنع الزي الذي يعتبره والدها جميلًا حقًا. قال لي هذا الأب: «سيكون من الجميل بالنسبة إلينا أن نراها ترتدي هذا الزي. نريد حقًا أن يكون أطفالنا فخورين بكونهم غانيين».

ومع ذلك، قبل عشرة أيام، أعلنت الفتاة الصغيرة أنها لا تريد هذا الزي التنكري، بل تريد زي القراصنة، لا زي أميرة غانية. إنها لم تحبه بعد كل شيء. لقد وجدته قبيحًا. أصر والدها، بلطف في البداية، على سؤالها عن الأسباب، أو إذا كانت هناك أشياء تريد تغييرها في الزي حتى تحبه أكثر. لكن حكيمة تظل صامته عن أسباب تغيير رأيها وتبكي عندما يصبر والدها.

فأخبرها أنه ليس لديها خيار آخر، لأن عمتها أمضت وقتًا في صنع الفستان الجميل وهو في الحقيقة ليس جميلًا بالنسبة إليها. لكن حكيمة ترفض وتبكي مرة أخرى. يتحدث الأب عن النزوة والجحود ويظل غير مرن: ستذهب حكيمة بفستان الأميرة الغانية إلى كرنفال المدرسة؛ احترامًا لعمل عمتها واحترامًا لأصولها أيضًا. كلما اقترب موعد الكرنفال، أصبحت حكيمة أكثر تحجّرًا، وزاد غضب والدها.

في إحدى الأمسيات، قبل أيام قليلة من يوم الحفلة التنكرية، أخبرت والد حكيمة زوجها أن ابنتهما تحدّثت معها. ويبدو أن إحدى طالبات صفها في المدرسة، جراس (العاهرة connasse)، تلمس ساعدي حكيمة بانتظام، ثم تشم أصابعها وهي تقول: «هذا ما اعتقدناه، هل تضعين البراز في كل مكان، كل صباح؟ أنتم أيها السود مثيرون للاشمئزاز». وكل الأصدقاء من حولها ينظرون إليها باشمئزاز ويتعدون عنها كأنها كومة قمامة.

تتظاهر حيكمة بأنها لم تسمع شيئاً، لكنها أخبرت والدتها أنه ليس من الجيد أن تكون سوداء، وأن ما تريده هو الحصول على بشرة فاتحة، وأنها إذا ارتدت فستانها الغاني في الكرنفال، فسيسخر منها الجميع أكثر وهذا يؤلمها كثيراً. وقالت أيضاً إنها لم تتحدّث عن الأمر في المنزل لأنها علمت أن ذلك سيؤذي والديها، وخاصة والدها، كثيراً.

قال لي والد حيكمة:

- تزعم أن الحديث مع المعلمة عن ذلك لن يُجدي نفعاً. لكنني أريد حقاً أن أذهب لرؤيتها وأطلب منها إرسال رسالة إلى جميع أولياء أمور الطلاب لتشرح لهم ما يحدث وتطلب منهم توبيخ أطفالهم، أو حتى معاقبتهم. إن مثل هذه التعليقات غير مقبولة حقاً.

- بالفعل يا سيدي، هذا أمر غير مقبول ويجب أن يتوقّف. وللقيام بذلك، فإننا في الواقع نعوّل على حسن نية الآباء والأطفال، على أمل أن تكون رسالتك كافية لجعلهم يغيرون سلوكهم بالكامل. أما إذا كنا نعتقد أن هناك خطر استمرار هذا الأمر خلصة، فسيكون من المفيد تهيئة حيكمة حتى تعرف كيف تدافع عن نفسها. وفي هذه الحالة، يمكنك أن تخبرها من جانبنا أنها إذا لم ترتد فستانها، فسيكون الأمر كما لو أنها تضع تاجاً على رأس جراس. كما لو كانت تخبرها بأنها على حق في قول مثل هذه الأشياء الغبية والديئة، وبأن ذلك يؤلمها حقاً. لأن أميرة مثلها لا ينبغي أن ترقع لضبع مثل جراس، وإلا فإن العالم لن يسير على ما يرام. ولذلك يمكنها التأكد من إسقاط جراس عن قاعدتها، بأن تقول، على سبيل المثال، في المرة القادمة التي تتحدّث معها فيها عن بشرتها:

«نعم، هذا صحيح، ولهذا السبب نجذب ذباب البراز. هيا يا جراس، هيا، أعلم أنك لا تستطيعين منع نفسك عن ذلك». من الواضح أن هذا الرد سيبدو أفضل بكثير لو كانت حكيمة ترتدي فستان الأميرة. ولكن هذا ليس إجباريًا.

الحماقة كما يراها الأطفال

مقابلة مع أليسون جوبنيك

أستاذ علم النفس والفلسفة في بيركلي

- ما أسوأ الحماقات التي يعتقدها الكبار، بما في ذلك علماء النفس، عن الأطفال؟

- إنه أمر مزعج بعض الشيء، ولكن تقريباً كل ما قاله الكبار، وخاصة علماء النفس، منذ فترة طويلة حول الأطفال، تبين أنه خاطئ! ومن الصعب جداً معرفة السبب. على سبيل المثال، كان يُنظر عادة إلى الأطفال على أنهم غير عقلانيين، وغير قادرين على وضع أنفسهم في مكان الآخرين أو التجريد عامةً، ومقتصرون على هنا والآن، لكنهم أيضاً غير أخلاقيين، وأنانيون وفقاً لسيجموند فرويد وچان بياجيه، مؤسس علم نفس النمو! تحدّث ويليام جيمس عن «الارتباك الناشئ والصاخب» (blooming, buzzing confusion)، لدى الأصغر سناً، وتحدّث جون لوك، عن صفحة بيضاء. وحتى اليوم نجد أناساً مقتنعين بأن الأطفال لا يعرفون الفرق بين الخيال والواقع. حسناً يا سيدي، لا يمكننا أن نُخبر بما يدور داخل رأس الطفل، لكن من الغريب أن يتمكن

علماء النفس العلميون من إعلان أسوأ الأشياء عن الأطفال من دون دلائل حقيقية. كان من الممكن أن يقولوا: «نحن لا نعرف حقاً ما إذا كان الأطفال أنانيين أم لا، أو ما إذا كانوا يعرفون كيفية الانخراط في التجريدات. نحن بحاجة إلى توضيح هذا». لكن لا، يعتبر الأطفال ناقصين، أقل من البالغين، ويفتقرون إلى القدرات الأساسية.

في الآونة الأخيرة، قارن أحد علماء الأعصاب الأطفال بحيوانات أو مرضى مصابين بأضرار في الدماغ. ومع ذلك، إذا فكرنا لمدة تزيد قليلاً على دقيقتين، فسرى أنه لا يوجد أي معنى، ولا أي حجة صحيحة. لكن العلماء الأوروبيين الذكور الذين يبلغون من العمر ٣٥ عاماً يعدون أنفسهم قمة الذكاء البشري.

- كان علماء النفس نسوا أنهم أنفسهم كانوا أطفالاً!

- ولهذا السبب، لفترة طويلة، كنا جميعاً أغبياء. وعلى أي حال، لا يمكننا أن نتذكر كيف كان الأمر عندما كان عمرنا أقل من خمس سنوات. لا يتحدث الرضع، وبعد ذلك يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يتمكن الأطفال من التعبير بشكل صحيح. إذا سألت طفلاً يبلغ من العمر ثلاث سنوات عما يريده في عيد ميلاده، فإن إجابته لن تكون بالضرورة متماسكة. وهذا أحد الأسباب التي تجعل من الصعب فهم ما يدور في رؤوسهم. ومن ناحية أخرى، دعونا لا ننسى أنه لفترة طويلة جداً، كان الأشخاص الذين يعرفون الأطفال بشكل أفضل، والذين اعتنوا بهم يوماً بعد يوم، هم النساء والأمهات. لقد اعتقدن بلا شك، حدسيًا، أنه لا ينبغي الوثوق بالمظاهر، لكن رأيهن كان يعدُّ أقل أهمية، وأقل عقلانية،

وعاطفيًا للغاية. إن مؤلفي الأعمال الفلسفية وعلم النفس، هم أنفسهم، لم يربوا أطفالهم! بعض الشعراء، الذين يتذكرون سنواتهم الأربع أو الخمس الأولى، كانت لديهم وجهة نظر أكثر استنارة، على سبيل المثال، وردسورث، خاصة أنه عندما كان صغيرًا كان يكسب رزقه من خلال رعاية أطفال شخص أكثر ثراء منه. وداروين نفسه، من خلال مراقبته لأطفاله، قال بعض الأشياء المثيرة للاهتمام. لكن هناك استثناءات.

- كان الأمر أسوأ بالنسبة إلى الأطفال الرضع، الذين يعتبرهم كبار علماء النفس أنابيب هضمية بسيطة، وكانت تُجرى العمليات الجراحية لهم من دون تخدير حتى نهاية القرن العشرين بحجة أنهم لا يشعرون بالمعاناة.

- هذا بالضبط. واليوم ما زلتُ أسمع فلاسفةً يؤكدون أن الأطفال ليس لديهم وعي. عندما كنت طالبة، أوضح لي أحد علماء الأعصاب أن لدى الأطفال ردود أفعال فقط، لعدم وجود قشرة دماغية لديهم. لم يكن ذلك منذ وقت طويل!

- هل الأطفال حسّاسون إزاء غياب الكبار؟

- من الصعب قول ذلك. إذا كنا نفكر من حيث النظام ١ / النظام ٢، فما يبدو غيبًا يكون مفيدًا جدًا في بعض الأحيان! على سبيل المثال، عدم التفكير، أو عدم مراعاة معلومات جديدة لصقل تفكيرك وتقبُّل دليل خطئك، يمكن أن يشكّل تعريفًا للغباء. ومع ذلك، عندما يتعين عليك اتخاذ قرار بسرعة كبيرة، لا يمكنك دائمًا تحمُّل الوقت والطاقة اللازمين لكي تثبت ذكاءك. إن اتباع روتين معين يعمل بشكل جيد للغاية، في

معظم الأوقات، هو أفضل بكثير من بدء أفكارك من الصفر في كل مرة. ومع ذلك، يعتمد الأطفال بشكل أكبر على تعلمهم، وبدرجة أقل على تلقائيتهم. على سبيل المثال، وفقاً لبحثي الأخير، فإنهم يُحدّثون فرضياتهم أو معتقداتهم بسهولة أكبر من البالغين، الذين يعتمدون أكثر على معرفتهم المكتسبة. في النهاية، هناك نوعان من الذكاء مختلفان تماماً، لكنهما متكاملان:

إن ضمان المعرفة القوية شكلاً من أشكال الذكاء، لكن القدرة على التكيف بسرعة كبيرة مع عالم متغير شكلاً آخر!

يتحدّث علماء الأعصاب عن جدلية استكشاف/استغلال (استكشاف/استغلال المقايضة). الأطفال موهوبون بشكل لا يُصدّق في تعلّم لغتهم، حتى لو بدوا خرقى أكثر من البالغين عندما يتعلّق الأمر بعقد أربطة أحذيتهم وارتداء معاطفهم قبل الذهاب إلى المدرسة.

- هل يعترفون، إن أمكن، بأن آباءهم أغبياء؟

- أوضحت دراسات عديدة مخصّصة لحكم الأطفال على البالغين أنه منذ سن الثالثة أو الرابعة، يزوّدون بميزة الشك بسهولة. إذا قال شخص بالغ شيئاً ما، فإنهم يفترضون أنه صحيح. لكن، إذا كان يعبر بانتظام عن شيء يتبين أنه كاذب، فإنهم لن يصدقوه بعد الآن. في الآونة الأخيرة، درستُ أيضاً المراهقين، وقد لاحظت أشياء مثيرة للاهتمام للغاية: يبدو أن ميلهم إلى رفض ما يقوله آباؤهم، وتقييم الأمور بأنفسهم، يتركز على تغيرات في الدماغ تساعدهم على الاستكشاف والانتقاد وتحمل المسؤولية عن أنفسهم.

- هل يمكن أن يؤدي الإفراط في الاستثمار الأبوي (parenting) إلى حماقة؟

- كما تعلم من كتبي أن الإفراط في الاستثمار الأبوي حماقة! بفضل جدلية الاستكشاف/ الاستغلال، فإن العلم قادر على الاستكشاف على المدى الطويل. على سبيل المثال، من خلال ملاحظة الحركة البطيئة للنجوم، شهد العلم دفعة حاسمة. وفي مجالات أخرى، كما هي الحال في الطب، حيث يكون من الضروري الإسراع دائمًا إلى مساعدة المرضى في التغلب على المرض، غالبًا ما يكون لدينا كل الاهتمام باستغلال الروتين. إنه أمر متناقض، لكن الاستعجال يعرّض للخطر، وبالتالي استغلال البيانات التي يسمح بها التآني.

مع الإفراط في الاستثمار الأبوي، يبحث الآباء عن وصفات جاهزة للتصرف عاجلاً، هنا والآن، مع طفلهما... والاندفاع إلى العبث بدلاً من السماح لعلاقة طويلة الأمد بالتطور بشكل طبيعي.

- هل الشاشات تجعل الأطفال أغبياء؟

- هذا سؤال ممتاز لن نعرف إجابته قبل سنوات. في رأيي، سوف تساعد الأطفال في تنمية ذكائهم بشكل مختلف. نلاحظ نوعاً من الذعر الأخلاقي تجاه الشاشات، لكنه لا يتناسب مع معرفتنا الحقيقية حول الموضوع. وهذا ما يحدث دائماً بعد التقدم التكنولوجي، الذي يُتهم بانتظام بالتأثير على ذكاء الناس. ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك، إدانة سقراط للقراءة لأنها تمنع تطوّر الذاكرة. لقد كان على حق، فنحن لم نعد نحفظ أعمال هوميروس عن ظهر قلب! لكننا استخلصنا

فوائد أخرى من القراءة. فمن الممكن تمامًا أن يتكيف الأطفال اليوم مع التكنولوجيات الجديدة لتطوير أشكال جديدة من الذكاء، ربما على حساب القدرة على الحفظ، على سبيل المثال. إذا كان بإمكانك الحصول على إجابة فورية لسؤال ما، فلماذا تحفظ المعلومات سابقًا؟ وإذا كانت لديك كل المعلومات الموجودة في العالم في متناول يدك، فمن الصعب أن تتخيل أن هذا سيفسد عقلك.

- في نهاية المطاف، هل تصبح بالثقة بالأطفال؟

- من منظور تطوري، قد يتساءل المرء عن سبب وجود الأطفال! نحن البشر نمر بفترة من عدم النضج أكبر بكثير من أي نوع آخر. ومع ذلك، كلما زاد اعتماد النوع على التعلم بدلاً من الغريزة، كان أكثر ذكاءً. هذا صحيح بالنسبة إلى الفراشات والغربان... لقد خلق الأطفال ليصبحوا أذكى، ليتعلموا على أي حال أنهم يستفيدون من فترة مبكرة حيث ليس لديهم أي شيء يفعلونه سوى تعلم ما سيكون مفيدًا لهم كبالغين؛ ما سيجعلهم أذكى، من دون الحاجة إلى التساؤل عن كيفية تناول الطعام، وكيفية البقاء على قيد الحياة في اللحظة التالية. من وجهة النظر هذه، يمكننا أن نثق بالأطفال، بمعنى أن سبب وجودهم على وجه التحديد هو الاستكشاف من أجل تعلم كيفية التعايش.

- برأيك، هل يعد الشخص البالغ أحمق وغدًا لأنه يرفض الجزء الخاص به من طفولته؟

- أعتقد أن هناك حُججًا جيدة لصالح هذه الفرضية. ربما تكون قد قرأت مقالًا من صحيفة نيويورك تايمز تنتقد دونالد ترامب لتصرفه

كطفل في الرابعة من عمره. هذا مهين جدًا للأطفال بعمر أربع سنوات! خلال مرحلة الطفولة، لدينا عقل منفتح للغاية على جميع الاحتمالات، والمستجدات. كلما كبرنا، يصبح الأفق أضيق بكثير، مع حرية أقل بكثير في رؤيتنا للعالم. فكّر في التقليد البوذي الذي يلاحظ كم نشعر أحيانًا بأننا محاصرون في أذهاننا، بسبب رغباتنا المباشرة، اجترارها، من دون إمكانية احتضان العالم الخارجي: «أنا بحاجة إلى هذا، أريد ذلك، ماذا يمكنني أن أفعل للحصول عليه على الفور؟»، هذا بالضبط ما انتقده الكبار فيما يتعلق بالأطفال منذ فترة طويلة! في حين أنهم على هذه الشاكلة... وخاصة الحمقى الأوغاد، المهووسين بأنفسهم وأهدافهم الخاصة. على العكس تمامًا من الأطفال. لذا، نعم، أن تكون مثلهم يمكن أن يكون علاجًا جيدًا ضد الحماقة.

- عندما سمع كثير من الناس عن أن مشروع هذا الكتاب حول الحماقة، افترضوا بعنفوية أنه سيكون حول دونالد ترامب. ولكن أنت أول من تحدّثت عن ذلك!

- ومع ذلك فهو يهيمن على كل المحادثات! لكنه يُظهر كيف يمكن للبالغين أن يصبحوا أنانيين، أكثر بكثير من الأطفال.

- كشخص بالغ، هل يوجز كل هذا الهراء الذي فكر فيه علماء النفس، فيما يخص الأطفال؟

- بالضبط.

أجرى المقابلة جان فرانسوا مارميون

هل نحلم بالحماقات؟

دلفين أودييت

باحث في معهد الدماغ والنخاع الشوكي ضمن فريق «الدافع والدماغ والسلوك»

غالبًا ما نفكر في الأحلام على أنها مغامرات عظيمة. عندما ننام، نصبح فجأة رائعين مثل سوبرمان، نطير فوق أسطح مدينة خيالية ونقاتل الوحوش المخيفة ببطولة. لذلك فإن الأمل المتوقَّع كبير: ماذا لو سمحت لنا الأحلام بالهروب من حماقات حياتنا اليومية؟

أحلام حمقاء كثيرة

شرعت عدة مجموعات من العلماء في تعذيب نائمين أبرياء كل ساعة بإيقاظهم لسؤالهم عما كان يدور في أذهانهم عندما استيقظوا. وهنا كان الرعب! كانت القصص التي رويت عادية ومبتذلة للغاية لدرجة أن أي شخص لديه الجرأة لسردها في حفلات العشاء الاجتماعية كان يخاطر بجعل جمهوره يموت من الملل. على سبيل المثال، يُعد أحدهم قلوب الخرشوف، والثاني عالق في ممر، وآخر يتحدث مع زوجة راكب دراجة حول تعاطي المنشطات. تؤكِّد بنوك الأحلام، التي

تحتوي على آلاف من أحلام الرجال والنساء من جميع الأعمار، هذه الملاحظة الدامغة: ٩٠٪ من الأحلام متماسكة للغاية، وذات مصداقية كبيرة وواقعية، وذات جودة درامية سيئة (قليل من العناصر خارجة عن المألوف). باختصار، لا تكفي لكتابة سيناريو فيلم جيد. لذا فإن الخيال الجماعي الذي يرى عالم الأحلام على أنه استثنائي لا أساس له من الصحة. ستكون ذاكرتنا انتقائية، فنحن نتذكر في الغالب فقط الأحلام الأكثر غرابة والأكثر كثافة والعاطفية. أما الأخرى، الأقل روعة، فسوف تفرق في غياهب النسيان.

الأحلم مرة، هل هو أحلم دائماً؟

في حين أن قليلاً من أحلامنا تكررُ دقيقاً لمغامراتنا في اليقظة، فإن ٨٤٪ من قصص أحلامنا تحتوي على عناصر سيرة ذاتية؛ تتضمّن الأغلبية عناصر من تجاربنا الأخيرة، التي غالباً ما تتشابك مع أحداث أقدم. حياتنا اليقظة تغذي حياة أحلامنا. لذلك، بداهة، إذا كنا حمقى في أثناء النهار، فهناك فرصة ضئيلة أن يتغير ذلك في الليل.

ولكن ليس بهذه السرعة! قصص الأحلام متحيّزة؛ يمكننا فرض رقابة على المحتوى البذيء، أو نواجه صعوبة في تدوين مغامرات غير عادية لفظياً، أو ببساطة، ننسى كل جزء من مآثرنا الليلية أو ننساها كلها. ربما شذرات من الذكاء مدفونة في أحلامنا وتختفي عندما نستيقظ مثل الشهب! يمكن لبعض أمراض النوم أن تزودنا ببعض الإجابات. عندما ننام، نكون إما في مرحلة نوم الموجة البطيئة وإما في مرحلة نوم حركة العين السريعة. وتتميّز هذه الأخيرة بنشاط الدماغ المكثّف وحركات

العين السريعة وشلل العضلات. ونوم حركة العين السريعة أيضًا مرحلة مرتبطة بتكرار أكبر للأحلام ومحتوى أحلام أكثر تفصيلًا وكثافة.

لدى المرضى الذين يعانون اضطراب سلوك نوم حركة العين السريعة، يتوقّف قفل الدماغ الذي يشل العضلات عن العمل. ثم يبدأون في «عيش» جزء من أحلامهم، وبالتالي تصبح الإيماءات والكلمات التي يحلمون بها متاحة للمراقبة بالفيديو عبر تركيب كاميرا تعمل بالأشعة تحت الحمراء. وبفضل مساعدة هؤلاء المرضى المهتاجين، تمكّنّا من رفع الحجاب قليلًا عن محتوى الحلم، وتحررنا من التحيزات المتأصلة في روايات الأحلام. كان عديد من مرضانا يتشاجرون ضد أعداء غير مرئيين في الليل، وأحيانًا يهربون من أسد عدواني، وأحيانًا يطردون تمساحًا استوائيًا بمجذاف وهمي، وأحيانًا يقاتلون المسلمين بفخر. كانوا على موعد مع الشجاعة! إلى جانب أحلام المعركة، أظهر المرضى الذين يعانون اضطراب سلوك نوم حركة العين السريعة أيضًا سلوكيات أكثر اعتيادية؛ انغمس مدخن سابق نائم في إدمانه السابق عن طريق تدخين سيجارة غير مرئية، وجندي سابق أعطى الأوامر ومراجعة قواته، ونجار متقاعد يطرق بمطرقة لبناء درج. يبدو أن عاداتنا ومهاراتنا المكتسبة خلال سنوات من اليقظة تغزو سيناريوهات أحلامنا. «من الصعب الهروب من حياتنا اليومية، حتى عندما ننام»!

نحلم، أم نحرر الأحمق الكبير الذي ينام بداخلنا؟

هناك أنواع مختلفة من الحمقى. ومنهم الأحمق الاجتماعي، المبتذل، الثقيل، المباشر. ويبدو أن هذا الأحمق يفلت من أحلامنا!

ركّزت دراسة كبيرة على الكلمات الليلية الصادرة عن ٢٣٢ من المتكلمين في أثناء النوم، وهم الأشخاص الذين يتحدثون في أثناء النوم. والنتيجة مذهلة. الحالمون ليسوا الأكثر تصالحًا؛ فمن بين ٣٦١ كلمة يتحدثون بها في أثناء النوم، ٢١٪ منها تحتوي على كلمة «لا». تمثّل كلمة «لا» الشهيرة هذه ٥٪ من جميع الكلمات المنبثقة في أثناء النوم، أما في أثناء اليقظة، فتمثّل كلمة «لا» ٤ ، ٠٪ فقط من جميع الكلمات المستخدمة. لكن هذا ليس كل شيء. فقد تضمن الكلام الليلي جرعة جيدة من الألفاظ النابية وغيرها من الكلمات البذيئة (٧ ، ٩٪ من الجمل المنظوقة). فيما يلي مختارات من هذه اللغة المزهرة، الكلمات الأساسية: «أخ أخ أخ أخ. اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة، أوه، اللعنة!»، و«لعنة الله عليك»، ودائمًا فعالة: «اخرس!»، والتراجع: «اخرس، يا نتن»، ونفاد الحجب: «أنت وقح!»، والتهديد: «أوه، لكنني سأضربه بشدة»، أو حتى الأنيق للغاية: «دفقة، في مؤخرتك». من وقت إلى آخر، كانت تأتي لحظة صغيرة من العذوبة لتضفي بلسماً على القلب. متكلم في أثناء النوم رومانتكي يخاطب امرأة في حلمها: «ألم يخبرك أحد أنك فاتنة؟ ماذا؟ ألم يخبرك أي شاب وسيم أنك ساحرة؟». تنتهي مغازلة المتكلم في أثناء النوم بلحظة من الشعر الخالص: «لكن هل هم خصيان، هؤلاء الرجال؟ هل كلهم شاذون أم ماذا؟»، لسوء الحظ، القصة لا تخبرنا بما إذا كان المغازل المتكلم في أثناء النوم قد توصّل إلى فتاة أحلامه في نهاية الأمر. هناك شيء واحد مؤكد: بين الابتذال والعنف اللفظي والإيماوات الاتهامية والنبرة الساخرة، غالبًا ما يكون

الكلام الليلي قذرًا ويتناقض بقوة مع الشخصية النهارية اللطيفة للمتكلمين في أثناء النوم.

الحالم، هل هو أحق غير كفاء وساذج؟

الحماقة في الأحلام لا تقتصر على الفظاظة والابتذال.

الحالم شخصٌ معروف أنه غير كفاء، وفي كثير من الأحيان، في حالة من الفشل. أظهرت دراسة كبيرة لأحلام نحو ٧٠٠ طالب طب، أُجريت في اليوم السابق لامتحان القبول المرموق وخلال الفصل الدراسي السابق، أن ٦٠٪ من المشاركين كانوا يحلمون بالمنافسة. وفي ٧٨٪ من الحالات، كانت أحلام المنافسة سيناريوهات كارثية حقيقية: مشكلة الاستيقاظ، والتأخير، والاتهام بالغش، والموضوع غير المفهوم، وضيق الوقت... واستنزفت كل أسباب الفشل. وهذا لا يقتصر على طلاب الطب. تُمثل المشاعر السلبية (خاصة الخوف والحزن والغضب أيضًا) بزيادة في الأحلام، بما يعادل ٨٠٪ تقريبًا من المشاعر التي يخبر بها. الأحلام المتعلقة بالخطأ السيئ (حادث أو مرض أو عقبات) أكثر شيوعًا سبع مرات من الأحلام التي يقع فيها حدث جيد. من بين جميع التفاعلات الاجتماعية، يعد العدوان هو الأكثر شيوعًا، وهو أكثر بكثير من العلاقات الودية أو الجنسية. لذا فإن الحالم يفكر باستمرار، ويضع نفسه بانتظام في مواقف غير سارة، وحتى خطيرة. ويكفي أن نقول إنه ليس مثالًا للنجاح الاجتماعي!

ومما يزيد الطين بلة، في الأحلام النادرة غير الواقعية التي تتضمن

عناصر غريبة، غير محتملة، أو حتى مستحيلة في الواقع، يفقد الحالم أي حس نقدي. يصدق بقوة كل ما يراه أو يسمعه من دون أن يسأل. لذلك لا يندهش الحالمون من أن زميلهم في المرحلة الثانوية يبدو كأنه زميل في الصف السادس أو أن غرفة معيشتهم الصغيرة أصبحت فجأة قاعة رقص. إن فقدان التفكير الموجّه والتحكم الإرادي والتوجيه والحس النقدي في الأحلام يرجع بلا شك إلى الاختلافات في تنشيط الدماغ في أثناء نوم حركة العين السريعة مقارنة باليقظة، وعلى وجه الخصوص إلى تعطيل قشرة الفص الجبهي الظهراني، وهي منطقة مهمة جداً للتفكير المنطقي في اليقظة. إضافة إلى ذلك، فإن بعض التناقضات المميّزة للأحلام، مثل الخطأ في التعرف على الوجوه المألوفة، تشبه الأعراض العصبية المعروفة الناجمة عن بعض آفات الدماغ (مثل متلازمة فريبجولي، اضطراب في تحديد هوية الشخص ناجم عن آفات تقع في الفص الجبهي الأيمن أو الفص الصدغي الأيسر). تشير أوجه التشابه هذه بين الأحلام والمظاهر المرضية إلى وجود، في أثناء النوم، عمليات تعطيل مؤقتة في بعض المناطق البصرية المحددة، و/ أو قطع اتصال وظيفي بين هذه المناطق البصرية وشبكات الدماغ الأخرى لدى الأشخاص الأصحاء عصبياً.

الحماقة في الحلم تجربة؛ هل هي تجربة مفيدة؟

تذكّر طلاب الطب الذين كانوا يحلمون في الغالب بالفشل في أحلامهم قبل الامتحان الكبير. حسناً، استناداً إلى علاماتهم في الامتحان المذكور، يبدو أن هذه التجارب السلبية كانت مفيدة. كلما

حلموا بالمنافسة، كان أداؤهم أفضل! وتؤكد هذه النتيجة الدراساتُ السابقة التي أُجريت على النساء اللاتي يخضعن لإجراءات الطلاق، اللاتي دمجن مزيداً من العناصر المتعلقة بالطلاق في أحلامهن تكيّف أفضل مع حياتهن الجديدة وأصبن باكتئابٍ أقل من الأخريات. تفترض إحدى النظريات أيضاً أن الأحلام يمكن أن تكون محاكاة للتهديدات أو المواقف التي تقلقنا، للاستعداد بشكل أفضل لها في الحياة الواقعية، تماماً مثل اللقاح الذي يحفز إنتاج الأجسام المضادة المنكيّفة للحماية من الفيروسات المستقبلية المحتملة.

بالإضافة إلى بُعد «الواقع الافتراضي» كالتحضير للعمل، يمكن أن تسمح لنا الأحلام بهضم عواطفنا بشكل أفضل، عن طريق إزالة «الغلاف العاطفي» لذكرياتنا والاحتفاظ بالمعلومات المهمة فقط (تحرّر الذاكرة في حد ذاتها من المشاعر المرتبطة بها). يقترح الطبيب النفسي الكندي، توري نيلسن، أن الأحلام تجعل من الممكن تقليل البُعد السلبي للتجارب المثيرة للقلق أو المؤلمة، من خلال إعادة تنشيطها بالاشتراك مع عناصر محايدة في أثناء سيناريو الحلم. ستشمل هذه العملية منطقتين في الدماغ: اللوزة الدماغية، الموجودة في عمق الدماغ، والقشرة الجبهية الوسطى، الموجودة في الأمام. إن إعادة تنشيط العنصر المثير للقلق من شأنه أن ينشط اللوزة الدماغية؛ ما يثير الشعور بالخوف، الموجود بشكل كبير في الحلم. تسمح القشرة الجبهية الوسطى بتحليل عاطفي للموقف (العنصر المثير للقلق الذي أعيد تنشيطه في سياق آخر أكثر حيادية لم يعد مثيراً للقلق)، كما تسمح

بتشيط الخوف. ووفقاً لهذا النموذج، إذا كانت العاطفة شديدة للغاية أو كانت الأرضية النفسية هشة، فإن المشاعر السلبية سوف توقظ النائم؛ ويصبح الحلم كابوساً. ومن ثم ستكون الكوابيس بمثابة فشل في عملية معالجة العواطف في أثناء النوم.

هل هي حماقة أحلام أم ذكاء نائم؟

دعونا نحاول حل اللغز. تخيل رجلين، أحدهما على بُعد أمتار قليلة من الآخر. يلاحظان ثلاث بقرات تتكئ على سياج، أصبح فجأة مكهرباً؛ ما جعل الأبقار ترتجف. الأول يرى الأبقار الثلاث تقفز في نفس اللحظة بالضبط. ويقول الآخر إنها قفزت واحدة تلو الأخرى. يتوتران، ويتعاركان. من على حق ومن على خطأ؟

جَرَّب ألبرت أينشتاين هذا الخلاف السخيف في الحلم، ثم وجد نفسه مهووساً به عندما استيقظ، لدرجة أنه كان مصدر إلهام لتطوير نظريته عن النسبية، بعد سنوات، والتي تثبت أن المكان والزمان ليسا مطلقين، ويمكن تشوييهما. لذلك كان كلا الرجلين على حق. قصة البقرات هذه ليست مجنونة جداً! ولم يكن أينشتاين هو الوحيد الذي وصف الحلم بأنه مصدر إلهام إبداعي. ما كانت الأعمال الفنية (رواية فرانكشتاين، الأغنية الأسطورية لفرقة البيتلز بالأمس)، والاختراعات (آلة الخياطة)، والتقدم العلمي الكبير (التركيب الكيميائي للبنزين، وأهمية الناقلات العصبية في التواصل العصبي) لتتحقق إلا بفضل حدوث حلم ملهم.

أظهرت دراسات عديدة أن تجارب اليقظة (ذكرياتنا) يعاد تنشيطها في أثناء نوم الموجة البطيئة؛ ما يسمح بتوحيدها، تمامًا مثل ممثل يكرر نصه لحفظه بشكل أفضل. فرضيتنا هي أنه في نوم حركة العين السريعة الذي يتبعه (وربما خلال الأحلام التي تصاحبه)، يصبح الدماغ هو المتصرف ارتجالياً، ويقفز من تداعٍ إلى آخر؛ ما يسمح بإعادة تنظيم تجاربنا وظهور أفكار جديدة يمكن استغلالها عند الاستيقاظ. هذه الفرضية مدعومة بشهادات عديد من الحالمين الواعين، هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون أنهم يحلمون في اللحظة التي يحلمون فيها ويمكن لبعضهم تعديل جزء من سيناريو الحلم الجاري تنفيذه. كثيراً ما يذكر مستكشفو عالم الحلم الحقيقيون أنهم يستخدمون الحرية الفريدة التي توفرها حالة الحلم للبحث عن حلول إبداعية لتحدياتهم الشخصية (على سبيل المثال، حل مشكلة رياضية معقدة أو اختراع نموذج).

كما رأينا، ترتبط الأحلام بقوة بتجارب يقظتنا. وهذا يعني: ١ - أنه من الصعب للغاية الهروب من الحماقة المحيطة. ٢ - وأن الأحق في أثناء النهار يميل إلى أن يظل أحق في الليل. لكن من يعلم؟ بفضل القوة الإبداعية للأحلام، هل ربما يستطيع حتى الأحق أن ينغمس في ومضات العبقرية؟

للقراءة:

Arnulf, Une fenêtre sur les rêves, Odile Jacob, 2014. M. Jouvet, Le Sommeil, la conscience et l'éveil, Odile Jacob, 2016. S. Schwartz, La Fabrique des rêves, Le Pommier, 2006. 1. Arnulf, Comment rêvons-nous?, Le Pommier 2004. M. Walker, Pourquoi nous dormons, La Découverte, 2018.

الغباء الأكبر هو أن تعتقد أنك ذكي

مقابلة مع چان كلود كاريير
كاتب وسيناريس

- لقد أخبرتني ذات مرة بأنك تميّز بين الهراء والحماقة - la bêtise de la connerie . ما الفارق الدقيق بالنسبة إليك؟

- هل قلت ذلك؟

- آه، نعم! هل كان حماقة؟

- ممكن! فلنقل إن الهراء دائماً متعجرف، قطعي، وفيه نوكد شيئاً أبله تماماً، لكن بكل ثقة، وبكل السلطة اللازمة. إذا كان الهراء دائماً واثقاً جداً بنفسه، فمن ناحية أخرى، يمكن للحماقة أن تتردد أحياناً. لذلك أنا نفسي أقول حماقات كل يوم، مثل أي شخص آخر، ولكن أحاول ألا أقول كثيراً من الهراء، خاصة وأن بعضه يسبب كثيراً من الضرر. وحتى اليوم، عندما نقول إن فئات معينة من البشر لا تشبه فئات أخرى، فهذا هراء وحماقة في نفس الوقت، لكن على نحو خاص هراء، لأننا نعلم أن هذا ليس صحيحاً. شخص ما يدّعي أن الشمس أكبر نجم في الكون، هذه حماقة، هذا كل ما في الأمر، إذا كانت قائمة على الجهل.

وشخص آخر يؤكد ذلك ضد كل الأدلة، هذا هراء حقيقي، يميل إلى حماقة جوهرية. لكن ما يشير الدهشة في الأحمق هو عندما يقول شيئاً ذكياً. ما قد يحدث...

- الهراء هو اعتقاد يظن نفسه معرفة؟

- في بعض الأحيان، نعم. لا أستطيع أن أقول إن جميع الأشخاص الذين شاركوا في المجالس الدينية لإثبات «حقائق» كانوا بُلْهًا؛ كان لديهم ذكاءٌ عصرهم وكانوا يفكرون بمصطلحاتهم. مع ذلك، انتهى بهم الأمر إلى عبارات مثل «الثالوث الوحدوي»، التي رغمًا عن ذلك قريبة جدًا من الحماقة. الجملة التي أعطت مفتاح قاموس الهراء الخاص بي، نطق بها المونسنور دو كيلين، في بداية القرن التاسع عشر، بعد هزيمة نابليون. لقد وعظ جميع المهاجرين السابقين، الذين عادوا مع البوربون وتجمعوا في كاتدرائية نوتردام باريس، بأن «يسوع المسيح لم يكن ابن الله فحسب، بل كان من عائلة ممتازة من جهة والدته». إنها جملة: «لا يمكن أن نكون أغبياء بعد الآن!»، وفقًا لفلوبيير: «الغباء هو الرغبة في الإنهاء». قول شيء نهائي لن يتغيّر أبدًا. نحن نعيش في حركة دائمة للمعرفة، والأفكار، والمشاعر، ولإدراكنا للعالم ولأنفسنا، وأحاسيسنا... لذا؛ فإن الرغبة في تثبيت الأشياء مرة واحدة وإلى الأبد، «هكذا هي الأمور»، مهما كان الأمر، فهو غباء، بالضرورة، لأن كل شيء يتغيّر باستمرار.

- فهل يكون الشك هو الترياق للغباء أو الحماقة؟

- أظنه ضروريًا للغاية. يشك العلم بلا توقف: عندما أعمل مع العلماء، وهو ما يحدث لي في كثير من الأحيان، يقولون لي إن الحقيقة العلمية تتمتع بمتوسط عمر نحو عشر سنوات، أما الإيمان، فلا يشكُّ أبدًا. وهذا حتى ما يميزه: الشك في القديس توما خطيئة كبرى! «لقد انضمت إلى هذه المجموعة التي تؤمن بهذه الحقيقة. إذا كنت للأسف ممن يؤمنون بالشك، فستُطرد». وفي حالات قليلة، يُحكّم عليك بالموت.

- le Credo quia absurdum، إنها عبارة «أعتقد أنه أمر سخيف»؟

- إنه شيء آخر. الحقائق اللاهوتية، على سبيل المثال الثالث الوحدوي (يجب الاعتراف بأن الله «واحد» و«ثلاثة»)، هذا هو اللغز، وهذا هو العبث. لا يمكن لأي عقل بشري أن يخترع مثل هذا الشيء، وبما أنه حقيقي وغير معقول في نظرنا، فهو إلهي. لكننا ننسى أننا من قرّر أن هذا صحيح... من الصعب الاعتراف به اليوم لكنني عرفت في جيلي شيوعيين عن قناعة تامة لم يكونوا بعيدين عن هذه الحالة الذهنية. واستشهدت لهم بعبارات من كارل ماركس وإنجلز ولينين، وأوضحت الحقيقة. أن تُستبعد من خلية شيوعية بسبب شكوكك، في الخمسينيات، كان أمرًا خطيرًا للغاية! عانى البعض كثيرًا، ومات آخرون حزنًا أو انتحروا. كنت أعرف بعضهم... كان الأمر أشبه بأن تجد نفسك مستبعدًا من طائفة غنوصية أو هرطقية، مثل تلك التي كانت موجودة بالمئات عبر التاريخ.

- هل يوجد قاسم مشترك للحماقة عبر القرون والثقافات، أم أن تمثيلاتها متغيرة؟

- ثمة جوهر مشترك، لكن يجب علينا دائماً أن نكون حذرين عندما نتحدث عن الحماقة أو الهراء، لأننا نتحدث دائماً عن حماقة الآخرين أو هرائهم... لكننا معرضون، أنت، وأنا والجميع، في كل لحظة، أن نقول هراءً أو حماقة. أود أن أقول إنه في متناول أيدينا! إنها ليست شيئاً يمتلكه البعض ولا يمتلكه البعض الآخر؛ لقد أبرزها البعض أكثر من غيرهم. كلنا من المحتمل أن نكون أغبياء. بينما يفسح بعض الناس المجال لشخصيتهم ومزاجهم والظروف التي تجعلهم يفعلون أشياء شنيعة، يكون البعض الآخر أكثر حذراً. ثانيًا، لقد حدث أن قلت هراء، بالتأكيد (وربما حتى اليوم وأنا أتحدث معك!)، لكن أسوأ غباء هو أن تعتقد أنك ذكي؛ أن نعتقد أن لدينا نظرة عامة واضحة ومتميزة ومنظمة تنظيمًا جيدًا عن العالم، عن الرجال والنساء. «أحلل الوضع بطريقة قاطعة تمامًا»؛ هذه هي الحماقة الحقيقية. على الجانب الآخر، العقل الذي يعترف لنفسه دائماً بأنه في الظلام، وفي شك، وأنه لا يعرف، وأنه لا يرى، سوف ينزلق إلى تطرف آخر يكاد يكون غيبًا مثل الأول. ولكن ليس تمامًا...

- هل اعتراف المرء بحماقته يعني الحد منها، أو حتى جعلها تختفي؟

- يمكننا أن نأمل ذلك، لكن هذا سيكون جد ادعاء! عليك أن تعترف بحماقتك رغم كل شيء، فهذا أقل ما يمكنك فعله. أن تكون عنيذاً هو أن تُظهر نفسك أكثر بلاهة مما قلته للتو. المسافة، التفكير

النقدي، النظر إلى الذات، كل ما نأمل أن نحتفظ به لأطول فترة ممكنة، يوفر هدوءًا داخليًا يسمح لنا بالحكم على الأشياء بشكل أفضل.

على سبيل المثال، عندما يكون التلفزيون مفلسًا، لا يوجد سوى مناقشات، بما في ذلك ما حدث في اليوم نفسه. لقد وجدت هذا الأمر دائمًا جريئًا جدًا ومتهورًا جدًا! ١ مايو شهدنا مظاهرات أصحاب أغطية الرأس. حسنًا، في نفس اليوم، جاء متخصصون لشرح الأمر. لم أكن لأتمكن من ذلك؛ زعم البعض أنهم جماعات يسارية متطرفة، والبعض الآخر أنهم جماعات يمينية متطرفة، وآخرون جماعات لا يمينية ولا يسارية، بل مثيرو شغب وفوضويون محترفون. ها أنت ذا، تعامل مع هذا! من الصعب جدًا أن يكون لديك هذا المنظور، خاصة عندما تكون سياسيًا رجلًا أو امرأة، ويتعين عليك اتخاذ قرار في الوقت الراهن. هل أضغط الزر أم لا؟

هناك دائمًا حجج مؤيدة وحجج معارضة. إن كبار السياسيين هم أولئك الذين ينظرون إلى الأمور عن بُعد ويختارون اللحظة المناسبة، كما هي الحال عندما نطق الجنرال ديجول، فيما يتعلق بالجزائر، بمصطلح «تقرير المصير» الذي يعني «الاستقلال» بالمعنى التقريبي.

لقد كانت هذه الكلمة على شفثيه لعدة أشهر ولم يقلها بالمصادفة، ولا في أي مكان؛ لقد كانت ثمرة تفكير طويل وقرار كان يعرفه سابقًا، ولكن ربما ليس بأي نسبة، وما الذي سترتب على ذلك بين مؤيدي الجزائر الفرنسية وخصومها، كما قيل في ذلك الوقت؟

- ما أكثر شيء تغير في الغباء منذ قاموسك الذي صدر عام ١٩٦٥؟

- المعلومات بالتأكيد. أنا مثل أي شخص آخر، من وقت لآخر أغوص في اليوتيوب وأرى سلسلة من الأخبار: هل هي مزيفة أم أنها حقيقية؟ لا أعلم شيئاً عن ذلك. لقد جئنا لنشرح لك أن هذا اللغز قد تم حله، وأن هناك بالفعل كائنات فضائية في أمريكا، وأن الحكومة الأمريكية قد أمرت بتدمير أبراج مانهاتن... هل كنت تعتقد في ذلك؟! إن أكثر ما كنا نفتقر إليه منذ قرون هو المعلومات التي أصبحنا الآن غارقين فيها. ومن دون الرجوع إلى الوراء أكثر من ذلك، لم يكن جدي، في قريتي، يعرف ما كان يحدث في إيطاليا، ولم يسمع تقريباً عن موسوليني. اليوم، نحن نعرف كل شيء على الفور، من دون تحقق أو بيئة. هذا هو ما يلفت انتباهي أكثر. وهذا يمكن أن يؤدي إلى حماقات فادحة. لم يكن الأمر بهذه الصعوبة على الإطلاق بالنسبة إلى السياسيين؛ ستلاحظ أنهم في كثير من الأحيان، يجيبون بنعم أو لا.

- لأننا نطلب منهم أيضاً الرد بسرعة كبيرة!

- السياسي الحقيقي هو من يقول: أعطني وقتاً للتشاور والتفكير.

- من يجرؤ على قول «لا أعرف»، «لا أعرف بعد»؟

- بعض الناس يقولون ذلك من وقت لآخر. وفي كل الأحوال نجد أنفسنا غارقين في كم هائل من المعلومات التي لم نعد نعرف كيف نفرزها. مع البيانات الضخمة الشهيرة Big Data، التي نجتمعها ونعالجها لإعطاء الآخرين معلومات عن أنفسنا لا نعرفها نحن أنفسنا!

تتسلل الإعلانات، والمال، إلى كل مكان، لذلك علينا أن نكون حذرين أكثر فأكثر. ومع ذلك، عندما يقول لي أحدهم: «يبدو أنك قلت ذلك، وأنتك فعلت ذلك»، وأن ذلك غير صحيح، أجيب: «هذا تصوّر غير سليم! إنه أسوأ بكثير!»، وأضيف مزيداً حتى يصبح هذا غير قابل للتصديق.

- ألا يمكن لهذه الوفرة من الهراء الناتج عن المعلومات أن تجعلنا أكثر ذكاءً في نهاية المطاف، من خلال تشجيعنا على الشك أكثر؟ من خلال خداعنا بالأخبار الكاذبة، ربما نتعلّم أن نكون حذرين؟

- عندما تقول «نحن»، أي جزء من السكان يغطي هذا؟ القليل جداً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن السكان يجدّدون أنفسهم باستمرار. لديّ ابنتان، واحدة عمرها ٥٥ سنة والأخرى ١٥ سنة. إنهما عالمان! ليس لديهما نفس عادات التفكير على الإطلاق. ما أقوله لإحدهما، لا أقوله بالضرورة للأخرى. إضافة إلى ذلك، لا أحد يستمع إليّ!

- هل تعتقدان أنك تقول هراء؟

- نعم، أو أن هذا بلا فائدة. ممكن. عندما أكتب مشهداً فيه حوار، أحتاج بالتأكيد إلى القيام بذلك يدوياً، باستخدام الأسهم، واستخدام الكلمات التي تسير في كل الاتجاهات، التي تكتب بالمقلوب وتشطب... لكنني لاحظت أن الكتابة اليدوية تختفي. لم يعد بوسعنا تتبع المسار الذي قاد كاتب ما من صياغة إلى أخرى. بالنسبة إلى المؤلف كما أفعل أحياناً، فإن ما لن يتمكن الكمبيوتر أبداً من إعطائي

إياه هو المسودة، المسودة الأولى، وهي ثمينة جدًا لأنها تأتي من اللا وعي. وحتى لو كانت هذه المسودة غبية، الأمر طبيعي؛ اللا وعي ليس ذكيًا بالضرورة.

- هل نعيش في العصر الذهبي للحماقة أم أن الحماقة نفسها متساوية؟

- لا يزال أمامها أيام جيدة، كن مطمئنًا! إذا أقررنا مثل لوي بوفويل أن الإنسان فيه ٦٠٪ سيئ و ٤٠٪ جيد، فالحماقة في تقدّم، وكذلك العنف. ولكن إذا أقررنا بأننا متوازنون إلى حدّ ما بنسبة ٥٠-٥٠، فإن الحد من الحماقة مسألة قوانين وتعليمات وأسلوب حياة وتنظيم الدولة والمجتمع. كل يوم تطرح مثل هذه الأسئلة، ولا يمكن حلها بكلمة أو جرّة قلم. سمعت شعار «الرأسمالية، في الخارج»؛ هذا لا يعني شيئًا! لا شيء على الإطلاق. يجب علينا أولاً أن نحدّد الكلمات، وهي معقدة للغاية، لأنه لا أحد لديه نفس تعريف كلمة «الرأسمالية». ويمكننا أن نذكر آلاف الأمثلة على هذا النوع، وهذا ليس وليد اليوم. لكن هذه الشعارات تنتقل بسرعة كبيرة، مع كل الأجهزة الصغيرة التي تملأ جيوبنا، نعم، لقد تغيّر ذلك. يجب أن نفكر دائمًا فيما وراء الكلمات التي نسمعها، والأشياء التي نراها.

- هل الشر والحماقة ابنا عمومة؟

- بالتأكيد. لكن الحمقى يمكن أن يكونوا طيبين جدًا ولطفاء جدًا. إن شر هتلر، منهجيًا، هو بالضرورة غبي. هو محدود، فهو يعلم أنه في يوم من الأيام سوف يدمره شر ربما أكثر خطورة من شره. المطالبة

بالسيطرة على العالم، واستبعاد جزء من السكان وإبادتهم لفرض رأيخ
ثالث لـ ٣٠٠٠ عام، إنه أبله تمامًا! إنه حقًا الغباء في ممارسة. المأساة هي
أن الناس الأكثر تحضرًا على وجه الأرض قد سمحوا لأنفسهم بالتسمم
بهذه الحماقة الهائلة. عليك دائمًا أن تكون على أهبة الاستعداد، هذا
كل شيء. لا تستسلم، على سبيل المثال، عند الإجابة عن الأسئلة عبر
الهاتف.

أجرى المقابلة جان فرانسوا مارميون

فليعيش بسلام مع حماقاته

ستايسي كالاهاان

أستاذ علم النفس السريري وعلم النفس المرضي جامعة تولوز ٢- چان
جوريس،

باحثة في مركز دراسات وأبحاث علم النفس المرضي وعلم النفس الصحي
(CERPPS)

«ضد الغباء، الآلهة نفسها تكافح عبثاً»

فريدريش فون شيلر

الحماقة أمرٌ لا مفرّ منه، لأننا جميعاً بشر. إن حماقتنا هي منتجتنا
الخاصة، وكذلك ردود أفعالنا تجاهها.

هناك مرادفات كثيرة لكلمة «حماقة»: خفة عقل، عباطة، بلادة،
بلاهة، خَرَق، غباء... إلا أن القاسم المشترك بينها هو عنصر الخطأ
المتأصل. حتى أكثر أنواع البلادة/ التفاهة sottise سخافة (المزحة،
على سبيل المثال) التي تمارَس على الآخرين، والتي لا يستقبلونها
جيداً، يُعترف بأنها خطأ. إذا لم يتحقق التأثير الفكاهي المتوقع، فيا له
من عار، وفي النهاية يتبين أن الفعل غبي إلى حد ما. لذلك يبدو من
الواضح أن الحماقات التي تتم عن علم تكون نادرة.

بحثاً عن قبول الذات غير المشروط

«هناك شيان لا نهائيان فقط الكون وغباء الإنسان...
لكن بالنسبة إلى الكون ليس لديّ يقين مطلق».

ألبرت أينشتاين

كيف يمكننا تقبُّل أنفسنا على الرغم من عيوبنا، وحدودنا، وبالطبع حماقتنا؟ في علم النفس، القبول مفهوم شائع جداً. على سبيل المثال، في التأمل الذهني حيث يُدعى الفرد إلى التفكير ببساطة في تجربته، من دون إصدار أحكام، أو في المنهج العلاجي «القبول والالتزام» (thérapie ACT)، يوجه المعالج المريض على طريق قبول العناصر التي تسبّب له مشكلة (في المنزل، من بين أمور أخرى، في بيئته)، ويساعده من خلال استراتيجيات مختلفة، لاكتساب المرونة النفسية المثلى.

وفي علم النفس، سلط الأمريكي ألبرت إليس الضوء بشكل خاص على قبول الذات غير المشروط من خلال تطوير علاجه النفسي الإدراكي والعاطفي والعقلاني (PCER)، وهو مقدمة للعلاجات الإدراكية^(١). لقد كان مستوحى من منهج الفلاسفة الرواقيين (أبيكتيتوس، سينيكا)، الذين رَوّجوا لوضعية القبول العام من أجل أن تؤدّي إلى السعادة. أظهرت ملاحظاته السريرية أن البشر لديهم ميل، فطرياً، يدعمه التعليم

(١) A. Ellis, Reason and Emotion in Psychotherapy, Citadel, 1994.

(الأبوي وغيره)، لقبول أنفسهم... ما دام أنهم يستوفون شروطاً معينة، غالباً ما تدور حول الأداء أو الإجراءات التي يقوم بها الفرد. ولكن من خلال قبول أنفسنا فقط إذا استوفينا شروطاً معينة، تتشكّل هويتنا فقط حول أفعالنا. ومع ذلك، فإن الإنسان أكثر بكثير من مجرد مجموع أفعاله؛ «الفعل» لا يعادل بأي حال «الوجود». وهكذا يوضح ألبرت ليس أن كل إنسان لديه ميزات وعيوب (يصعب أحياناً التمييز بينها)، لكن أفعال الفرد وسماته لا يمكن أن تقدّما وصفاً مُرضياً عن «كينونته». الوجود ليس «جيداً» ولا «سيئاً»؛ إنه يكون، بكل بساطة^(١).

واستناداً إلى هذا المبدأ، يقدم ألبرت ليس إمكانية قبول الذات من دون قيد أو شرط، وفصل وجود الفرد عن أفعاله. من الممكن أن تكون تصرفات الفرد موضوعاً للتقييم، بالطبع، لكن هذا لا ينبغي أن يمتد إلى قيمة الفرد نفسه. يعرف ألبرت ليس هذا المفهوم بأنه قبول الذات غير المشروط (AIS) *acceptation inconditionnelle de soi*.

نحو التعاطف مع الذات

«قد تواجه العبقريّة حدوداً، لكن الغباء لا يعرف مثل هذه الإعاقة».

ألبرت أينشتاين

A. Ellis, R. A. Harper, A Guide to Rational Living, Wilshire Book Company, (١) 1975.

لذا فإن قبول الذات غير المشروط يعتمد بوضوح على القيمة التي يشعر بها الشخص تجاه كيانه، من دون اعتبار أن أفعاله بمثابة تحديد لهويته. في هذه الظروف، فإن ارتكاب حماقة لا يعني أن تكون «أحمق». وهذا جزء من تجربتنا، وليس بأي حال جزءاً من هويتنا. حتى لو كان بإمكاننا قبول فكرة أن أفعالنا لا تحدّد هوياتنا كأشخاص، فإن المرور بتجربة ارتكاب «حماقة» ليس أمراً مريحاً. ومع ذلك، فإن الحماقات الأكثر اعتدالاً تتلاشى بسرعة، وفي أسوأ الأحوال، سنشعر بضيق خفيف بعد فترة. وفي أحسن الأحوال، يمكننا أن نضحك عليها بعد ذلك.

ومن أجل تحسين هذه العملية، يجب علينا أن نتبنى موقف التعاطف تجاه أنفسنا، أو التعاطف مع الذات^(١). في حين أننا على استعداد تام للتعبير عن التعاطف تجاه الآخرين، فإن التعاطف مع الذات، مثل قبول الذات غير المشروط، يثبت أنه أكثر صعوبة، بسبب عدم وجود نموذج حقيقي نتعلم منه.

حدّدت كريستين نيف، التي تُدرّس علم النفس التربوي في جامعة تكساس في أوستن، ثلاثة مكونات مهمة للتعاطف مع الذات^(٢). بادئ ذي بدء، الوعي التام، الذي يتمنّع حالياً بنجاح كبير في علم النفس؛ هذه القدرة على إدراك الفرد تجربته، عندما يحين الوقت، من دون إصدار أحكام، تثبت أنها مفيدة جداً في التغلب على حالات القلق. فهي تتيح

(١). C. Germer, LAutocompassion, Odile Jacob, 2013.

(٢). K. Neff, SAimer, Belfond, 2013.

لنا أن ندرك معاناتنا، في حين ندرك أنها ستكون مؤقتة. ويدعونا العنصر الثاني إلى الاعتراف بإنسانيتنا، فضلاً عن العلاقة التي تربطنا بالعديد من الأشخاص الآخرين الذين يمرون بنا بالتأكيد. كل هذا يدعونا إلى التعبير عن اللطف تجاه أنفسنا، تمامًا كما نفعل مع صديق أو شخص عزيز يمر بظروف صعبة.

من خلال ربط قبول الذات غير المشروط بالتعاطف مع الذات، يكون لدينا عنصران يعززان قدرتنا على الصمود في مواجهة الحماقة. من خلال قبول أنفسنا من دون تحفظ ومن دون شروط، يصبح التعاطف مع الذات أسهل في التنفيذ في حياتنا اليومية.

فضائل الاعتذار

«الاعتذارات مثل العطر الرائع؛ يمكنها تحويل اللحظة الأكثر خرقاً إلى هدية رائعة».

مارجريت لي رونييك

من المعروف أن الاعتذار يمكن أن يخفف من الموقف المتوتر عندما نرتكب حماقة. نسكب النبيذ الأحمر على السجادة البيضاء لمضيفنا؛ وهذه حماقة حقيقية يمكن أن نشعر بسببها بدم عميق، يتراوح بين الإحراج والذنب. لكن الاعتذار الفوري يمكن أن يجعل الجميع يشعرون براحة أكبر. أي عمل يمثل غباءً بشرياً يجد الراحة من خلال الاعتذارات.

إلا أن الاعتذار ليس بالمهمة السهلة، كما توضّح لنا عالمة النفس الأمريكية هارييت جولدهور ليرنر^(١). وتسَلِّط الضوء على أن الاعتذار يكون مناسباً عندما نندم على أفعالنا، ونريد التعبير عن ذلك بصدق للآخرين. على مستوى سهل نسبياً، يمكننا بالتالي الاعتذار عندما نفعل شيئاً غيباً تجاه الآخرين (مزاحمتهم، أو التحدث معهم بطريقة محرّجة بعض الشيء، أو حتى ارتكاب أضرار مادية مثل كسر الزجاج، أو قلب طبق، وما إلى ذلك)، في هذه الحالة، تخفّف الاعتذارات من حدة الموقف، فهي لا تسمح لنا فقط باختبار قبولنا بطريقة حقيقية، ولكن أيضاً لإظهار أسفنا للآخرين.

أما صياغة الاعتذارات عن الأخطاء الأكثر خطورة فأصعب. في بعض الأحيان نشعر بعدم كفاية الاعتذار. أو يبدو أنه يشكّل مخاطر على العلاقة. ومع ذلك، فإن عدم تقديمه يمكن أن يكون بنفس القدر من الخطورة! وفي جميع الأحوال، يضعنا الاعتذار على طريق غالباً ما يكون مجهولاً ويصعب التنقّل فيه. ولكن من خلال البقاء صادقين مع أنفسنا، نتمكّن من العثور على طريقنا.

H. G. Lerner, Why Won't You Apologize?: Healing Betrayals and Everyday (١)

Hurts, Touchstone, 2017.

عندما تؤذي الأعذار

«الاعتذار هو «الغراء الفائقة» للحياة، وهكذا يمكن إصلاح أي شيء حرفيًا».

لين جونستون

وأخيرًا، من الممكن ألا تصل اعتذاراتنا إلى هدفها؛ ربما صغناها بطريقة خرقاء، أو قد يرفضها محاورنا. وفي الحالة الأخيرة، يجب أن يحاول مرة أخرى كي يحدث القبول، حتى ندرك أنه، حتى لو كان هذا واقعًا يصعب التعايش معه، فإن اعتذاراتنا لن تكون مقبولة أبدًا.

ومع ذلك، لكي تحظى اعتذاراتنا بكل فرصة لتحقيق هدفها، يجب علينا تجنب الوقوع في عديد من الفخاخ التي استشهدت بها هارييت جولدهور ليرنر.

على سبيل المثال، باستخدام كلمة واصفة أو شارحة للخطأ («لكن»، «مع ذلك»، وما إلى ذلك)، من المحتمل جدًا أن اعتذاراتنا قد أخطأت الهدف («أنا نادم على سكب النبيذ الأحمر على السجادة ولكن الحقيقة أن السجادة البيضاء ليست مناسبة لحفلة») مثل هذا العذر، في نهاية المطاف، ليس سوى لوم متكرر في صورة «اعتذار»، تمامًا مثل عبارة «أنا آسف» لأنه من الصعب جدًا قبول كونك «أخرق في أثناء صب النبيذ». وهذا هو اتهام الشخص الآخر لأنه مستاء من حماقتنا!

يمكننا أيضًا أن نجعل اعتذارنا عديمة الفائدة إذا كان المحاور مترددًا في قبولها، وبالتالي نشعر بالإحباط تجاهه («قلت إنني آسف/ لأنني سكبت النبيذ! هل هناك أي شيء آخر يمكنني فعله؟»). صحيح أننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك بكثير في هذه الحالة، بخلاف إعطاء الوقت للفرد لتجربة خيبة أمله. تستكشف هارييت جولدهور ليرنر طرقًا خرقاء أخرى للاعتذار، لكنها تسلط الضوء على أهم ما يمكن تعلمه؛ الاعتذرات المقدمة تكون موجّهة إلى الآخرين، إذا انتهى بها الأمر إلى التركيز على انزعاجنا، فقد أخطأت هدفها.

قبول حماقتنا لا يتيح لنا التغلب عليها فحسب، بل التعلّم منها أيضًا؛ تعلّم قبول أنفسنا، وتعلّم منح أنفسنا التعاطف خلال هذه اللحظات المؤلمة، وتعلّم كيفية إظهار أصالتنا من خلال اعتذرات صادقة ومدروسة تجاه الآخرين. من كان يتصور أن مثل هذه المزايا مرتبطة بالحماسة؟

فيما وراء العار

«الغباء هو جزء من نعم الله، لكن لا ينبغي إساءة استغلاله».

البابا يوحنا بولس II

في عملها حول قوة الإحساس بالضعف^(١)، تناقش برينيه براون، من جامعة هيوستن، الفرق بين الإحراج والشعور بالذنب والعار، هي

B. Brown, Le Pouvoir de la vulnérabilité, Guy Trédaniel, 2015. (١)

ردود أفعال نموذجية تجاه حماقتنا. عند الحديث عن الإحراج، لاحظنا بالفعل أنه غالبًا ما يكون تجربة قصيرة وعابرة. وبمجرد مرورها، تتحوّل إلى ذكرى تشجّعنا في أغلب الأحيان على الضحك على حماقتنا. يأتي الشعور بالذنب من تجربة أكثر صعوبة قليلًا، لأنه يدل على وقوع خطأ في حق الآخرين. نحن لا نرغب في إيذاء الآخرين، لكن يمكن أن تنتج حماقتنا هذا التأثير؛ يسمح لنا الشعور بالذنب بإدراك أننا ارتكبنا خطأ، ويدفعنا إلى عدم القيام بذلك مرة أخرى. وبالتالي، الحرج والشعور بالذنب هما ردًا فعلٍ ملائمين نسبيًا.

من ناحيةٍ أخرى، يعدُّ العار حالةً صعبةً وسامةً ويصعب التغلب عليها، بل وحتى صادمة. ليس من الصعب جدًّا التعايش مع العار (على المستوى العاطفي والإدراكي والفسولوجي) فحسب، بل يمكن أيضًا أن يسبب ضررًا حقيقيًا لاحترامنا لذواتنا. ومن خلال آثاره السلبية، فإنه يُديم نفسه. ومع ذلك، لاحظت برينيه براون أن الأفراد الأكثر تكيّفًا يُظهرون «الصمود» في مواجهة العار. يتأتّى هذا الصمود من عناصر عدة، أهمها أن تعرف نفسك جيدًا بما يكفي لمنع الشعور بالعار في مواقف معينة (من خلال تحديد محفزات العار الشخصية). وينضم هذا الوضوح إلى القدرة على القبول، فمن خلال مواجهة ضعفنا أمام العار، فإننا بالفعل على الطريق لقبول نقاط ضعفنا وأخطائنا.

سيرج تشيكوتي

قبول الذات غير المشروط

إن فكرة قبول أنفسنا من دون قيد أو شرط يمكن أن تتعارض مع معتقداتنا العميقة، حيث إننا نميل إلى مساواة قيمة أدائنا مع قيمتنا كبشر. إضافة إلى ذلك، يخلط أحياناً بين قبول الذات غير المشروط AIS، ومرة أخرى بشكل خاطئ، وبين احترام الذات الذي، في تعريفه الأساسي، يعتمد بقوة على مفهوم الأداء الذي يتبين أنه غير مستقر للغاية بمرور الوقت^(١).

وعلى الرغم من كل الجهود التي نبذلها، فإن أدائنا لا يمكن إلا أن يُثبت، في يوم أو آخر، أنه غير كافٍ... إضافة إلى ذلك، قد نخلط أيضاً بين قبول الذات غير المشروط وموقف الاستسلام والسلبية والرضا عن النفس والأنانية الخالصة أو حتى الضجر في مواجهة أهدافنا المهمة. ومع ذلك، فإن قبول الذات غير المشروط لا يقترح إنكار أوجه القصور لدينا، بل على العكس من ذلك، قبولها ببساطة والتعلم من تجربتها والعزم على التقدم، مع الحفاظ على موقف حسن متمثل في القبول غير المشروط لوجود الفرد.

سيرج تشيكوتي

H. Chabrol, A. Rousseau, S. Callahan, Preliminary results of a scale assessing (١) instability of self-esteem. Canadian Journal of Behavioural Science/Revue canadienne des sciences du comportement, 38 (2), 136-141, 2006.

الحماقة هي ضجيج الحكمة الخلفي

مقابلة مع توبي ناتان

أستاذ فخري في علم النفس بجامعة باريس الثامنة فينسين - سان دُني، كاتب
ودبلوماسي

- هل تختلف الحماقة باختلاف الثقافات؟

- تعمل الثقافة تحديداً على الحفاظ على الحماقة، من خلال تقديم أفكار معقدةً لأكثر عدد ممكن من الناس، من خلال ما يشبه الفلسفة المشتركة. كلما كنت أكثر ثقافة، كان لديك وصول أكبر إلى الأفكار المعقدة، حتى لو كنت أحمق، فأنت تحمي نفسك من حماقتك أنت.

- لكن هل من الممكن أن يُنظر إليك على أنك أحمق في ثقافة ما وليس في ثقافة أخرى؟

- أنا لست متأكداً من هذا. تظهر الحماقة، إما في مناقشة، وإما في صنع شيء ما؛ كتاب، إحدى الأدوات، موسيقى... وفي العمل ينكشف القصور الفكري، وكلما زاد تنظيم الأعمال من الناحية الثقافية، قلَّ احتمال إظهار حماقتك. على سبيل المثال، في الجامعة، لا يُدرّس معظم الفلاسفة الفلسفة أبداً، بل يُدرّسون فقط تاريخها: «قال أفلاطون

هذا، وقال ديكارت ذاك...»، لا يقولون أبدًا: «أنا أقول ذلك». وإلا فسوف يكشفون عن حماقاتهم. فتاريخ الفلسفة يفيدهم في إخفاء حقيقة عجزهم الفكري.

- هل يمكن للأحمق أن يمضي قدمًا مُقنَّعًا بالاقتباء خلف ثقافة الآخرين؟

- يمضي قدمًا دائمًا مُقنَّعًا! كلما كنا أكثر حماقة، أردنا أن نُظهر أننا لسنا كذلك، إنها مسألة فخر. لذلك نبحت عن الأدوات في مكان آخر، في كل مكان. إنه فظيع. قال لاكان إنه عندما نحلل الحمقى نفسيًا، فإنهم يصبحون أشرارًا، لأنهم يدركون أوجه القصور لديهم. هذه أحد آراء لاكان النادرة العادلة والمثيرة للاهتمام.

- وهل يقول علماء النفس حماقات؟

- كثيرًا! لقد رأيتُ منها موجات في علم النفس... عندما كنت طالبًا، شاركت بالفعل في بحث حيث كنا قد حققنا في عروقتنا ٥ مل من الكحول الإيثيلي. بمجرد أن ثملنا قليلًا، فضَّلنا النساء ذوات الصدور الكبيرة. وهكذا، أُثبتت فرضية الباحثين. أوكد لك أنه بحث أكاديمي منشور في النشرة النفسية. هذا هو الهراء الذي شغل علماء النفس لمدة ٥٠ عامًا وما زال يشغلهم حتى اليوم؛ شغف القياس. نظرًا لأنه كان لا بدَّ من قياس شيء ما، فقد قيسَت شهية الرجال للنساء بناءً على كمية الكحول المستهلكة. ليست هناك حاجة إلى استطلاع الرأي لقول ذلك! أشعر أننا سنخرج من هذا الهراء قليلًا، لكن بالكاد. لكن إذا لم نقم بالقياس، فما فائدة علم النفس؟ نعم، إنها مشكلة...

لأنه حينئذ نحن ملزمون بأن تكون لدينا أفكار، ويصبح الأمر كذلك معقداً لأننا حينئذ سنرى أنك أحمق.

خلف القياس، الأمر أقل وضوحاً. إنها لعنة حقيقية لعلم النفس!

- هل تديم علوم الأعصاب هذا النوع من حماقة؟

- لقد جلبت قليلاً من الذكاء والأصالة إلى علم النفس، في البداية، عندما انتصرت المادية الأكثر إطلاقاً، وهو ما كان مفاجئاً. وكان ينبغي أن نستمر، لكن العلماء لم تكن لديهم الجرأة للقيام بذلك. لقد تفككت علوم الأعصاب، وسقطت في الهاوية حتى من خلال الموضوعية. لكن الأمر دائماً هكذا في العلوم؛ بعد اكتشاف كبير أحدث ديناميكية لمدة ١٠ أو ٢٠ عاماً، نفدت قوته لصالح الرؤساء الذين يريدون إيجاد موطئ لأقدامهم؛ لقد انتهى الأمر، ولم يعد هناك إبداع، في حين أن اللاهراء هو الخلق. متى كان آخر إبداع في علم النفس؟ ربما قبل ٧٠ عاماً.

- عموماً، هل لديك انطباع بأننا نعيش العصر الذهبي للحماقة أم أنها مستمرة؟

- إذا أزلنا إمكانية سعة الاطلاع والأفكار المعقدة الكبيرة مثل الأديان والنصوص المقدسة، وطقوس الشعوب التقليدية، حينئذ تبرز الحماقة مجدداً. وفي عصرنا هذا، بنذ الفلسفات المشتركة، أجبرنا الناس على فضح حماقاتهم أكثر. إنهم ليسوا أكثر حماقة من ذي قبل، بل إنهم أقل إلى حد ما، لكن الأمر أكثر وضوحاً.

- من دون سعة الاطلاع واللغات الاصطلاحية، هل الحماقة عارية؟

- هذه هي الجملة الصحيحة بالضبط. لم أكن أعرف كيف أجدها!

- حسنًا ، كلانا يقوم بالتوليد الحوارى! ولكن ما أفضل طريقة لمحاربة الحماقه؟

- لا توجد طريقة واحدة! لماذا تريد محاربة الحماقه؟ عليك أن تختبئ من الحمقى، هذا كل شيء. لقد حاولتُ، قليلًا، في الجامعة، حيث تزدهر رطانات الحمقى اللغوية. أنا ساذج. بالفعل! إضافة إلى ذلك، وهذا واضح... كنت أعتقد أن الجامعة كانت مخصصة للبحث والتدريس. وهذا هو المكان الذي شاركت فيه. رأيت العواقب؛ كارثة. إذا كنت ترغب في الحصول على أدنى فرصة للاستمرار في الوجود في الجامعة، فعليك أن تختبئ. بمجرد ظهورك، تصبح هدفًا. فالحمقى لا يحبون الأشخاص الذين ليسوا كذلك. ربما أنا كذلك، لكن إذا ظنوا أنني لست كذلك، فلن يخطئونني.

- ومع ذلك، فانت تكتب كثيرًا من الكتب، وهذه ليست وسيلة جيدة جدًا للاختباء!

- إنه ليس مثل حضور مجلس إدارة الجامعة، أو مجلس علمي، لأن هذا مرعب؛ قرية من الصيادين، لكنها أقل فعالية بكثير.

- وهل سبق لك أن ارتكبت أوقلت حماقات ندمت عليها لفترة طويلة؟

- أخطاء، نعم. ولكن هل هي حماقات؟ فالإصرار على خطئك هو ارتكاب الحماقه. كثيرًا ما واجهت انتقادات من زملائي. في هذه الحالة، يمكننا إصلاح الأمر: «لقد كنت مخطئًا. التحليل النفسي أروع شيء اخترع على الإطلاق. أقر بأنني أخطأت فيما قلته». ولكن الأمر

معقّد، لأنه لا يزال يتعيّن عليك الحفاظ على ماء وجهك. أو يمكنك الاستمرار في خطئك... ومن ثم، تعدّ أحق. لقد حاول بعض زملائي الأكبر سنّاً الخلط بين التحليل النفسي والماركسية. إذا أصرت على هذا اليوم وقد تبين لك أن التحليل النفسي قد مات وأن الماركسية كارثة على المستوى السياسي، فهناك، يمكننا أن نقول إنك أحق. لقد أصرت على وجودي، وواصلت ممارسة الطب النفسي العرقي. لا أعرف حتى الآن ما إذا كان ذلك خطأ.

- ما أسوأ الحماقات التي اتهمك بها الناس فيما يتعلق بالطب النفسي العرقي؟

- بدأ الأمر مع أستاذي جورج ديفرو. لقد لامني هو نفسه على اهتمامي بالشامانية: «إن الشامانيين، كلهم مرضى نفسيون! مرضى خطيرون! أنت لا تعرفهم!». لقد وجدت تقنياتهم مثيرة جدّاً للاهتمام، فضلاً عن الفلسفة التي نقلوها. لقد اعتبرت دائماً أنه يتعيّن علينا أن نتعلّم من المعالجين التقليديين من خلال تقنياتهم. وبما أن هذه تقنيات حقيقية، فلماذا لا نستعيرها ونتبنّاها ونطبقها بأنفسنا ما دمنا نفهمها؟ لقد تعرضت لانتقادات كثيرة لهذا السبب. لم يُقل لي إنني أحق، لكنني أظهرت انحرافاً لإبقاء الناس في تخلفهم، كأن ذلك لمصلحتي الشخصية! الآن لم يعد أحد يلومني. لقد أدركنا أن أولئك الذين يأتون من أماكن أخرى لا يحتاجون إلينا للدفاع عن أفكارهم، فهم يفعلون ذلك بشكل جيد للغاية بأنفسهم. نحن مجبرون على العيش في عالم لا تمتلك فيه الثقافات الأخرى طريقة تفكيرنا. إنه أمر صعب، لكن ينبغي ذلك.

- هل للحماقة في عصرنا هذا ساحات جديدة؟

- لقد كنت من أكثر المقاتلين حماسًا لصالح الديمقراطية الواقعية، المباشرة. وأخيرًا، هي موجودة! هذه هي الشبكات الاجتماعية، يستفيد فيها الشعب من صوت يعادل صوت أي شخص آخر. إذا كنت على تويتر، فإن لديك نفس مستوى مداخلات إيمانويل ماكرون تمامًا، حتى مع عدد أقل من المتابعين. يمكنك أن تتحدث إليه ويتحدث هو إليك. إنه لا يتحدث معي أبدًا، لكن من حيث المبدأ هذا ممكن. ولم نتصور أننا بتطبيق هذه الديمقراطية المباشرة سنكتشف حماقة ثلاثة أرباع مستخدميها! هناك سبب للفرع فيما يتعلق بالمستوى.

- ألا تكشف الديمقراطية المباشرة عن إمكانات الذكاء لدى الناس؟

- على الإطلاق. إنها مشكلة حقيقية. لذا يجب علينا العودة إلى الميدان، لنثقف، ونوجه، وندرّب على الإبداع، ونكشف عن الأفكار المعقدة، ونجعل الناس يرغبون في تولّي زمام الأمور بأفكار جديدة. وهذا ما يفعله المعلم عادة. يجب ألا نستسلم بسبب شبكات التواصل الاجتماعي، بل على العكس!

- وماذا لو كان الناس لا يريدون أن يصبحوا أذكىء بعد كل شيء؟ إذا كانوا يرغبون في جعل رد فعلهم سريعًا للغاية، عاطفيًا، فيما يتعلق بأي شيء، قبل الانتقال إلى شيء آخر؟

- كثيرًا ما يؤيد علماء النفس الكسل الذي وفقًا له يكفي أن ندع العاطفة تعبر عن نفسها. إنها ذكاء مضغوط. كلما كنت أكثر

ذكاء، كانت عواطفك أكثر تعقيداً. يجب أن نتوقف عن معارضة العاطفة والذكاء. الشخص الذي يدرب ذكائه يواجه مشاعر أكثر تعقيداً من تلك التي يواجهها شخص لا يدربه. فلتدرب ذكاءك! لا أقول ذلك لك... إنها كلمة السر.

- هل لديك فرصة لإسماع صوتك؟

- لا. إنه لأمر مخزٍ، في الماضي، كان هناك تذوق للعبة الشطرنج، فهي رياضة فكرية حقيقية، وهو نظام موجود في الألعاب الأولمبية؛ ما ثبت أنه يمكن تدريب الذكاء مثل العضلات الأخرى. إنها المواجهة مع الموت: «mat مات» من «échec et mat ملك» يعني «مات» بالعربية. الموت وحده هو الذي كان يملك المعرفة الكاملة بكل إمكانيات اللعبة، ولكن للأسف، أصبحت أجهزة الكمبيوتر تمتلك هذه المعرفة الآن أيضاً. إذا لم يكن الموت هو الوحيد الذي يحمل الحقيقة، فستصبح اللعبة وقد عفا عليها الزمن. لقد اعتقدنا لفترة طويلة أنها لا تنضب، ومع ذلك لم يعد بإمكاننا لعبها! إنها كارثة ورثها القرن العشرون. على أي حال، لسنا نحن الأذكاء، بل الأدوات التي نصنعها. إنها تجبرنا على التفكير في الأشياء. لقد صنعنا لغة تجبرنا على التفكير؛ اللغة أذكي منا. لا يوجد ذكاء مجرد رغم ما يقوله لك الإدراكيون. هذا كذب، إنه هراء! إضافة إلى ذلك، فإنهم أنفسهم يعتمدون على الأدوات التي يصنعونها. للقياس... من الطبيعي، والمنطقي، أن أدواتنا، في مرحلة ما، تصبح أكثر ذكاء منا. المفتاح هو أن نتمكن من البقاء في المنافسة معها. إنه مسار يتبعنا منذ فجر البشرية. ما زلنا صامدين، لكن

لا أعرف إلى متى. عندما أقول «نحن»، لا يعني نحن الفرنسيين، بل البشر...

- هل يمكننا تحويل الحماقة لصالحنا؟ وبما أننا لا نستطيع إلا أن نختبئ من الحمقى وليس بإمكاننا تغييرهم، فهل يمكننا أن نعرف بوجودهم ونشكرهم على شيء ما؟ في نهاية المطاف، بفضلهم، يمكننا أن نتعلم الحكمة؛ حكمة الاختباء، والصبر، والتسامح، وسعة الصدر...

- وأنا أتفق معك تمامًا. لقد عملت بالتدريس لمدة أربعين عامًا، إلى أن قيل لي إنني كبير في السن (في فرنسا، لم يعد مسموحًا لك بالتدريس بعد سن معينة، على الرغم من أن التدريس هو المكان الوحيد الذي يمكننا فيه الاستفادة من الشيوخ). في البداية، تجد نفسك في مواجهة أشخاص إما يعتبرونك معلمًا روحانيًا (وهي كارثة، إنها طريقة لدفنك)، وإما يتحدونك. عندما تكون صغيرًا، تكون أكثر ديناميكية ولكنك غير صبور، ولا يمكنك تحمل الأمر عندما لا يفهمك الناس. أنت غاضب، محتد، تحاول الإقناع رغم كل شيء. ومع مرور الوقت، حقًا لقد اكتسبت الصبر، ونوعًا من التعاطف مع تفاهة العالم. أقول لنفسي إنك في الموسيقى تحتاج إلى خلفية لكي يظهر اللحن. وبالمثل، فإن الحماقة ليست أكثر من ضجيج في الخلفية يسمح لنا باكتساب قليل من الحكمة.

أجرى المقابلة جان فرانسوا مارميون

المسهمون في هذا العمل

دان أرثيلي Dan Ariely

يشغل دان أرثيلي كرسي ألفريد ب. سلون للاقتصاد السلوكي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (كامبريدج، ماساتشوستس)، وهو مؤلف كتاب «إنه أنا (حقاً؟) من يقرر (C'est (vraiment?) moi qui décide)» (فلاماريون، ٢٠٠٨) و«الحقيقة الكاملة (أو تقريباً) عن خيانة الأمانة (Toute la vérité (ou presque) sur la malhonnêteté)»، و«كيف نكذب على الجميع، بداية بنفسك؟ (Comment on ment à tout le monde, à commencer par soi-même)» (رو دو لايشكييه، ٢٠١٧).

بريجيت أكسلراد Brigitte Axelrad

أستاذة فخريّة في الفلسفة وعلم النفس الاجتماعي. وهي، بشكل خاص، مؤلفة كتاب «خراب الذكريات الزائفة أو الذاكرة المتلاعب بها (Les Ravages des faux souvenirs ou la mémoire manipulée)» (كتاب إلكتروني، ٢٠١٠) و«خراب الذاكرة الزائفة (The ravages of False Memory)» (جمعية الذاكرة الزائفة البريطانية، أبريل ٢٠١١).

وهي عضوة في مرصد زيتيك في جرونوبل وهيئة تحرير مجلة Science et pseudosciences، التي تصدر عن الجمعية الفرنسية للمعلومات العلمية (AFIS)، وتكتب فيها بانتظام.

لورون بيج Laurent Bégue

عضو بارز في المعهد الجامعي في فرنسا ومدير دار علوم «إنسان الألب Alpes - l'Homme»، وقد نشر بشكل خاص سيكولوجية الخير والشر Psychologie du bien et du mal (أوديل جاكوب، ٢٠١١)، ورسالة في علم النفس الاجتماعي Traité de psychologie sociale (دو بويك، ٢٠١٣) والعدوان البشري L'agression humaine (دونو، ٢٠١٥).

كلودي بير Claudie Bert

صحفي علمي متخصص في العلوم الإنسانية.

ستائيسي كالاها Stacey Callahan

أستاذة علم النفس السريري وعلم النفس المرضي في جامعة تولوز ٢ - جان جوريس، باحثة في مركز دراسات وأبحاث علم النفس المرضي وعلم النفس الصحي (CERPPS)، نشرت العلاجات السلوكية والإدراكية Les Thérapies comportementales et cognitives، والأسس النظرية والتطبيقات السريرية Fondements théoriques et applications cliniques (دونو، ٢٠١٦)، وتوقّف عن التقليل من شأن نفسك! حرّر نفسك من متلازمة المحتال! Cessez de vous déprécier!

Se libérer du syndrome de l'imposteur (مع ك. شاسنجر، دانو،
Mécanismes de défense et المواجهة والذات الدفاع (٢٠١٧)،
coping (مع هـ. شابرول، الطبعة الثالثة دانو، ٢٠١٨).

جان كلود كاريير Jean-Claude Carrière

كاتب عودة مارتن جير Le Retour de Martin Guerre، وجدل
بلد الوليد La Controverse de Valladolid، ودائرة الكاذبين Le
Cercle des menteurs، والاعتقاد (...Croire)، وكاتب سيناريو
...Pierre Etaix, Louis Malle, Luis Buñuel, Milos Forman
وقد نشر مع جي بيشيتيل معجم الغباء وأخطاء الحكم Dictionnaire
de la bêtise et des erreurs de jugement (الطبعة الأولى، تحرير
روبير لافون، ١٩٦٥).

سيرج تشيكوتي Serge Ciccotti

دكتور في علم النفس، عالم نفس وباحث مشارك في [جامعة
جنوب-بريتاني. وهو مؤلف عديد من الأعمال المشهورة في علم
النفس، بما في ذلك: عندما تسبح في السعادة، هناك دائماً مخبول
Quand tu nages dans le bonheur, ya toujours الماء من ليخرجك
un abruti pour te sortir de l'eau (دونو، ٢٠١٨).

جان كوترو Jean Cottraux

طبيب نفسي فخري في المستشفيات، ومحاضر سابق في جامعة
ليون ١، وعضو مؤسس في أكاديمية العلاج الإدراكي في فيلادلفيا، وقد

نشر بشكل خاص كتاب «بروفة سيناريوهات الحياة» La Répétition
des scénarios de vie. وكل شخص لديه إبداعه الخاص A chacun
sa créativité. وأينشتاين، وموزارت، وبيكاسو... ونحن، أو كل
الترجسين (أوديل جاكوب، ٢٠٠١، ٢٠١٠، ٢٠١٧).

بوريس سيروولنيك Boris Cyrulnik

طبيب نفسي عصبي ومدير التدريس في جامعة تولون، وقد نشر
Un merveilleux malheur، وفردوس ثمل ivres paradis، وسعادة مجيدة
héroïques، والنفوس الجريحة Les Ames blessées (أوديل
جاكوب، ٢٠١٤، ١٩٩٩، ٢٠١٦).

أنطونيو داماسو Antonio Damasio

أستاذ علوم الأعصاب وعلم الجهاز العصبي وعلم النفس
والفلسفة، ومدير معهد الدماغ والإبداع Brain and Creativity
Institute، جامعة جنوب كاليفورنيا في لوس أنجلوس، نشر خصوصاً
خطأ ديكارت والنظام الغريب للأشياء L'Erreur de Descartes et
L'Ordre étrange des choses (أوديل جاكوب، ١٩٩٥ و ٢٠١٧).

سيباستيان ديجيز Sebastian Dieguez

عالم النفس العصبي والباحث في مختبر العلوم الإدراكية والعصبية،
قسم الطب بجامعة فريبور، سويسرا، نشر: أمراض الفنانين - ما تخفيه
Maux de artistes : ce que cachent les oeuvres (Belin، الأعمال)

(2010)، والهراء الكامل! في مصادر ما بعد الحقيقة Total bullshit!
Aux sources de la post-vérité (Puf، 2018).

جان فرانسوا دورتييه Jean-Francois Dortier

مؤسس ومدير مجلة العلوم الإنسانية Sciences Humaines.

إيفا دروزدا سينكوفسكا Ewa Drozda-Senkowska

أستاذة علم النفس الاجتماعي في جامعة باريس ديكرت، وحررت
بشكل خاص «فخاخ الاستدلال Les Pièges du raisonnement»،
وكيف نخدع أنفسنا بالاعتقاد بأننا على حق؟ Comment nous nous
trompons en croyant avoir raison (Retz، 1997)، والتحديات
الاجتماعية والبيئية - إعادة التفكير في مجتمع المخاطر Menaces
sociales et environnementales: repenser la société des
risques (مع ف. بونو وس. كايو، PUR، ٢٠١٧).

باسكال إنجل Pascal Engel

فيلسوف ومدير الدراسات في كلية الدراسات العليا في العلوم
الاجتماعية، وهو مؤلف كتاب معيار الحقيقي، الفلسفة وعلم النفس La
Norme du vrai, Philosophie et psychologie (جاليمار، ١٩٨٩
و١٩٩٦)، والنزاع La Dispute (مينوي، ١٩٩٧) وقوانين العقل Les
Lois de esprit ... جوليان بندا أو العقل Julien Benda ou la raison
(إيتاكا، ٢٠١٢).

هوارد جاردنر Howard Gardner

أستاذ علوم الإدراك والتعليم في كلية الدراسات العليا للتعليم بجامعة هارفارد. عالم النفس التنموي، هو الذي ابتكر نظرية الذكاءات المتعددة. كان له تأثير كبير في مجال التعليم، وحصل على جائزة جراويماير في عام ١٩٩٠. وهو مؤلف كتاب الأشكال الخمسة للذكاء لمواجهة المستقبل Les cinq formes de intelligence pour affronter l'avenir (أوديل جاكوب، ٢٠٠٩)، وكتاب الذكاء والمدرسة - تفكير الطفل وأهداف التدريس la pensée de l'enfant et les visées de l'enseignement: L'intelligence et L'école (ريتز، ٢٠١٢).

نيكولا جوفري Nicolas Gauvrit

عالم نفس وعالم رياضيات، يُدرّس الرياضيات في l'ESPE ليل - نور - دو - فرانس، وهو عضو مؤسسي في مختبر الجامعة للإدراك البشري والاصطناعي (CHART). وقد نشر بشكل خاص «الموهوبون العاديون» (Puf, 2014) «Les Surdoués ordinaires».

أليسون جوبنيك Alison Gopnik

أستاذة علم النفس والفلسفة بجامعة كاليفورنيا، بيركلي، نشرت كتاب الطفل الفيلسوف (Le Pommier) Le Bébé philosophe، Comment pensent les bébés? كيف يفكر الأطفال؟ (٢٠١٢)، (مع أ. ميلتزوف وبي كوهل)، ودليل مكافحة التعليم Anti-manuel

dédication والطفولة التي كشفها العلم (Le Pommier، ٢٠١٢،
٢٠١٦، ٢٠١٧).

رايان هوليداي Ryan Holiday

مدير تسويق سابق لشركات الملابس الأمريكية آباريل، وكاتب
عمود في صحيفة نيويورك أوبزرفر، لقد نشر بالفعل، في الثامنة
والعشرين من عمره، ثلاثة من أكثر الكتب مبيعًا حول استراتيجية
التسويق أو، مستوحاة من الرواقية، حول التنمية الشخصية: Growsh:
The Obstacle (Portfolio Penguin، ٢٠١٤)، is The Way (Profile Books،
٢٠١٤)، وصدّقني، أنا أكذب عليك - اعترافات متلاعب إعلامي (Croyez-moi, je vous mens
confessions d'un manipulateur des médias (Globe، ٢٠١٥)،
حيث يشرح مدى سهولة خلق ضجة لعملائه.

آرون جيمس

أستاذ الفلسفة في جامعة جنوب كاليفورنيا، إيرفاين، وقد نشر
بشكل خاص «الحمقى - النظرية» (دوبلداي، ٢٠١٢) و«الحمقى -
نظرية دونالد ترامب» (دوبلداي، بنجوان راندوم هاوس، ٢٠١٦).

فرانسوا جوست

أستاذ فخري في جامعة السوربون الجديدة - باريس ٣، ومؤسس
ومدير فخري لمركز الدراسات حول الصور والأصوات الوسائطية.
أصدر أكثر من خمسة وعشرين كتابًا، منها: L'Empire du loft

إمبراطورية اللوفت^{(١)(*)} (إصدارات لا ديسبوت، ٢٠٠٢)، Le
Culte du banal وعبادة المبتذل (إصدارات CNRS، ٢٠٠٧)، أو La
Méchanceté à l'ère numérique وأيضًا الشر في العصر الرقمي.

دانيال كانيمان

أستاذ فخري في علم النفس في جامعة برينستون، حصل على
جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠٢ لأبحاثه في مجال الحكم واتخاذ
القرار، التي نفذها إلى حد كبير مع زميله عاموس تفيرسكي.
ومن أبرز مؤلفاته «النظام ١ / النظام ٢. سرعتا الفكر 1/ Système
2. Les deux vitesses de la pensée (فلاماريون، ٢٠١٢).

بيير لوماركي

طبيب أعصاب وكاتب مقالات. نشر Sérénade pour un
cerveau musicien لحن لدماع موسيقي، L'Empathie esthétique،
entre Mozart et Michel-Ange والتعاطف الجمالي بين موزارت
ومايكل أنجلو، Portrait du cerveau en artiste وبورتريه دماغ فنان
(أوديل جاكوب، ٢٠٠٩، ٢٠١٤، ٢٠١٥).

جان فرانسوا مارميون

عالم نفسي ورئيس تحرير مجلة Le Cercle psy.

(١) (*) المباني التجارية أو الصناعية التي تم تحويلها إلى سكن أو استوديو للفنانين.

باتريك مورو

أستاذ الأدب في كلية أهانتسيك في مونتريال، ورئيس تحرير مجلة Argument، ونشر: لماذا يترك أطفالنا المدرسة جاهلين؟ Pourquoi nos enfants sortent-ils de l'école ignorants? (بوريل، ٢٠٠٨) وهذه الكلمات التي تفكر بدلاً منا Ces mots qui pensent à notre place ونماذج صغيرة من هذه اللغة الجديدة التي تستلبننا Petits échantillons de cette novlangue qui nous aliène. (ليبر، ٢٠١٧).

إدجار موران

عالم اجتماع وفيلسوف، وهو مؤلف عديد من الأعمال بما في ذلك، ومن بين أحدثها، نحو علم للأزمات (l'Herne, Pour une crisologie (2016)، والإنسان البيئي (Lemieux Editeur, Ecologiser l'Homme (2016)، والمعرفة، الجهل، الغموض، Connaissance, ignorance, mystér (Fayard, 2017).

توبي ناتان

أستاذ فخري في علم النفس بجامعة باريس الثامنة فينسين - سان دُني، رائد الطب النفسي العرقي، كاتب ودبلوماسي، نشر عديداً من الأعمال، بما في ذلك: رواية عرقية (Ethno-roman (Grasset, 2012)، وجنون الآخرين (La Folie des autres (Dunod, 2013)، والنفوس الهائمة (Les Ames errantes (L'iconoclaste, 2017).

دلفين أوديت

باحثة في معهد الدماغ والنخاع الشوكي ضمن فريق «التحفيز والدماغ والسلوك»، مهتمة بدور النوم والأحلام في الوظائف الإدراكية الرئيسية مثل الذاكرة والإبداع. نشرت: «كيف ننام؟» (Comment dormons-nous? (مع إ. أرنولف، Le Pommier، ٢٠٠٨).

إيمانويل بيكيه

إحدى ممثلات علاج المختصر والاستراتيجي المنبثق من مدرسة بالو ألتو. وهي أول من صممت طريقة للتدخل لمواجهة التنمر المدرسي من خلال تطبيق أماكن عمل بهذه المدرسة وأنشأت مركزي Chagrin Scolaire et A (فرنسا، سويسرا، بلجيكا).

بيير دو سيناركليس Pierre de Senarclens

أستاذ فخري للعلاقات الدولية في جامعة لوزان، وهو مؤلف عديد من الأعمال المتعلقة بتاريخ الأفكار والتاريخ، وعلم اجتماع العلاقات الدولية المعاصرة، مثل العولمة والسيادة ونظرية العلاقات الدولية Mondialisation, souveraineté et théorie des relations internationales (Armand Colin، ١٩٩٨)، والإنسانية في كارثة L'Humanitaire en catastrophe (Presses de Sciences Po، Critique de la mondialisation (Presses de Sciences Po، 1999)، ونقد العولمة (de Sciences Po، 2003)، أو أيضًا الأمم والقوميات (Nations et nationalismes) (Sciences humaines، 2018).

إيف ألكسندر تالمان Yves-Alexandre Thalmann

دكتور في العلوم الطبيعية، وهو أستاذ علم النفس في كوليغ سان ميشيل في فريبور في سويسرا، ومعلم مدرب. وهو مؤلف، من بين مؤلفات أخرى: «التفكير الإيجابي ٢,٠» ((Pensée positive 2.0) (La Source Vive، ٢٠١٥)، و«تعلم كيف تقود عقلك» (Apprenez Jouvence) (à conduire votre cerveau، ٢٠١٦)، و«لدينا دائمًا فرصة ثانية لنكون سعداء» (On a toujours une seconde chance) (d'être heureux) (أوديل جاكوب، ٢٠١٨)، أو «لماذا نفعل ذلك؟ الأشخاص الأذكياء أيضًا يتخذون قرارات غبية؟» (Pourquoi les gens intelligents prennent-ils aussi des décisions stupides?) (Mardaga، ٢٠١٨).

